



مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً»

مجلة محكمة فصلية

جُمادى الآخرة ١٤٣٧ هـ

نيسان ٢٠١٦ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

أُنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

بجنته المجلة

الدكتور محمود السيد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر» الدكتور أنور الخطيب

الدكتور محمد محفل الدكتورة لبانة مشوح

الدكتور هاني رزق

أمينة المجلة: ريم الملاح

أغراض المجلة وشروط النشر فيها:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة:

١- أن يُرفق الكاتب بحثه بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستل من أطروحة جامعية، ولم يُنشر، ولم يُرسل إلى جهة أخرى حين إرساله إلى مجلة المجمع.

٢- يجب ألا يقلّ البحث عن عشر صفحات وألا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٨٠٠٠ كلمة)، وأن يتضمن جديداً في موضوعه بين الأصالة. أما المقالات والتعريف بالكتب فيقبل منها ما يقل عن عشر صفحات.

٣- يرجى من الباحث إعداد ملخص لبحثه بالعربية يُطبع في بدايته (abstract)، يشير بوضوح إلى الجديد في البحث، وأبرز نتائجه.

٤- ترحّب المجلة بأن يُعدّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.

٥- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.

٦- يجب أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦) وأن تشفع بقرص مدمج مسجلٍ عليه العنوان، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.

٧- يجب أن يلتزم الباحث المنهج العلمي في التوثيق فتُعطي الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي: «اسم المؤلف أو الكاتب - اسم الكتاب أو المجلة - دار النشر ومكانها - رقم الطبعة - سنة الطبع».

٨- تُوضع الكلمات العربية (أو المُعرَّبة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو:

تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

٩- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة الفاصلة، إلخ...

١٠- تُنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السري.

١١- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٢- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تُردُّ إلى أصحابها.

١٣- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: mla@net.sy : E - mail

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشبكة (الإنترنت):

www.arbacademy.gov.sy

بعد صدورها بمدة مناسبة.

* * *

فقدان فاضل

منيت الثقافة العربية بفقدان شاعرها المبدع الأستاذ

فاروق شوشة

الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

والأمين العام لاتحاد المجامع اللغوية العلمية في الوطن العربي
ويعد رحيله خسارة كبيرة نظراً لما كان يتحلى به الفقيه من كفاية
لغوية وأدبية متميزة وموهبة شعرية رفيعة، وسيرة عطرة خلقت ومناقب
وإخلاصاً وتفانياً في أداء عمله، ووطنية وانتماء في خدمة أمته ومشاعر
إنسانية مرهفة في سلوكه.

رحم الله الفقيه الغالي فاروق شوشة، وتغمده بواسع رحمته،
وأسكنه فسيح جنانه، وألهم ذويه ومحبيه وأُمَّته الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

مجمع اللغة العربية بدمشق

فهرس الجزء الثاني

من المجلد التاسع والثمانين

البحوث والدراسات

- ٣٣٧ د.مازن المبارك - لام التوقيت
- جمال الكلمة العربية في النظام الصوتي العربي
- ٣٥٣ د.ممدوح خسارة (المعربّات القرآنية نموذجاً)
- التناصُّ القرآني في الإنشاء الشعري
- ٣٧١ د. عبد النبي اصطيف لأبي مُسلم البهلاني
- ٤٠٥ د.وليد السراقبي - المقامات القرناصية
- ٤٢٩ د. محمد بسناسي - العربية واقع وآمال
- المصطلح البلاغي في كتاب البديع
- ٤٥٧ د.ناصر جباعي لابن المعتز

المقالات والآراء

- ٤٩١ د.مكي الحسني - كاد... يكاد
- المعجم التاريخي للاصطلاحات الطيبة
- ٥٠١ نشأت الحمارنة- اكمال رجب (جرب العين - الحكّة)

التعريف والنقد

- نظرات في بعض قرارات مجمع اللغة العربية
في الألفاظ والأساليب ج ١ د. عبد الناصر عساف ٥٢٥

المحاضرات والمدارس

- العريزي ظاهرة خطيرة على لغتنا العربية د. محمود السيد ٥٥٥
- الماء في ثقافة الشعوب د. لبانة مشوح ٥٨٩
- حوار لغوي حول التسمية العربية النباتية
المتداولة والتسمية العلمية النباتية العالمية د. أنور الخطيب ٦٠٧

أنباء جمعية وثقافية

- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب
من (٧٨-٨٦) ٦٢١
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع
في الربع الثاني من عام ٢٠١٦ م ٦٣٣



البحوثُ والدراسات

لام التوقيت

أ. د. مازن المبارك(*)

لم تكن طريقة اللغويين والنحويين واحدة في الجمع والتدوين والتأليف، بل كانت لكلّ منهم طريقته التي أملت عليها غايته من جمعه وتأليفه. وكذلك لم تكن للغة والنحو مصطلحات تواضعوا عليها؛ فكانت مدلولات كلمات كـ (الحرف) و(النحو) مستعملة دون أن تكون لها تعريفاتها أو حدودها المتفق عليها بينهم. فالعربية تعني عندهم كلّ ما يتصل بالنحو والصرف وغيرهما مما يتفرع منهما أو يتصل بهما؛ لأن العلم بها يراد منه أن يجعل المتعلم يتكلم على سمت الكلام العربي، كما في كتاب سيبويه مثلاً. و(الحرف) قد يكون بمعنى (الكلمة)، وقد يكون بمعنى (حرف الهجاء)، وقد يكون بمعنى حرف من حروف المعاني، لذلك اختار ابن هشام كلمة (الأدوات) ليعبر بها عن الحروف ذوات المعاني، سواءً أكانت حروفاً أم أسماء أم أفعالاً، تمييزاً لها من حروف الهجاء.

وأتجه فريق من النحويين إلى التأليف في الموضوعات النحوية؛ فكتبوا عن أقسام الكلم من اسم وفعل وحرف، وعمّا يتصل بكلّ منها، وكتب آخرون عنها من خلال مواقعها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة... ولم يُغفل

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

هؤلاء المؤلفون الكتابة عن الحروف في كتبهم، ولكن الحديث عنها جاء في ثنايا صفحاتهم وخلال أحاديثهم عن موضوعات تتصل بها، فكان حديثهم عن الحروف الجازمة في موضعه من بحث جزم الفعل المضارع، وكذلك كان حديثهم عن الحروف الناصبة أو الجازة في موضعها من بحث المنصوبات والمجرورات.

واتجهت طائفة من العلماء إلى الكتابة عن (الحروف)؛ فكتب بعضهم عن حروف الألف باء ومعانيها، كما في الكتاب المنسوب إلى الخليل^(١)، وكتب آخرون عن أوصافها ومخارجها، وعن لهجات العرب في نطقها؛ كما في كتاب أو كتب (الهمز). وتناول بعضهم (حروف المعاني) فجمعها وعرض معانيها، وكانت كتب هؤلاء المؤلفين تختلف في أغراضها؛ فمنهم من قصر بحثه على الحروف في كتاب الله^(٢)، ومنهم من تناولها وعرض لمعانيها أينما جاءت في كتاب الله أو في كلام العرب. وأبرز من قام بذلك منهم:

- الهروي في كتاب (الأزھية في علم الحروف).
- والمرادي في كتاب (الجنى الداني في حروف المعاني).
- والمالقي في كتاب (رصف المباني في شرح حروف المعاني).
- وابن هشام في كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعراب)^(٣).

(١) صدر في «سلسلة روائع التراث اللغوي» (ثلاثة كتب في الحروف للخليل بن أحمد، وابن السكيت، والرازي) تحقيق د. رمضان عبد التواب.

(٢) انظر الكتب المؤلفة في لامات القرآن ككتاب اللامات لابن فارس الذي حققه د. شاكر الفحام. (مجلة المجمع م٤٨ ج٤ ص٧٥٧)، وانظر كتاب (الفهرست لابن النديم. ص٥٤) ط مصر سنة ١٣٤٨.

(٣) انظر التفصيل في موضع كل من هذه الكتب بقائمة المصادر والمراجع.

وهو الذي جعل الباب الأول من كتابه، وهو أكبر أبواب الكتاب للبحث في (الأدوات) ومعانيها واستعمالاتها وشواهدا في كتاب الله وكلام العرب.

وكان من العلماء من قصر تأليفه على حرفٍ واحد كالهمز أو اللام أو (ما). ومنهم من ألف عن حرف واحد في كتاب الله، ككتب اللامات في القرآن خاصة، وقد ألف فيها الأخفش الأوسط، والأنباري، وابن فارس، الذي حقق كتابه د. شاكر الفحام، ونشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق^(٤).

وألف غيرهم في اللامات عامة؛ في القرآن، وفي كلام العرب وأشعارهم، ككتاب اللامات للزجاجي. ويمكن لمن أراد الاستزادة في أخبار التأليف في الحروف أن ينظر في الكتب الآتية؛ ففي كل منها حديث لا يغني عنه غيره:

- ١- الفهرست لابن النديم.
- ٢- ثلاثة كتب في الحروف. د. رمضان عبد التواب.
- ٣- الحروف للمزني. تح: د. محمود حسني محمود، ود. محمد حسن عواد.
- ٤- كتاب اللامات للزجاجي. تح: د. مازن المبارك.
- ٥- اللامات لابن فارس. تح: د. شاكر الفحام.
- ٦- مقدّمات الكتب المحققة التي تناولت الحروف كالجني الداني للمرادي ورصف المباني للمالقي^(٥).

وليس عدد اللامات واحداً عند الذين كتبوا عن الحروف، ولا عند

(٤)، (٥) ينظر للتفصيل في تحقيق هذه الكتب وطباعتها وأماكن نشرها وتاريخه، قائمة المصادر والمراجع في آخر البحث.

الذين أفردوا اللام بالتأليف، فلقد أسقط بعضهم بعض معانيها، ودمج بعضهم ما رآه متقارباً من معانيها بعضه في بعض، وأعاد آخرون بعض معانيها إلى بعض. ويفسر ذلك ما أشار إليه غير واحد منهم؛ فقد قال الزجاجي في كتابه اللامات، الذي عدّ منها إحدى وثلاثين لاماً:

«هذا كتاب مختصر في ذكر اللامات ومواقعها في كلام العرب وكتاب الله عز وجل، ومعانيها، وتصرفها، والاحتجاج لكل موقع من مواقعها، وما بين العلماء في بعضها من الخلاف»^(٦)، وبعد أن عدّ إحدى وثلاثين لاماً، مفضلاً معانيها واستعمالاتها وشواهداها، عقد باباً عنوانه «باب معرفة أصول هذه اللامات وبيان تشعبها منها» وقال فيه: «اعلم أن هذه اللامات كلّها، على اختلاف مواقعها وتبيان تصرفها، متشعبة من عشر لامات، وهي الأصول كلّها، وهي: الأصلية، ولام الإضافة، ولام التوكيد، ولام الأمر، ولام الجحود، ولام البدل، ولام الجواب، واللام المزيدة، ولام الفصل، ولام العاقبة»^(٧)، وبعد أن يفصل الزجاجي في بيان عودة اللامات كلّها إلى هذه اللامات العشر، يعود ليقول: «ولولا اختلاف مواقع هذه اللامات، وتبيان أحكامها وعللها وشروطها، لكان لقائل أن يقول: اللامات كلها متشعبة من لامين: لام أصلية، ولام زائدة. وهي لعمرى ترجع كلها إلى هاتين اللامين»^(٨).

وقد عبّر العلماء عن اللام التي تُسمّى لام التوقيت بأساليب مختلفة؛

(٦) الزجاجي، اللامات: ص ٢١.

(٧) الزجاجي، اللامات: ص ١٤٨.

(٨) الزجاجي، اللامات: ص ١٥٠.

فمنهم من ذكر أمثلة على استعمالها في كلام العرب ولم يُسمَّها، ومنهم من حملها على غيرها من الأدوات وفسرها بمعنى الأداة التي حملها عليها، وقال إنها بمعناها.

ولعل ابن قتيبة (٢٧٦هـ) كان من أوائل الذين وصلت إلينا أقوالهم عنها، إذ قال في حديثه عن التأريخ فإذا أرادوا التأريخ، قالوا للعشر وما دونها (خَلُون) و(بَقِين) فقالوا: لتسع ليالٍ بقين، ولثمانى ليالٍ خَلُون، لأنهم بينوه بجمع (يريد قولهم «ليال») وقالوا لِمَا فوق العشر (خَلْتُ) و(مضت) و(بقيت) لأنهم بينوه بواحد (أي ليلة)، فقالوا (لإحدى عشرة ليلةً خَلْتُ، ولثلاث عشرة ليلةً بقيت) ثم قال: «إنما أرخت بالليالي دون الأيام، لأن الليلة أول الشهر، فلو أرخت باليوم دون الليلة لذهبت من الشهر ليلة»^(٩).

وعاد بعد ذلك ليقول في باب آخر من كتابه^(١٠) «واللام بمعنى (بعد) كقولهم «كُتبت لثلاث خَلُون»، أي: بعد ثلاث خلون. وقال الراعي:
حتى وَرَدْنَ لَتَمَّ خَمْسٍ بَائِصٍ جُدًّا تعاوره الرياح وبسيلا
أي بعد تمام خمس»^(١١).

وقال أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)^(١٢): «اللام بمعنى (عند) في قوله

(٩) ابن قتيبة، أدب الكاتب: ٢٧١، باب التأريخ والعدد: والتأريخ عند العرب بالليالي دون الأيام، لأن الشهر القمري أوله ليلة وآخره نهار. يقولون: كُتبت لأول ليلة من شهر كذا، أو لمستهلّه، أو لغرته، أو لخمس خلون.. أو لثلاث عشرة ليلة خلت. ويقولون: لآخر يوم منه، أو: لانسلاخه؛ يعنون أنهم كتبوا في آخر الشهر، وأن الشهر كان ثلاثين يوماً، فدلوا بذلك على تمام الشهر.

(١٠) ابن قتيبة، أدب الكاتب: ٥١٩، باب دخول بعض الصفات مكان بعض.

(١١) البائص: البعيد. والجُدُّ: البئر.

(١٢) الزجاجي، حروف المعاني: ٨٤.

تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّعْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]. وقال: «اللام بمعنى (بعد) في قولهم: كتبت لثلاث خلون، أي بعد ثلاث خلون، قال الراعي: حتى وردن لتمّ خمس بائص...» (١٣)

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري (٥٣٨هـ) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنْبِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]: اللام في (أول الحشر) تتعلق بـ«أخرج»، وهي اللام في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. وقولك: جئت لوقت كذا، والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر^(١٤)، وجاء في الحاشية (١): «اللام في قوله «أول الحشر» كاللام في قوله «قدمت لحياتي»، كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا».

وجاء عند قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]: هذه - أي لحياتي - وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا، كقولك: «جئت لعشر ليالٍ خلون من رجب»^(١٥).

وذكر المالقي (٧٠٢هـ) في كتابه: «رصف المباني في شرح حروف المعاني» أن اللام «تكون بمعنى (بعد)، وهو أيضاً موقوف على السّماع لقلته. ومما جاء من ذلك قولهم: «كتبت لخمس خلون من الشهر، ولست مضين منه» أي: بعد خمس، وبعد ست، وقول الشاعر: حتى وردن لتمّ خمس بائص...

(١٣) الزجاجي، حروف المعاني: ٨٥.

(١٤) الزمخشري، الكشاف ٤/٤٨٧.

(١٥) الزمخشري، الكشاف ٤/٧٤٠.

أي: بعد تمام خمس»^(١٦).

وأما المرادي (٧٤٩هـ) فقد ذكر من معاني (اللام) الجارّة معني (عند) و(بعد) فقال في التاسع عشر من معانيها إنها تكون بمعنى (عند) كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُكُورِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. قيل وعليه الأثر النبوي: صوموا لرؤيته، أي: بعد رؤيته، وجعل بعضهم منه: كتب لخمسٍ خلون.

وجعل الشجري منه قول الشاعر:

فلمّا تفرّقنا كأي ومالكاً ل طول اجتماع لم نبت ليلة معاً^(١٧)

وذكر ابن هشام (٧٦١هـ) في المغني أن (عند) اسم لمكان الحضور، وأنها ظرف، وأنها تأتي لزمانه أيضاً نحو: الصبر عند الصدمة الأولى، وجئتك عند طلوع الشمس. وهي لا تقع إلا ظرفاً أو مجرورة بـ (من)^(١٨).

ثم ذكر ابن هشام في المعنى الحادي عشر من معاني اللام الجارّة أن تكون بمعنى (عند) كقولهم: كتبته لخمسٍ خلون، قال: وجعل منه ابن جني قراءة الجحدري: ﴿بَلْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥] بكسر اللام وتخفيف الميم.

وذكر في المعنى الثاني عشر من معاني اللام موافقة (بعد) نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُكُورِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وفي الحديث: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته». وقال:

ولمّا تفرّقنا كأي ومالكاً ل طول اجتماع لم نبت ليلة معاً

(١٦) المالقي، رصف المباني: ٢٢٤ في حاشيته «أن البيت للراعي، وهو في ديوانه: ١٣ وعجزه:

جُدّاً تعارضه الشقاة ويلا.» والبيت في أدب الكاتب ص ٥١٩ ولسان العرب (تمم).

(١٧) المرادي، الجنى الداني: ١٤٧. والبيت لمتمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك.

(١٨) ابن هشام، مغني اللبيب ١/١٦٨.

وقال بعضهم إن اللام في البيت بمعنى (مع) (١٩).
ولم يكن ما في كتب اللغة عن (عند) و(بعد) بعيداً عما عند النحاة؛ فقد جاء في القاموس المحيط: «عند: ظرف في الزمان والمكان» وجاء في تاج العروس: (بعد): «وبعد ضد قبل، يعني أن كلاً منهما ظرف زمان كما عرف في العربية، ويكونان للمكان كما جوزه بعض النحاة، يُبنى مفرداً، أي عن الإضافة، لكن بشرط نيّة المضاف إليه دون لفظه.

ويُعرَب مضافاً؛ لأن الإضافة توغله في الاسمية، وتبعده عن شبه الحروف، فلا موجب معها لبنائه».

ونقل التاج عن المصباح: (بعد) ظرف مبهم لا يفهم معناه إلا بالإضافة لغيره، وهو زمان متراخ عن الزمان السابق، فإن قُرِب منه قيل بُعيد بالتصغير. وفيه: (بعد) ضد (قبل)، وهما اسمان يكونان ظرفين إذا أُضيفا. وإذا حذفت المضاف إليه لعلم المخاطب به، بنيتها على الضم، ليُعلم أنهما مبنيان؛ لأن الضم لا يدخلهما إعراباً؛ لأنهما لا يصلح وقوعهما موقع الفاعل ولا موقع المبتدأ ولا الخبر.

وكذلك قال الرازي في مختار الصحاح (بعد).

وهكذا جاءت كلُّ من (عند) و(بعد) ظرفاً للمكان وللزمان، فالمكان نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]. وقوله: ﴿وَلَا تُقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. ونحو قولك: بيتي بعد النهر. وبيته بعد بيتي. والزمان نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾

[النور: ٥٨]. وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].
وقولك: «زارني عند شروق الشمس، وزرته بعد الغروب».

ولمّا كانت (عند) و(بعد) تقعان ظرفي زمان ومكان، وكانت (اللام) التي تأتي بمعناها، لا تأتي إلا للزمان فقط، وكانت تستعمل للتأريخ وللدلالة على الوقت، سُمّيت (لام التوقيت)، والتوقيت لغةً: تحديد الوقت.
ولام التوقيت تستعمل إمّا للدلالة على أول ما اتّصلت به، من ظرف أو مما جعل ظرفاً، نحو: لأول الشهر، ولأول سنوات الدراسة، أي عند أول الشهر، وعند أول سنوات الدراسة. وإمّا للدلالة على ما بعد ما اتّصلت به، نحو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»؛ أي: بعد دلوك الشمس، وبعد رؤيته.

ومن أثبت ما جاءت فيه اللام للتوقيت وأوضحه ما قاله الشيخ ابن عاشور (٢٠) في تفسير التحرير والتنوير، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] من الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] قال الشيخ ابن عاشور: «اللام في قوله (لأول الحشر) لام التوقيت، وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفاً للعمل، مثل قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]؛ أي من وقت حياتي، وقولهم: كُتِبَ ليوم كذا، وهي - أي اللام - بمعنى (عند). والمعنى أنه أخرجهم عند مبدأ الحشر المُقدَّر لهم» (٢١). وقال

(٢٠) هو العلامة التونسي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، شيخ جامع الزيتونة، ثم عميد الجامعة الزيتونية. وصاحب التأليف الكثيرة في التفسير والأدب والبلاغة. توفي سنة ١٩٧٣ م.

(٢١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ج ١٣ / ٦٨.

«وفي جعل هذا الإخراج وقتاً لأول الحشر إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتى يكمل إخراج جميع اليهود» «وقيل: وصف الحشر بالأول لأنه أول جلاء أصاب بني النضير لأنهم كانوا في بلاد العرب، أي لم يكونوا من اليهود الذين أجلوا أيام بختنصر وأيام الروم، فكان أول جلاء أصاب اليهود جلاء بني النضير»^(٢٢).

وقال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

«اللام في قوله «لحياتي» تحتمل معنى التوقيت، أي قدّمت عند أزمان حياتي، فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت، وتحتمل أن تكون اللام للعلّة، أي قدّمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيأ في هذه الدار»^(٢٣).

وقد سبق للزمخشري أن قال «يا ليتني قدّمت لحياتي هذه، وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا، كقولك: جئت لعشرٍ خلون من رجب»^(٢٤).

وقال صاحب الجدول في إعراب القرآن، في الحاشية، تعليقاً على قوله تعالى: ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾: اللام تسمّى لام التوقيت، أي عند أول الحشر»^(٢٥).

ومن الجدير بالذكر أن الكتب القرآنية؛ أي كتب التفسير، وإعراب القرآن، كانت أحفل بلام التوقيت من الكتب التي اختصت بالحروف ومعانيها! فعلى حين لم تذكر كتب حروف المعاني أو معاني الحروف من معاني (اللام) الجازة إلا أنها تأتي بمعنى (في) أو (عند) أو (قبل) أو (بعد) كما رأينا، دون تسميتها أو تخصيصها بالظرفية الزمانية دون المكاتبة، نجد

(٢٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٣/٦٩.

(٢٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٥/٣٣٩.

(٢٤) الزمخشري، تفسير الكشاف ٤/٧٤٠.

(٢٥) صافي، الجدول في إعراب القرآن ١٢/٣١٠.

كتب التفسير تسميها بالتوقيئية، وتحدّد معناها. وقد كان من المفسّرين من اكتفى بالإشارة إلى هذه اللام وتسميتها، كما فعل أبو حيان في «البحر المحيط»^(٢٦)، والسّمين الحلبي في «الدرّ المصون في علم الكتاب المكنون»^(٢٧) وغيرهم، وكان منهم من عُني بالوقوف عندها، ومتابعة شواهدها، وبيان المراد بقولهم إنها للاختصاص وإنها للتوقيت؛ كما فعل الألوّسيّ الذي وقف عند قوله تعالى: ﴿لَأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فقال في تفسيره المعروف بروح المعاني: «وقوله تعالى: ﴿لَأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ متعلق بـ (أخرج)، واللام لام التوقيت، كالتي في قولهم «كتبت لعشر خلون» ومآلها معنى (في) الظرفية، لذا قالوا هنا: أي في أول الحشر، لكنهم لم يقولوا إنها بمعنى (في) إشارة إلى أنها لم تخرج عن أصل معناها للاختصاص؛ لأن ما وقع في وقتٍ اختصّ به دون غيره من الأوقات. وقيل إنها للتعليل، وليس بذاك»^(٢٨).

وما قاله الألوّسي عن عدم خروج لام التوقيت عن معناها الأصلي الذي هو الاختصاص، تلخيص موجز لما قاله الرضيّ الأسترابادي، وهو من أطول العلماء نفساً وأكثرهم تفصيلاً في الحديث عن أساليب العرب في التأريخ، وعن اعتماد اللام في الدلالة على التوقيت.

قال الرضيّ الأسترابادي في شرحه لكافية ابن الحاجب:

«اعلم أن الليل في تاريخ العرب مُقدّم على اليوم؛ لأن السنين عندهم مبنية على الشهور القمرية، وذلك لأن أكثرهم من أهل البراري الذين يتعسّر

(٢٦) أبو حيان، البحر المحيط ١٠/١٣٧.

(٢٧) السّمين الحلبي، الدرّ المصون: ص ٥٢٣١.

(٢٨) الألوّسي، روح المعاني: ٢٨/٣٩.

عليهم معرفة دخول الشهر إلا بالاستهلال، فإذا أبصروا الهلال عرفوا دخول الشهر، فأول الشهر عندهم الليل؛ لأن الاستهلال يكون في أول الليل، فيقال في أول ليلة من الشهر: «كُتِبَ لأول ليلةٍ منه، أو لغرّته، أو لمَهَلُّه، أو لمُستهلّه»، وفي اليوم الأول: «لليلةٍ خلّت» واللام هي المفيدة للاختصاص الذي هو أصلها.

والاختصاص هنا على ثلاثة أضرب:

إمّا أن يختصّ الفعل بالزمان لوقوعه فيه، نحو: كتبت لغرّة كذا.

أو يختصّ به لوقوعه بعده، نحو: لليلةٍ خلّت.

أو يختصّ به لوقوعه قبله، نحو: لليلةٍ بقيت.

وذلك بحسب القرينة؛ فمع الإطلاق يكون الاختصاص بوقوعه فيه.

ومع قرينة نحو: خلّت، يكون بوقوعه بعده.

ومع قرينة نحو: بقيت، يكون بوقوعه قبله.

وتقول في الليلة الثانية: كتبت لليلة الثانية من كذا... وعلى هذا القياس

إلى آخر الشهر.

وإن وقع الفعل في الليل، ولم يقصد إلى ذكر وقوعه فيه، جاز أن يكتب

فيه ما يكتبه في الأيام؛ وذلك أنك تقول في ثاني الأيام: لليلتين خلّتا. وفي

ثالثها لثلاث ليالٍ خلّون، وكذا إلى عشر ليالٍ خلّون. ويجوز: لثلاث ليالٍ

خلّت، إلى عشر ليالٍ خلّت، والأول أولى؛ ليرجع النون الذي هو ضمير

الجمع إلى الجمع. وفي الحادي عشر: لإحدى عشرة ليلةً خلّت، إلى أن

تكتب في الرابع عشر: لأربع عشرة ليلةً خلّت، ويجوز: خلّون، حملاً على

المعنى، والأول أولى مراعاةً للفظ.

وتكتبُ في الخامسَ عَشَرَ: للتَّصِفِ من كذا، وهو الأولى من قولك: لخمس عشرة ليلة خلت، ومن قولك: لخمس عشرة ليلة بقيت أو بقين، ومع جوازهما أيضاً، وذلك لأن الأول أخصر منهما.

وفي السادسَ عَشَرَ: لأربعِ عَشْرَةَ ليلة بقيت أو بقين. وبعضهم يقول من الخامس عشر إلى الأخيرة: إن بقيت، لتجويز نقصان الشهر، إلى أن يكتب في العشرين: لعشر ليالٍ بقين، وهو أولى من بقيت كما ذكرنا، مع جوازه أيضاً، إلى أن يكتب في الثامن والعشرين: ليلتين بقيتا. وفي التاسع والعشرين: لليلةٍ بقيت، وفي الليلة الأخيرة: لآخر ليلة منه، أو: سلخه، أو: انسلاخه.

وفي اليوم الأخير: لآخر يومٍ من كذا، أو سلخه، أو: انسلاخه»^(٢٩). ويعود الأستراباذي إلى تأكيد بقاء اللام في كل ذلك للدلالة على الاختصاص فيقول: «وقيل تجيء - أي اللام - بمعنى (في) وبمعنى (بعد) وبمعنى (قبل) في قوله تعالى: ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ [آل عمران: ٩]؛ أي: في يوم وكتبته لثلاث خلون، أي: بعد ثلاث، ولثلاثٍ بقين، أي: قبل ثلاث. والأولى بقاء الثلاثة على الاختصاص»^(٣٠).

ونقول إنه لما كان الاختصاص إذا أطلق عامًّا يصح أن يأتي في كثير من المواضع ولكثير من الأشياء، وذلك كقولنا: البساط للمسجد، والمفتاح للباب، والسرج للحصان، والجنّة للمتقين، فهذه اللام في كل هذه الأمثلة ونحوها تفيد الاختصاص، بل إن من النحويين من يضم الاستحقاق إلى الاختصاص، ولا يرى داعياً إلى التفريق بينهما في الدلالة، فإن تسمية اللام

(٢٩) الأستراباذي، شرح الكافية ٢: ١٥٧ - ١٥٨.

(٣٠) الأستراباذي، شرح الكافية ٢: ٣٢٩.

المختصة بالوقت بلام التوقيت أكثر دقة وأوضح دلالة، وهي اللام التي تأتي بمعنى (في، وعند، وقبل، وبعد) الدالة على الظرفية الزمانية. ونرى أنه كلما كان الاسم أدلّ على وظيفة المسمى كان أدقّ وأوضح، وقد رأينا أن من عدّد ل (اللام) تيفاً وثلاثين معنىً، استطاع أن يعيدها كلّها إلى عَشْرَةِ معانٍ! ثم قال إنه يمكن أن تجمع اللامات كلها في معنيين لا ثالث لهما، وهما: الأصلية والزائدة، وذلك هو قول الزجاجي صاحب كتاب (اللّامات) (٣١).

إن لام التوقيت، لام مختصة بالدلالة على الوقت؛ تكون فيه، وتكون قبله، وتكون بعده، وهي لام جازة تدخل على ظرف زمني أو ما ناب عنه أو حمل معناه نحو كلمة (أول) في قولنا: لأوّل السنة.

وقد جاءت في القرآن في ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]. وجاءت محتملة لها في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقوله: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وقوله: ﴿لَا يُجْلِبُهَا لُوقِنَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وغيرها.

كما جاءت لام التوقيت، كما يدلّ عليه اسمها، للدلالة على التأريخ في نهايات الكتب والمخطوطات من التراث.

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أدب الكاتب لابن قتيبة. تح: د. محمد الدالي. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢=١٩٨٢م.
- الأزهية في علم الحروف، للهروي. تح: عبد المعين الملوحي. دمشق ١٣٩١=١٩٧١م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور. طبعة المجمع الثقافي - أبو ظبي.
- تفسير الكشاف للزمخشري. دار الكتب العلمية - بيروت ط ٢ سنة ٢٠٠٢م.
- ثلاثة كتب في الحروف، للخليل بن أحمد، وابن السكيت، والرازي. تح: د. رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢=١٩٨٢م.
- الجدول في إعراب القرآن. محمود صافي. دار الرشيد - دمشق. ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمراذي. تح: د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل. حلب ١٩٧٣م.
- الحروف للمزني. تح: د. محمود حسني محمود، ود. محمد حسن عواد. دار الفرقان عمان ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني - للمالقي. تح: أحمد حسن خرّاط. مجمع اللغة العربية. دمشق ١٣٩٥هـ=١٩٧٥م.

- الفهرست لابن النديم. ط مصر سنة ١٣٤٨هـ.
- كتاب حروف المعاني للزجاجي. تح: د. علي توفيق الحمد. مؤسسة الرسالة، ودار الأمل. عمّان ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.
- كتاب الكافية في النحو لابن الحاجب بشرح الرضي الأستراباذي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- اللّامات لابن فارس. تح: د. شاكر الفحام - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. م ٤٨ ج ٤ ص ٧٥٧.
- اللّامات للزجاجي. تح: د. مازن المبارك. ط ٢ دار الفكر. دمشق ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لابن هشام. تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني. دار الفكر. دمشق ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م.

* * *

جمال الكلمة العربية في النظام الصوتي العربي المعربات القرآنية نموذجاً

أ. د. ممدوح محمد خسارة (*)

١- جمال الكلمة العربية:

الجمال هو الحُسن، وهو من مدركات حاسة البصر أصلاً، ولكن دلالة هذه الكلمة تطورت كمنظيراتها من مدركات الحواس الأخرى، فكما أن الحلاوة والملاحة هي أصلاً من مدركات إحساس الذوق، وتطورت إلى مدركات البصر، كذلك تطورت دلالة الجمال من مدرك البصر في قولنا (منظر جميل وامرأة جميلة)، إلى مدرك إحساس السمع في قولنا (لحن جميل)، وتجاوزت إدراك الحواس إلى إدراك العقل في قولنا (صبر جميل، وعرفان الجميل)، وعلى هذا فقد صار الجمال جمالات.

وبالنظر لتوسُّع دلالة كلمة (الجمال) وتمدُّدها، بعد أن صارت من أكثر الكلمات المعاصرة تداولاً وشيوعاً، فقد صار أنسب ما تعرّف به هو أنّه (كلُّ مُبْهَجٍ ومرغوب فيه)^(١).

فلا غرابة - والحال هذه - أن يقال جمال اللغة، الذي ينشعب الحديث فيه

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) ابن منظور - لسان العرب: جمل، والمعجم الوسيط: حسن.

إلى جمال التركيب والنظم، وجمال الكلمة المفردة موضوع بحثنا. وإذا كان الذين يتحدثون عن جمال التركيب يعتمدون على حُسن النظم والأساليب، فإننا عندما نتحدث عن جمال الكلمة نعتمد على جمال نظامنا الصوتي العربي، لأن الكلمة هي وحدة هذا النظام، «فهي مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز إلى الأشياء الحسيّة أو الأفكار المجردة»^(٢).

قد يُعترض علينا بأن الكلمة المفردة لا يمكن الحكم عليها بالجمال، لأنها متأثرة سلباً وإيجاباً بنسق التركيب الذي هي جزء منه. بل أنكر بعض العلماء القدماء وعلى رأسهم الجرجاني (٤٧١هـ) أن يكون للكلمة المفردة جمالاً إلا في سياق النظم، فالكلمة المفردة عنده من حيث هي لفظةٌ لا وزن لها ولا قيمة في فصاحة أو بيان^(٣)، وتابعه على ذلك بعض المحدثين^(٤) الذي ينقل عبارة ابن منظور في اللسان بأن الكلمة الواحدة لا تُشجي ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع....

أما ما نذهب إليه فهو أن الكلمة المفردة تستمد حُسنها من ذاتها المفردة أولاً، ثم يأتي التركيب، أو النظم الذي قد يزيد جمالها أو يُقصه، فثمة جمال للكلمة المفردة أو اللفظة حتى ولو لم تدخل التركيب. ورائدنا في هذه المقولة ابنُ سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) الذي يؤكد أن للكلمة المفردة جمالاً ينبع من مجموعة شروط يحددها بدقة^(٥). وتابعه على ذلك باحثون معاصرون أفاضل منهم د. منير سلطان الذي يتبنّى آراء الخفاجي ويدافع عنها. ولعل هذا ما كان يرمي إليه ميخائيل نعيمة في قوله: «إن لمفردات

(٢) د. منير سلطان - بلاغة الكلمة والجملة والجمال: ١٥.

(٣) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز: ٤٢ - ٢٣٢.

(٤) د. علي نجيب إبراهيم - جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم: ٥١.

(٥) ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

اللغة التي نصوص منها مشوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة، فلكل كلمة معنى أو روح، ولكل كلمة رنة، ولكل كلمة صبغة أو لون^(٦).

إننا نرى أن للكلمة المفردة جمالاً بذاتها ولا حاجة للانتظار حتى نحكم على حُسْنها. ولنأخذ أمثلة من أزواج من الكلمات المتحدة المعنى المختلفة الأصوات:

أيهما أجمل: منبسط أم مُسْحَنَطْر

حَسْناء أم مَرَوْدَكَة

ناعمة أم بَحْنَدَاة

سَرَابٌ أم خَيْتُعُور

رهام أم شَجْدَة

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، فَثَمَّةُ مَفْرَدَاتِ قَاسِيَةِ الدَّلَالَةِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ أَشْبَعِ المَفْرَدَاتِ فِي شَعْرِ وَنَثْرٍ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِجَمَالِهَا الصَّوْتِي أَوْ جَرَسِهَا المَوْسِيقِي عَلَى حَدِّ عِبَارَةِ البَلَاغِيِّينَ وَالتُّقَادِ، مِثَالُ ذَلِكَ كَلِمَةُ (الصَّبَا) أَي الرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ، وَهِيَ رِيحٌ بَارِدَةٌ جَدًّا شِتَاءً وَحَارَّةٌ جَدًّا صَيْفًا، وَلَيْسَ مِنَ الوَاقِعِيَّةِ وَحَسَنِ الدَّلَالَةِ فِي شَيْءٍ أَنْ يُقَالَ: (سَلَامٌ أَرْقٌ مِنَ الصَّبَا)، فَالصَّبَا لَيْسَتْ رَقِيقَةً، بَلْ هِيَ أَقْسَى مَا يَكُونُ مِنَ الرِّيحِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا أَكْثَرَ تَوَارِدِهَا فِي نَظْمٍ وَنَثْرٍ!! وَمِنْ بَيْنِ أَسْمَاءِ مِثَاتِ النُّجُومِ فِي العَرَبِيَّةِ لَمْ يَشِعْ إِلَّا نَحْوُ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءِ هِيَ الشُّهَى وَشُهَيْلٌ وَالثَّرِيَاءُ، فِي حِينٍ لَمْ يَسْتَعْمَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمُ (الشَّجَج) وَهُوَ اسْمٌ لِنَجْمٍ عِنْدَهُمْ. وَلَا يَغِيبُ جَمَالَ الصَّوْتِ عَنِ أذُنِ سَامِعِ العَرَبِيَّةِ فِي (شُهَيْلٍ وَالشُّهَى) وَفِي هَذَيْنِ الحَرْفَيْنِ المَهْمُوسَيْنِ، فِي حِينٍ لَا يَغِيبُ الثَّقَلُ وَالعَسْرُ فِي تَتَابُعِ الحَرْفَيْنِ الشَّجْرِيَّيْنِ المَتَقَارِبِي المَخْرَجِ فِي (الشَّجَج).

(٦) ميخائيل نعيمة - الغربال: ٧١ (طبعة دار صادر).

٢- جمال الكلمة وفصاحتها:

لا بد من الإشارة إلى العلاقة بين فصاحة الكلمة وجمالها، ذلك أن بعضهم يقرن الجمال بالفصاحة، وهي علاقة قائمة ولكنها ليست مطلقة، ذلك أن بين الجمال والفصاحة عموماً وخصوصاً كما يقول المناطقة، فالجمال أعمُّ من الفصاحة، والأخيرة متضمّنةٌ فيه، يجمع بينهما (الحسن في اللفظ أو الصوت)، ويفرّق بينهما أن فصاحة الكلمة مرتبطة بعصر الاحتجاج وبالسلامة اللغوية، في حين أن جمال الكلمة لا يتأثر بعصر دون عصر، ولا يكفي بالسلامة اللغوية التي هي شرط لازم ولكنه غير كافٍ. الفصاحة ذات صلة بالجمال حتماً إذ يحدّثها البلاغيون بأنها «خلوُّ الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس»^(٧)، وعدم التنافر يعني الانسجام والتناسق، وهو يلتقي بهذا مع الجمال الذي من أظهر معانيه تناسق التكوين، ولكن الجمال لا يلتقي مع الفصاحة في اشتراط عدم الغرابة أي عدم الإبهام في المعنى، فقد تكون الكلمة غريبة مبهمة الدلالة ولكنها جميلة، هل هناك كلمة أكثر إبهاماً من كلمة (مَعْن) التي نسمّي بها ونستجملها؟ مع أنها من أكثر الكلمات إبهاماً من حيث الدلالة فهي تعني: الطويل والقصير والقليل والكثير والهيّن واليسير والإقرار بالذُّل، والجحود والكُفْر للنعم، والماء الظاهر^(٨). ومثلها كلمة (مِيّة) التي تعني (القِرْدَة)^(٩)، ومع ذلك فما أكثر نساء العرب وحسناواتهن اللاتي يُسمّين بهذا الاسم، لأن جرسه اللفظي جميل على السَّمْع.

(٧) القزويني - التلخيص في علوم البلاغة: ١٤ (طبعة ١٩٣٢).

(٨) الفيروز آبادي - القاموس المحيط: معن.

(٩) لسان العرب: ميا.

٣- الجمال في النظام الصوتي العربي وأسسُه:

إننا نرى أن مردّ الجمال في كل ما هو جميلٌ من المفردات العربية هو انسجامها مع ما نسمّيه بالنظام الصوتي العربي. فالكلمة تستمد جمالها من عناصر ذلك النظام القائم على مجموعة من الأسس، مدارها على السهولة في النطق والخفة على السمع، وأهمها:

أ- عدد أحرف الكلمة العربية:

من أبرز عناصر النظام الصوتي في الكلمة العربية قلة عدد أحرفها، لأنها أسهل في النطق وأخفُّ على السمع. فالكلمة العربية على ثلاثة أحرف أصلية أو أربعة أو خمسة، وتبلغ بالزيادة سبعة أحرف ما عدا ملحقاتها من أل التعريف أو أحرف النسبة أو التأنيث. وقلة عدد الأحرف في الكلمة مَجَلِّبة للخفة والسهولة في النطق، أو ما يُسمّى بالاعتقاد اللغوي، بخلاف كثرة الأحرف التي هي مدعاة للثقل والصعوبة، إن في النطق أو في السمع. وبسبب من هذا كانت الجذور الثلاثية في العربية نحو أربعة أضعاف الجذور الرباعية والخماسية، ففي العربية (٥٠٣٥) جذراً ثلاثياً في مقابل (١٣٦٨) جذراً رباعياً^(١٠).

ويعلل ابن جني هذه الظاهرة بقوله: «وَعُلِمَ أيضاً أن ما طال وأقلُّ بكثرة حروفه لا يمكن فيه التصرّف ما أمكن في أعدل الأصوات وأخفها وهو الثلاثي»^(١١) وأشار ابن جني في موضع آخر إلى استكراه العرب «ذوات الخمسة لإفراط طولها، فأوجبت الحال الإقلال منها وقَبْضُ اللسان بها إلا فيما ندر»^(١٢).

(١٠) ندوة تونس المعجمية - المعجم العربي المختص: ١٩٢ - ٢٠٥.

(١١) ابن جني - الخصائص ١/ ٦٩.

(١٢) المصدر السابق ١/ ٦١-٦٢.

لقد أظهر كلام ابن جني العلاقة بين عدد حروف الكلمة وخفتها وقابليتها للتصريف، وهي علاقة تناسب عكسي لذا، فكلما قلَّت حروف الكلمة خَفَّت على النطق وزادت تصريفاتها.

ب- خلُو الكلمة من الأحرف أو الأصوات غير العربية:

ولهذا فقد كان العرب في مزاولة التعريب حريصين كل الحرص على الأبجدية العربية، ولذلك «جعلوا إبدال الحروف غير العربية لازماً. يصدرون في هذا الحكم عن بُعد نظرٍ وتَفْطُنٍ، وحرصٍ على عدم إفساد اللغة وأساسها بحروف أعجمية»^(١٣).

وكان اللغويون القدماء قد أشاروا إلى أن العرب يبدلون بالأحرف الأعجمية أقرب الأحرف العربية إليها. «فالبَدَلُ عندهم مطرد في كل حَرْفٍ ليس من حروفهم، يبدلون منه ما قَرَّبَ منه من حروف العربية»، على حدِّ تعبير سيبويه^(١٤).

إن مسألة إدخال أحرف أجنبية إلى لغتنا خلق إشكالية حقيقية، فانقسم اللغويون والمعرِّبون ما بين متساهل يهَوِّن من أثر إدخال هذه الأصوات إلى الأبجدية العربية، وبين حازم متبصِّر بعواقب الأمور - والباحث منهم - يرى أن أهم خصائص أي لغة هي أصواتها وحروفها، وأنها إذا فقدت هذه الخاصية فسوف يؤثر ذلك على طبيعة اللغة وأحكامها الصرفية وقواعدها المعجمية، وأنه يحمل مخاطر قاتلة على العربية^(١٥).

ومع أن بعض المجامع اللغوية قد أقرَّت إدخال هذه الأحرف، إلا أن بعضها الآخر عارضها بشدَّة كما تراجع عنها أكثرية اللغويين.

(١٣) د. مسعود بوبو - أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: ٨١، ١٤٦.

(١٤) سيبويه - الكتاب ٤: ٣٠٥ - ٣٠٦.

(١٥) لمزيد من التفصيل ينظر د. ممدوح خسارة - منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث: ٩٤.

ج - ائتلاف أحرف الكلمة العربية:

وهو أهم خصائص بُنيته الصوتية وأسرار جمالها، وقد كان البحث في ائتلاف الحروف وتنافرها موضع دراسات للقدماء والمحدثين، بل قلما خلا منه كتاب لغوي^(١٦)، ذلك أن «من خصائص اللسان العربي - على حدّ عبارة الفارابي في ديوان الأدب - أنه لم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذبُ النطق بهما، أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحسن السَّمع كالغين مع الخاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصاد والضاد في أخوات لها»^(١٧). وتلحظ عبارة (لا يعذب النطق بهما... أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحسن السَّمع).

ولعل من أهم أسباب ائتلاف الحروف في الكلمة العربية تباعد مخارجها، فذلك أسهل للنطق وأيسر، وتصبُّ هذه الخاصية أيضاً في قانون الاقتصاد اللغوي، لأن «توفير الجهد اللغوي لا يعني قلّة أحرف الكلمة، بل يعني قبل ذلك خلوّها من التنافر»^(١٨) الذي من أهم أسبابه تقاربُ مخارج الأحرف في جهاز النطق، كالهاء والعين الحلقيتين.

ومما يلحق بالتنافر الثقل، ولو كان خفيفاً، فقد قال العرب (صبيّة)^(١٩) وكان قياسها (صِبْوة)، وما ذلك إلا لتنافر بين الباء والواو، لكنّهم أحسُّوا ثقلاً فاستحسنوا الهرب إلى الياء تخفيفاً. ومن الثقل التضعيف، ولهذا أبدلوا أحد حرفي المضعّف ياءً في قولهم (تَظَنَّتْ) وأصلها (تَظَنَّتْ). و(أَمَلَيْتُ) وأصلها (أَمَلَّتْ)^(٢٠).

(١٦) ينظر مثلاً الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين ١: ٥٧ وعبدالله أمين - الاشتقاق: ٤٣١.

(١٧) الفارابي - ديوان الأدب ١: ٧٢.

(١٨) د. مسعود بوبو - أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: ١٣٠.

(١٩) ابن جني - الخصائص ١: ١٩٧.

(٢٠) المصدر السابق: ٢ - ٢٣١.

وأهم دراسة حول تنافر الحروف وائتلافها دراسة للعالم اللغوي (إبراهيم ابن محمد بن دُنَيْبِر - ٦٣٥هـ)، الذي وضع جدولاً تفصيلياً يغني عمّا سواه^(٢١) فمثلاً لا تأتلف الشاء مع الذال والزاي والصاد والضاد والطاء والسين لا بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الغين مع الجيم والحاء والخاء والعين بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الجيم مع القاف والكاف والطاء والغين بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الجيم مع القاف والكاف والطاء والغين بتقديم ولا تأخير.... إلخ.

ولكن يجب التنبيه إلى أن الأحكام اللغوية ليست مطلقة تماماً فقد ورد في اللغة مثلاً (الجَقَّة) وهي الناقة الهرمة، فتتبع الجيم والقاف في هذه الحالة^(٢٢). ومن دلائل السهولة والخفة في الحرف كثرة دورانه في النصوص العربية والكلام العربي.

د- ائتلاف الحركات في الكلمة العربية:

الحركة جزء من بنية الكلمة العربية، وهي ذات قيمتين: تعبيرية وصوتية. فالقيمة التعبيرية التفريق بين المعاني في نحو (عَبَدٌ وَعُبْدٌ)، والقيمة الصوتية تسهيل النطق بالأحرف الساكنة، إذ يتعدّر نطق حرفين ساكنين متصلين. إلا أن هذه الحركات التي وُجِدَت لتسهيل النطق وخفّته قد تغدو مدعاة ثِقَلٍ إذا تنافرت. وحالات التنافر بينها هي:

- الضمة قبل الواو في الاسم: فليس في العربية اسم آخره واوٌ قبلها ضمةً، فما ورد منها في كلام العرب دخيل، نحو (ملكو - مندو...).
- الحركتان المتضادتان، ونعني بهما الكسرة والضمة، إذ لم يرد الانتقال من الكسر إلى الضم في العربية لثقله، لذا انعدم بناء (فِعْلٌ) في الثلاثي.

(٢١) د. حسان الطيان - تنافر الحروف ودورانها في نسج الكلمة العربية: ١٠٢.

(٢٢) لسان العرب: جقق.

• الواو الساكنة المكسور ما قبلها، والياء الساكنة المضموم ما قبلها^(٢٣).
 وقريب من هذا الثقل تحريك الواو والياء وقبلها الفتحة، إذ هو مكروه إلا عند
 الضرورة، لذا جمعوا (سَرِيّ) على أُسْرِياء و(غَنِيّ) على أُغْنِياء وكان القياس
 (سُرَواء وُغْنِياء)، لأنهم يكرهون تحريك الياء والواو وقبلها الفتحة، إلا أن
 يخافوا التباساً كما في الأفعال نحو (رَمِيًا وُغَزَوا...)، فييقونها.

هـ - عدم اجتماع أربعة متحركات:

لأنّ في ذلك استثقلاً على اللسان والنطق. قال سيبويه: «ألا ترى أنّه ليس في
 كلامهم اسم على أربعة أحرف متحرّك كَلَه»^(٢٤). فإذا وجد ذلك فهو ثقيلٌ مستكره
 نحو (عَلِبَط) للقطيع، و(عَرَتَن) لنبات. وحول هذا يقول ابن خالويه «لا يُجمع أربع
 متحركات في اسم واحد استثقلاً حتى يُحجَز بين المتحركات بالسكون»^(٢٥).

و - منع التقاء الساكنين في الكلمة:

إلا أن يكون الساكن أول حرفي تضعيف وقبلهما حرف مدّ، نحو (شَابَّة
 ودويّبة)، لأن حرف المدّ شبيه بالحركة.

ز - عدم البدء بحرف ساكن في الكلمة: فليس في العربية كلمة مبدوءة به.

ح - إنهاء الكلمة المعرّبة بحرف صامت قابل لتحمل الحركة الإعرابية:

لأن الإعراب من أبرز خصائص العربية^(٢٦).

والواقع أن معظم هذه القواعد هي مما أشار إليه ابن سنان الخفاجي
 ومتابعوه من المحدثين، وإن كنا لا نوافقهم على الشروط الثمانية كلها التي

(٢٣) الفارابي - ديوان الأدب: ٧٢ (ولم يمثل لهما).

(٢٤) سيبويه - الكتاب ٤: ١٩٢.

(٢٥) ابن خالويه - ليس في كلام العرب: ٢٨.

(٢٦) لمزيد من التفصيل ينظر د. ممدوح خسارة - منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث.

اشترطوها لجمال الكلمة العربية، كأن تكون الكلمة مصغرة في بعض المواقع، وألا تكون وحشيّة غريبة، وألا تكون قد عبّر بها عن أمرٍ يُكره^(٢٧). كما أثبت هذه القواعد الصوتية دارسو البيان القرآني، الذين أكدوا أنّ الأسلوب القرآني قد «تجنّب الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، وتكرار حروف الحلق، والحركات الثقيلة»^(٢٨).

٤- التعريب وجمال الكلمة العربية:

قد يقال: ما الفائدة من ذكر أسس وشروط هي من صميم قواعد الصرف العربي والبلاغة العربية، فمعظم الكلم العربي تُراعى فيه - طبعاً وسليقةً - هذه الأسس، فالعربية لم تجمع بين حروف متنافرة في كلامها، ولا بين حركات متنافرة لتلك الحروف، ولم تبدأ بساكن ولم تجمع بين ساكنين. فما كلامك إلا تحصيل حاصل.

أقول: إن الذي يسوّغ هذا البحث وأمثاله أن ظاهرة التعريب اللفظي أو الصوتي من اللغات الأجنبية تفسو فُشوّاً سريعاً ومقلقاً، فبدلاً من أن يولد العرب كلمات عربية جديدة لما يستجدُّ من المفاهيم والأدوات والآلات، سواء أكانت من ألفاظ الحضارة أم المصطلحات العلمية، نجدهم يلجؤون إلى التعريب اللفظي لتلك المُسمّيات، أي نقل الكلمة الأجنبية إلى العربية نقلاً صوتياً، وذلك استسهالاً لوضع المُسمّيات وهروباً من توليد أسماء لها من صميم لغتنا، فدخلت لغتنا كلمات لا تتفق مع رَوْنق الكلمة العربية من مثل / موبايل - ستلايت - سلايد - فاكس.../ .

(٢٧) ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

(٢٨) د. أحمد أبو زيد - التناسب البياني في القرآن: ٣٠١ - ٣٠٤.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن التعريب اللفظي أو الصوتي أصل لغوي، وكان دائماً وسيلة من وسائل التنمية اللغوية وزيادة الثروة اللفظية في كل اللغات، ومنها لغتنا العربية فليس من لغة تستغني عن غيرها تماماً، فاللغات تتفاعل فيما بينها أخذاً وعطاءً. وهذه الظاهرة من مستلزمات الاحتكاك الحضاري وتناججه، فمفردات العربية مبنوثة في العديد من لغات العالم كالفارسية، والتركية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية، كما أن لغتنا العربية فيها الكثير من المفردات الأجنبية أصلاً والتي دخلت العربية وخضعت لقوانينها الصوتية، فعُربت وصارت جزءاً لا يتجزأ منها، ودخلت شعرها ونثرها ومعجماتها، والأهم من ذلك أنها وردت في أعظم نصّ عقائدي لغوي أدبي وهو القرآن الكريم. وورودها فيه لم يمنع أبداً من أن يوصف بأنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وأن الله أنزله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وهذا دليل على أن اللسان العربي لا يعني الكلمات العربية الأصلية ذات الجذور العربية فحسب، بل يعني أيضاً ما دخل هذه العربية من الكلمات المعرّبة، التي هي أعجمية الماضي عربية الحاضر، فاللسان العربي يضم العربيّ والمعرّب من الكلّم.

إنّ وجود المعرّبات في القرآن الكريم أعطانا درساً لغويّاً مهماً مفاده أن الاقتراض اللغوي والتعريب اللفظي لا يضير اللسان العربي حتماً، بل هو عونٌ لهذا اللسان على أداء وظيفته التعبيرية والتواصلية، ولكن بشرط التزام المنهج الصحيح في تعريب المفردات الأجنبية. وما هذا المنهج الصحيح إلا منهج القرآن الكريم في التعريب، وما منهج القرآن الكريم في التعريب إلا التزام أسس النظام الصوتي العربي الذي هو مزيج متجانس من أركان الفصاحة العربية وقواعد الصرف العربي كما قدّمنا.

إن جمال الكلمة العربية ينبع من فصاحتها المستمدة من مفاهيم البلاغة العربية، ومن خفتها وسهولة نطقها وعذوبة سمعها المستمدة من قواعد الصرف العربي وعلم الأصوات.

٥- المعربات القرآنية نموذجاً:

«المعرب هو كل كلمة دخلت اللغة العربية قديماً أو حديثاً على أن تكون خاضعة لمقاييس العربية وأبنيها وحروفها»^(٢٩) «وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها»^(٣٠).

أثار وجود بعض الكلمات المعربة في القرآن الكريم جدلاً كبيراً بين الفقهاء القائلين بوجود المعرب في القرآن الكريم، وبين اللغويين المنكرين لوجود المعرب فيه. ويُنسب إلى أبي منصور الجواليقي (٥٦١هـ) صاحب كتاب (المعرب على حروف المعجم)، مذهب توفيقى يقول فيه: «والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديق القولين جميعاً، ذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألستها وحوّلتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن الكريم وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية، فهو صادق»^(٣١).

ومن المعربات التي وردت في القرآن: (درهم، دينار، فردوس، كافور، سجّيل، سفّر، حوارى، استبرق، صراط، مشكاة، محراب، قنطار، سندس...). وقد اختلف العلماء القدامى في تأصيل هذه الكلمات وردّها

(٢٩) د. أحمد مطلوب - حركة التعريب في العراق: ٢٦.

(٣٠) الجوهري - الصحاح: عرب.

(٣١) الشهاب الخفاجي - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل: ٢٤ وينظر السيوطي

إلى لغاتها الأصلية، فما نسبه بعضهم إلى الروميّة نسبه آخر إلى الفارسية، وما نسبه بعضهم إلى السريانية نسبه آخر إلى الحبشية... وهكذا^(٣٢).

لا أهمية في بحثنا لمعرفة أصل الكلمة المعرّبة من أي لغة هي، بقدر ما يهمنا معرفة التغييرات التي طرأت على لفظها وأصواتها لمعرفة المنهج القرآني في تعريب الكلمات الأعجمية. فلنأخذ نماذج من هذه المعربات ونزُصّد التغييرات التي أدخلت عليها لإخضاعها لما سمّيناه النظام الصوتي العربي.

• **دِرْهَم**: أصلها في اليونانية - كما يذهب بعضهم - (دراخما).

وعربت إلى **دِرْهَم** و**دِرْهَم**. فماذا أدخل عليها من تغيير؟

١ - تَجَنَّبَ التقاء الساكنين في حرفي الألف والخاء.

٢ - حذف بعض الأحرف لتصبح الكلمة رباعية بدلاً من سداسية.

٣ - إبدال الخاء هاءً.

٤ - صوغها على إيقاع عربي هو (فِعْلَل) نحو هَجْرَع وهو الطويل، أو

(فِعْلِل) نحو (حِزْرَد) وهو نبات.

٥ - حذف الألف من آخر الكلمة ليصبح الحرف الأخير صامتاً يقبل

الحركة الإعرابية التي هي من خصائص العربية.

أمّا لماذا أبدلوا الخاء هاءً، مع أن الخاء حرف عربي، وكان من الممكن

إبقاؤه، فلأن الهاء أيسر على النطق، إذ نسبة دورانها في الكلام العربي هو

(٥٨, ٧٪) في حين نسبة دوران الخاء هي (٣٧, ٠) ^(٣٣).

وكثرة دوران الحرف في الكلام دليل خفّته على اللسان والخفة من

أركان الجمال اللغوي.

(٣٢) السيوطي - المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب: ١٢٠.

(٣٣) د. محمد مرياتي ود. حسان الطيان ود. يحيى مير علم - علم التعمية واستخراج المعنى ٢: ١٤٣.

• كلمة (فِرْدَوْس): اختلف في أصلها بين فارسية ورومية ونبطية وعبرية وسريانية، وقال (الكرملي) هي من الإغريقية، وإنَّ أصلها (بارادائس) بالباء المهموسة، عُرِّبَتْ إلى الجمع ثم أفردت إلى فِرْدَوْس^(٣٤). فماذا أجري عليها من تعديل؟

١- إبدال الفاء العربية بالباء الفارسية المهموسة. لأن الفاء أقرب الأحرف العربية إلى ذلك الحرف الذي ليس من لغة العرب.
٢- حذف بعض حروفها حتى غدت كلمة خماسية الأحرف بدل الثمانية، فحذفت الألفات الثلاثة.

٣- إبدال الواو بالياء طلباً للخفة، لأن الواو أكثر دوراناً في نسج الكلام العربي من الياء، بدليل أن الجذر (دَيْسَ) الذي تُعاقب فيه السينُ الياء ليس من الجذور العربية، في حين أن الجذر (دوس) الذي تُعاقب فيه السين والواو موجود، ويحوي بضع عشرة كلمة^(٣٥).

• كلمة (سِفْرُ) ^(٣٦): بمعنى كتاب، رُجِّح تعريبها من الآرامية، كما رُجِّح أن لفظها في الأصل (سِفْرُو). فماذا أجري عليها من تعديل؟

١- حَذَفَ الواو من آخر الكلمة، لأنه ليس في العربية اسمٌ متتهٍ بواو قبلها ضمة. ولأنَّ حرف الراء الذي وقفت عليه الكلمة هو من الحروف الصامتة التي تتحمَّل الحركة الإعرابية.

٢- صوغ الكلمة على إيقاع عربي هو (فِعْلُ)، ونظائره في العربية كثيرة نحو: (عِلْمٌ وحِلْمٌ).

(٣٤) السيوطي - المهدب فيما وقع في القرآن من المعرَّب: ١٢٠ (حاشية المحقق د. التهامي الهاشمي).

(٣٥) ابن منظور - لسان العرب: دوس.

(٣٦) ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

• كلمة (سَجِيل): وأصلها في الفارسية (سَنَك و كُل) (٣٧). بالكاف الفارسية المجهورة كالجيم القاهرية. ومعناها (حجرٌ وطين).

فكيف أخضعت للنظام الصوتي العربي؟

١- أدمجت الكلمتان في كلمة واحدة، واختصر حرفٌ من أحرفها.
٢- أبدل بالحرف الأعجمي وهو (الكاف) الفارسية المجهورة أقرب الأحرف العربية إليها هو (الجيم).

٣- صيغت الكلمة على إيقاع صوتي عربي هو (فَعِيل)، ونظائره في العربية كثيرة من نحو: صِدِّيق و زَمِيَّت.

• كلمة (مشكاة): وهي كلمة حبشية الأصل، ولفظها في لغتها (MASCOT) ومعناها الكُوَّة. ويلحظ كيف أبدل بالسین شيئاً وبالواو المفخمة ألفاً، فجاءت الكلمة على إيقاع اسم الآلة في العربية مثل (مِرآة و مِبراة).

وما دخول هذه الكلمات المعرّبة وأمثالها من نحو (محراب، كافور، استبرق، و سرادق، صراط، زخرقة) في اللغة العربية وتماهيا في نسيج الكلمة العربية، حتى ليخال كثيرٌ من دارسي العربية أن هذه الكلمات عربية الأصل والجدور وليست بمعرّبة، إلا لخضوعها للنظام الصوتي العربي الذي لم يدخلها في إطار العربية فحسب، بل في إطار ما هو جميلٌ من كلمها الخالد.

وبعد: فإن هذه التغييرات التي أدخلها العرب والقرآن الكريم على الكلمات الأعجمية عند تعريبها، إنما جاءت تجسيدا إبداعياً لمنهج لغوي صرفي جمالي هو ما أسميناه (بالنظام الصوتي العربي) الذي يُقعد للصحة اللغوية وللجمال اللغوي في وقت واحد. وتتفاضل الكلمات العربية في

جمالها بمقدار تحقق عناصر ذلك النظام في بُنيّتها. وهذا ما علينا أن نعمل على هديه عند تعريب الألفاظ المعاصرة ونقلها إلى لغتنا.

خلاصة البحث:

- ١ - للكلمة العربية المفردة جمالٌ لغوي مستقل عن النظم الذي قد يزيد من ذلك الجمال أو يُنقصُه، ولكن غيابه لا يفقدها ذلك الحُسن والجمال.
- ٢ - من أهم معايير جمال الكلمة العربية خضوعها للنظام الصوتي العربي الذي استنبطت أحكامه من كلام العرب، ومن قواعد الصرف العربي، ومن المعرّبات القرآنية، ومعرّبات عصر الفصاحة والاحتجاج، وهو جمال صوتيٌّ مدّاره على الخفّة على السمع وسهولة النطق.
- ٣ - قدّمت المعرّبات القرآنية منهجاً واضحاً لتعريب الكلمات الأعجمية ودمجها في العربية، وعلينا التهديّ به عند تعريب الكلمات الأجنبية المعاصرة.
- ٤ - علينا تطوير مباحث مقررات البلاغة وطرق تدريسها بما يتلاءم وحاجاتنا اللغوية المعاصرة ومن أهمها التعريب اللفظي، الذي يحمل مخاطر حقيقية على العربية إن لم نُنهّجه بما يتفق وقواعد السلامة اللغوية وأسس الجمال اللغوي. ■

* * *

المصادر والمراجع

- أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج - د. مسعود بوبو - نشر وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٢.

- بلاغة الكلمة والجملة والجمل - د. منير سلطان - منشأة المعارف ط ١ - مصر ١٩٩١.
- التلخيص في علوم البلاغة - القزويني - ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط ١ - ١٩٣٢.
- التناسب البياني في القرآن - د. أحمد أبو زيد - مطبعة النجاح - الدار البيضاء ١٩٩٢.
- تنافر الحروف ودورانها في نسج الكلمة العربية - د. حسان الطيان - دمشق ١٩٨٣.
- جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم - د. علي نجيب إبراهيم - دار كنعان ٢٠٠٢.
- حركة التعريب في العراق - د. أحمد مطلوب - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - بغداد ١٩٨٣.
- الخصائص - ابن جنّي - تح محمد علي النجّار - دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت).
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تعليق محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٤.
- ديوان الأدب - الفارابي - تح د. أحمد مختار عمر - منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٤.
- سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي - تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي - مكتبة علي صبيح - مصر ١٩٥٢.
- شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل - الشهاب الخفاجي - تح د. عبد المنعم الخفاجي - القاهرة (د.ت).

- الصحاح - الجوهري.
- علم التعمية واستخراج المُعَمَّى - د. محمد مراياتي ود. حسان الطيان ود. يحيى مير علم - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٧.
- الغربال - ميخائيل نعيمة - دار صادر ودار بيروت - بيروت ١٩٦٠.
- في جمالية الكلمة - د. حسين جمعة - نشر اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠٠٢.
- القاموس المحيط - الفيروز آبادي.
- الكتاب - سيبويه - تح عبد السلام هارون - عالم الكتب - بيروت (د.ت).
- كتاب العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي - تح مهدي مخزومي - دار الهجرة - إيران ١٤٠٥هـ.
- لسان العرب - ابن منظور.
- ليس في كلام العرب - ابن خالويه - تصحيح وضبط أحمد أمين الشنقيطي - المكتبة المحمودية التجارية - مصر (د.ت).
- المعجم العربي المختص - ندوة تونس المعجمية - دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٦.
- منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث - د. ممدوح خسارة - مؤسسة الرسالة والدار المتحدة - بيروت ١٩٩٩.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب - السيوطي - تح د. التهامي الراجي الرباط.

التنّاصّ القرآني في الإنشاء الشعري

لأبي مسلم البهلاني

مقدمة منهجية ونماذج تطبيقية

أ.د. عبد النبي اصطيف (*)

أولاً: في مفهوم التنّاصّ:

«التنّاصّ» مصطلح نقدي مولّد ترجم به النقاد العرب المحدثون المصطلح الفرنسي "intertextualité" والمصطلح الإنكليزي "intertextuality" المترجم بدوره عن الفرنسية التي كانت فيما يبدو أول لغة عرفته في ستينيات القرن العشرين^(١) على يد الناقدة الفرنسية ذات الأصل البلغاري (جوليا كريستيفا) Julia Kristeva، تصف به ظاهرة محددة، لاحظتها في تحليلها للنصوص الأدبية التي كانت تتفحصها على هدي من نصوص الناقد الروسي (ميخائيل باختين) وعالم النفس المعروف (سيغموند فرويد)، هي عملية تفاعل النصوص فيما بينها، وتأثير هذا التفاعل في إنتاج الدلالة التي تحملها النصوص التي تحتضن عملية التفاعل هذه.

(*) أستاذ في كلية الآداب - جامعة دمشق.

(١) انظر: Michael Worton and Judith Still (eds.) **Inter textuality: Theories and Practices** (Manchester University Press, Manchester and New York, 1990), p.2

وربما كان من المهم قبل النظر في هذا المصطلح الإشارة إلى أنه، مع حداثة عهد النقد المعاصر به، فإنه في الحقيقة يصف ظاهرة قديمة قدم الكتابة عن الأدب نفسها، أو قدم النقد الأدبي ذاته. وربما كان قدم هذه الظاهرة وراء سوء الفهم، الواسع الانتشار، للمصطلح، واختلاطه في أذهان الكثيرين من النقاد المعاصرين (من العرب وسواهم) بمفاهيم أخرى كالتأثير، والاقْتباس، والتضمين، والسرقات وغير ذلك من المصطلحات التي تبدو في ظاهرها قريبة الصلة به، ولكنها في جوهرها بعيدة غاية البعد عنه. فمصطلح التناص يستند إلى أسس معرفية لم تيسر للنقد الأدبي إلا حديثاً نتيجة التطورات الهائلة التي تحققت لعدد من العلوم الإنسانية كعلم النفس واللغويات الحديثة وغيرها - أسس هي بالتأكيد خارج إطار الإشارة Frame of reference الذي يتحرك فيه تفكير أصحاب تلك المصطلحات الذين يتوهمون أنها ربما كانت إرهاصات، أو بدايات، أو مرادفات، أو غير ذلك، لمصطلح التناص الذي وضعته (كريستيفا) كما تقدم. والحقيقة أن (كريستيفا) نفسها غير راضية عن هذا المصطلح بسبب اختلاطه بتلك المصطلحات: وهي تفضل عليه مصطلحاً آخر هو مصطلح «النقل» Transposition كما يتضح ذلك في كتابها ثورة اللغة الشعرية الصادر عام ١٩٧٤. ولكنها وجدته قد شاع شيوعاً كبيراً بعد أن سكتته، فمضت في استعمالها له مع تحفظاتها عليه.

وينطلق مصطلح «التناص» أساساً من مقولة بسيطة جداً هي أننا قراء قبل أن نغدو كتّاباً. فنحن نقرأ ما ييسر لنا من نصوص في مراحل تكويننا الثقافي المختلفة قبل الشروع في إنشاء نصوصنا الخاصة بنا. وفضلاً على هذا فإن قارئ نصوصنا بدوره غالباً ما يكون قد قرأ لتوه نصوصاً أخرى

غيرها، ربما سبق لنا أن قرأناها، وربما لم يسبق لنا أن فعلنا ذلك قط. ومعنى هذا أن الكتاب عندما ينشئون النصوص الخاصة بهم ينطلقون في إنشائهم لها من النصوص التي سبق لهم أن تمثلوها فيما انصرم من أيام حياتهم، وهذه النصوص تتجاوز وتصطرح وتتزوج وتتفاعل فيما بينها وينفي بعضها بعضها الآخر في نفوسهم، ثم في نصوصهم الجديدة فيما بعد.

وعملية تفاعل النصوص هذه لا تقتصر في الواقع على متجحي النصوص الجديدة بل تشمل كذلك مستهلكيها الذين يخضعون في قراءتهم لأي نص لتجربة تفاعل النصوص هذه، والتي تشكّل المهاد الذي تنبني عليه عملية التلقي أو الاستقبال، لأنها هي التي تُيسر إنتاج الدلالة أو المعنى الذي ينطوي عليه النص المقروء. وهذا يفضي بنا إلى حقيقة باتت اليوم مُسلمة لا تحتاج إلى كبير نقاش هي أن فكرة النصّ المستقلّ، المكتفي بذاته، المنغلق على نفسه، فكرة لا أساس لها لأنها تقوم على وهم. فالنص لم يعد يتألف، كما يذكرنا (رولان بارت)، من:

«سطر من الكلمات تطلق معنًى لاهوتياً أوحد (هو رسالة المؤلف - الإله)، وإنما هو فسحة متعددة الأبعاد تتزوج وتتصارع فيها كتابات ليس من بينها واحدة أصيلة. إن النص نسيج من المقبوسات، ناشئ عن ألف مصدر ثقافي»^(٢).
ومما يعزز هذه النظرة الجديدة إلى النص الطريقة التي تُكتسب بها اللغة الأم. فالفرد منا يكتسب لغته ويتمكن من نظامها الخاص بها في مستوياته المختلفة (الصوتية، و(الفونولوجية)، والمعجمية، والدلالية، والصرفية، والتركيبية، والإنشائية) من الممارسة قبل أن يُباشر هذه اللغة وذاك النظام من المدارس. إنه يكتسب لغته الأم عندما يواجهها نصوصاً يتلقفها في أسرته من

(٢) انظر Roland Barthes, *The of Language*, Translated by Richard

أمه وأبيه وإخوته وباقي أفراد أسرته الكبرى، وفي حيّه، وفي مدرسته، وفي عمله، وفي مختلف وجوه حياته الممتدة من المهد إلى اللحد. وهذه النصوص المواجهة والمستوعبة، يشكّل كل منها ممارسة دلالية متماسكة Coherent Signifying Practice تُنتج معنًى متوخّي بالاعتماد على النظام اللغوي الخاص بتلك اللغة أو ما سماه (فرديناند دو سوسور) بـ«Langue». وهذا النظام يتنامى بناؤه التدريجي في نفس الفرد ويشكل في نهاية المطاف بنية محددة يُنتج من خلالها إنشاءه الخاص به، أو كلامه، أي الـ«Parole» في مصطلح (سوسور)، ويستطيع بمقدار تمكّنه منه أن يفكر باللغة ويعبر ويتواصل مع الآخرين ومع الموروث الثقافي المدوّن بها. ومعنى هذا أن النظام اللغوي الخاص بلغة ما هو الأساس في عملية تلقي النصوص أو في عملية إرسالها؛ في استهلاكها وفي إنتاجها، في قراءتها أو في كتابتها. ولكنه لا يمارس وظيفته بوصفه نظاماً مجرداً واضحاً محدداً دقيقاً في نفس ممارس اللغة، بقدر ممارسته لوظيفته هذه من صورته التي يتجسد لنا فيها، ويتحول بها من طور الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل، أي من النصوص التي تيسر للمرء الاطلاع عليها، وقراءتها، واستيعابها، وتمثّلها، ويُتاح له فيما بعد إنتاج نصوصٍ نظيرة لها.

والحقيقة أن هذه النصوص تقوم مجتمعةً بتشكيل المعايير والمقاييس والأعراف التي تحكم استهلاك المرء لنصوص الآخرين، مثلما تحكم إنتاجه لنصوصه الخاصة به عندما تتحوّل إلى مادة أولية يستعملها في إنتاجه لهذه النصوص؛ إنها الحجارة التي يلتقطها هذا الباني الجديد مما اندثر من أبنية من هنا وهناك ويستعملها في إشادته لبنائه الخاص به وفق المخطط الذي أعدّه في نفسه استناداً إلى تجاربه وخبراته المترامية من اطلاعه على الأبنية المشيّدّة من قبل بطريقة من الطرق.

والحقيقة التي هي أكبر أهمية وحيوية وخطورة في مسألة تفاعل النصوص هي أن النصوص لا تتفاعل بوصفها مجرد نصوص، ولو كانت كذلك لصحَّ النظر إلى تفاعلها على أنه مجرد اقتباس أو تضمين أو تأثير بمصادر معينة يستطيع أن يحددها القارئ المطلع والخبير. ولكنها تتفاعل بوصفها ممارسات دلالية متماسكة. إنها عندما تتجاوز وتصطرع وتتزوج وينفي بعضها بعضاً الآخر، أو باختصار عندما تتفاعل نصياً، تتفاعل بوصفها «أنظمة علامات متماسكة» Coherent Signs Systems لكل منها دلالاته الخاصة به، وهذه الأنظمة، إذ تلتقي في النص الجديد، تُسهم متضافرةً في خلق نظام ترميزي Code جديد يحمل على عاتقه عبء إنتاج المعنى أو الدلالة في هذا النص. إن هذه النصوص تشترك (بوصفها أنظمة علامات قادرة على إنتاج المعاني والدلالات الخاصة بها) في خلق الفسحة الإنشائية discursive space للنص الجديد - هذه الفسحة التي تعبّر أساساً عن إمكانات الثقافة التي تنتمي إليها اللغة المستعملة في كتابة ذلك النص.

من هنا فإن الدراسات التنصصية ليست تفحصاً للمصادر والمؤثرات القومية الموروثة أو المعاصرة، فهذا من شأن الدراسات الأدبية الخاصة بأدب قومي ما. كما أنها ليست دراسة للمصادر والمؤثرات الأجنبية في النص الأدبي القومي فهذا من شأن الدراسة المقارنة للأدب، أو ما نسميه عادة بالأدب المقارن. إنها تطرح شبكتها، كما يذكر (جوناثان كولر)، على نحو أوسع تستوعب من خلاله:

«الممارسات الإنشائية المغفلة، والنظم الترميزية ذات الأصول المفقودة التي تجعل الممارسات الدالة للنصوص اللاحقة ممكنة»^(٣).

(٣) انظر: Jonathan Culler, **The Pursuit of Signs: Semiotics, Literature, Deconstruction** (Routledge and Kegan Paul, London, 1981), p.103

ولتُرك على أي حال صاحبة حقوق المصطلح - (جوليا كريستيفا) نفسها - تشرح لنا ما تريده بتفاعل النصوص من حيث كونها أنظمة دلالية متماسكة.

تقول (جوليا كريستيفا) في كتابها بنية اللغة الشعرية:

«يحدد (فرويد)، كما نعرف، عمليتين أساسيتين في عمل «اللاشعور» هما الانزياح displacement والتكثيف condensation وقد قدمهما (كروزفسكي) Kruzewski و(جاكسون) Jakobson بطريقة مختلفة في الأطوار الأولى للغويات البنيوية، من مفهومي الكناية (أو المجاز المرسل) metonymy والاستعارة metaphor، اللذين فسّرا منذ ذلك الوقت في ضوء التحليل النفسي.

وينبغي أن نضيف إلى هاتين العمليتين عملية ثالثة هي الانتقال من نظام دلالي إلى نظام دلالي آخر، وعلى وجه التأكيد، إن هذه العملية تنجم عن المزوجة بين الانزياح والتكثيف، ولكن هذه المزوجة لا تشرح عملها الكلي، فهي تنطوي كذلك على تعديل للوضع الأطروحي thetic position، تحطيم الوضع القديم وتشكيل وضع جديد. إن النظام الدلالي الجديد يمكن أن ينتج بالمادة الدلالية نفسها: ففي اللغة على سبيل المثال يجري الانتقال من السرد إلى النص، أو يمكن أن يستعار من مواد دلالية مختلفة، الانتقال من مشهد كرنفالي إلى النص المكتوب مثلاً. وبهذه الصلة فإننا نتفحص تشكّل نظام دلالي محدد - الرواية - بوصفه نتيجة لإعادة توزيع نظم علامات عديدة مختلفة، النظام الكرنفالي، الشعر البلاطي Courtly Poetry، الإنشاء المدرسي. إن مصطلح التناص يشير إلى هذا التحول لنظام علامات واحد (أو لعدة أنظمة علامات) إلى نظام علامات آخر؛ ولكن ما دام هذا المصطلح قد فُهم في الغالب بالمعنى المبتذل لـ «دراسة المصادر»، فإننا نفضل < استعمال > مصطلح «النقل»^(٤)

(٤) ربما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح «Transposition» يتألف من سابقة هي trans =

transposition لأنه يحدد أن ذلك النقل من نظام دلالي معين إلى نظام دلالي آخر، يتطلب الإفصاح عن الأطروحي the thetic - عن الوضعية النطقية والإشارية. وإذا ما سلّم المرء بأن كل ممارسة دالة هي ميدان تحولات لأنظمة دلالية مختلفة (أي تناص) فإنه يستطيع عندها أن يفهم أن «مكان» نطقها و«موضوعها» المشار إليهما لا يكونان أبداً مفردين، وتأمين، ومتوحدتين مع ذاتيهما. ولكنهما دائماً متعددان، مبعثران، وقابلان للجدولة. وبهذه الطريقة فإن تعدد المعاني polysemy يمكن أن ينظر إليه أيضاً على أنه نتيجة لتعدد تكافؤ علاماتي Semiotic Polyvalence - موالاة «لأنظمة علامات مختلفة»^(٥).

ثانياً: التناص القرآني في أذكار أبي مسلم البهلاني

ودراسة تناص القرآن الكريم مع الإنشاء الشعري لأبي مسلم البهلاني، أو تفاعل النص القرآني مع نصوص أبي مسلم جدّ مسوغة، بل ربما كانت جدّ واجبة استناداً إلى عدد من الأسباب:

• أولها: التكوين الثقافي لأبي مسلم البهلاني والذي يتسّم فيه النص القرآني وما يتصل به من علوم مكانة بارزة، ترك آثاره دونما شك في نصّه الشعري، نتيجة تفاعل هذا النص في مراحل إنتاجه المختلفة في نفسه مع النص القرآني؛

= وتعني «عبر» أو «ما وراء»، أو... «إلى مكان آخر أو حالة أخرى»، و«position» وتعني «وضعاً للشيء في مكان معين»، وتعني كذلك «موقفاً من قضية»، مثلما تعني «مركزاً اجتماعياً»، ومن ثم فإن المصطلح، الناجم عن ضم السابقة إلى الاسم أو المصدر، يشير، في السياق الذي استعمل فيه من جانب (كريستيفا)، إلى نقل العلامة اللغوية من نظام دلالي معين إلى نظام دلالي آخر، مما يفضي إلى تحوّل في دلالة تلك العلامة، علماً أن المصطلح نفسه يستعمل في الموسيقى للإشارة إلى نقل القطعة الموسيقية من سلّم إلى آخر.

(٥) انظر: Julia Kristeva, **Revolution in Poetic Language**, Translated by

Margaret Waller, with an Introduction by Leon S. Roudiez

.(Columbia University Press, New York, 1984), pp. 59-60

• وثانيها: أن موضوع النصّ الشعري المنسوب لأبي مسلم البهلائي هو الله عز وجل، فجلّ إنتاج البهلائي الشعري موقوف على الأذكار (الوادي المقدّس في أسماء الله الحسنى، والشجرة المباركة، ومفاتيح المدد، ومقدس النفوس، والكلم الطيب، والناموس الأسنى بالأسماء الحسنى، والنفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة، والباقيات الصالحات، ومجلي الكروب واطمئنان القلوب، والمعرج الأسنى في نظم أسماء الله الحسنى)^(٦) التي تنصرف إلى الحديث عن الذات الإلهية، متوجهة إليها، تبثّها ما في النفس من مواجد وأشواق وأمان ومحبة وضراعة ورجاء وغير ذلك مما تولّد فيها نتيجة تفاعلها مع البيان الإلهي والقرآن الكريم. فعلى سبيل المثال يتضمن الذكر الأول المعنون بـ«الوادي المقدس في أسماء الله الحسنى»:

- فاتحة بخصوص اسم الله تعالى، تتألف من ٦٦ بيتاً (ص ص ٣٧-٤٢)؛^(٧)
- وحضرةً بخصوص اسم الجلالة مؤلفة من ٦٦ بيتاً أيضاً (ص ص ٤٢-٤٨)؛
- وثمانية وتسعين حضرة لكل اسم من أسماء الله الحسنى أولها الرحمن (ص ص ٤٨-٤٩)، وآخرها الصبور (ص ص ١٤٦-١٤٧)؛
- واثنين وعشرين حضرة تشتمل على الأسماء الحسنى المستخرجة من القرآن الكريم مما لم يدخل في جملة الوارد بها الحديث الشريف (ص ص ١٤٧-١٦٩)؛

(٦) انظر: النفس الرحماني في أذكار أبي مسلم البهلائي، لوحيد عصره وفريد دهره العلامة أبي مسلم الشيخ ناصر بن سالم بن عديم البهلائي (١٢٧٨هـ - ١٣٣٩هـ)، مكتبة مسقط، مسقط، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠١م).

(٧) تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين في متن البحث إلى صفحات النفس الرحماني في أذكار أبي مسلم البهلائي المذكور آنفاً.

○ وخاتمة أولى مؤلفة من ٦٦ بيتاً (ص ص ١٧٠-١٧٥)، هي «ابتهال وتضرع إلى الحق سبحانه وتعالى، بنسبة الاستمداد لأنوار أسمائه تعالى وصفاته وملاحظة التوسل بترتيلها» (ص ٣٤)؛

○ وخاتمة أخرى تشتمل على ستة وستين بيتاً (ص ص ١٧٦-١٨١)، موضوعها «الصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله محمد ﷺ بنسبة الاستمداد والتوسل به ﷺ» (ص ٣٤).

○ ولا ريب أن إنشاءً شعرياً تشغل فيه الذات الإلهية وأسماء الله الحسنی هذا الحيز الفسيح (ص ص ٣٢-١٧٥)، سيكون محكوماً بحضور بيان هذه الذات المتمثل بـ القرآن الكريم الذي حرص أبو مسلم البهلاني على أن يستخرج منه اثنين وعشرين اسماً آخر للذات الإلهية مما لم يرد في الأحاديث النبوية، وهذا يدل بوضوح على عمق هذا الحضور واتساعه في الإنشاء الشعري لأبي مسلم البهلاني مما نجد آثاره بيّنة في فسح التناص التي نعثر عليها في كل فاتحة وحضرة وخاتمة من هذا الذكر الذي يقلُّ نظيره في الأدب الصوفي المكتوب بالعربية.

• وثالثها: أن منهاج شيخ والده الإمام المحقق سعيد بن خلفان الخليلي في نظم الشعر، (والذي احتذاه أبو مسلم، ولا سيما فيما كان يخمس من قصائده)، كان يقوم على التناص القرآني الذي نراه واضحاً في قصيدته التي بدأها بقوله:
سموط ثناء في سموط فريد بكل لسان قد بثثن وجيد
والتي خمّسها أبو مسلم في ذكره السابع المعنون بـ «الدعوة العظيمة المسماة درك المنى في تخميس سموط الثنا» والذي يشير في شروطه إلى منزلة الخليلي في نفسه، فينعتة بالقطب النوراني، ويسأل الله أن يمدّه بأمداد أذكاره، ويفيض عليه بركات الدين والدنيا من فيوض بحاره (ص ٢٧٧).

ولعل مثلاً واحداً يجمع ما بين صنيع الإمام الخليلي وصنيع المرید أبي مسلم البهلاني يكفي في هذا الموضوع للتنبيه على أهمية التناص القرآني في الإنشاء الشعري لكليهما. يقول البهلاني مخمساً واحداً من أبيات قصيدة شيخه الخليلي:

بغيرتك اللهم يا حامي الحمى

بسطوتك اللهم يا رافع السما

سميع دعائي كن عليهم مدمدما

وصبّ عليهم سوط منتقم كما لعاد وفرعون جرى وثمرود
(ص ٢٨٨)

والحقيقة أن التخمس، الذي قد يبدو أوّل وهلة مجرد ضمّ لنصين في سلك واحد، يطرح بقوة مسألة التناص أو تفاعل النصوص، لأنه ليس مجرد تجاوز لنصين يتتمان لمُنتجين مُختلفين، أو - كما هو في بعض الحالات (تخميس ابن منقذ لبعض قصائده) - لفسحتين دلّيتين لمُنتج واحد، بمقدار ما هو محاولة لدمج ممارسة دلالية متماسكة لممارس من مُمارسي اللغة في ممارسة دلالية متماسكة أخرى لممارس آخر، أو للممارس نفسه. ومع أن الشاعر يحاول أن يخلق نوعاً من الانسجام ما بين الممارستين فإن ما يحدث فعلاً هو أن كلاً من الممارستين تسعى من حيث المبدأ إلى إدخال الأخرى في نظامها العلاماتي المتماسك الذي تستند إليه في إنتاجها للدلالة الخاصة بها، وينجم عن هذا المسعى (الذي يتخذ شكل الصراع والتنازع والنفى المتبادل أحياناً) توتر على درجات متفاوتة بين النظامين المتجسدين بالممارستين (النصين) ينتهي إلى إدخال واحدة من هاتين الممارستين في الأخرى وقيام ممارسة دلالية متماسكة جديدة، تُدخل عناصر ومكونات من كلتا الممارستين في دائرتها التي تُشكّل كلاً جديداً. وبعبارة أخرى تُدخل كلاً من الممارستين الدلّيتين المتماسكتين اللتين

تتجاوزان، بوصف كل منهما علامة متزعة من نظام علاماتي متماسك، لتتنظم في ممارسة دلالية متماسكة جديدة تستند إلى نظام علاماتي جديد تشكّل من النظامين اللذين استندت إليهما الممارستان السابقتان في إنتاج كل منهما لدلالاتها. وهذا النظام العلاماتي الجديد، وإن كان يضم علامات مستمدة من النظامين السابقين له، ناتج عن ضمّ هذه العلامات في بنية جديدة تنتج دلالة جديدة، غالباً ما تكون مختلفة على نحو ما عن الداليتين السابقتين. بمعنى أن توليد الدلالة الجديدة إنما جاء من دمج كل من الممارستين في ممارسة دلالية جديدة تستند إلى نظام علاماتي متماسك جديد.

ولا يعني هذا بحال أن يكون الشاعر، الذي يُخمّس نتاج غيره، واعياً تمام الوعي لما يقوم به من دمج للممارسات الدلالية المتماسكة المتمثلة بالوحدات الثلاث التي يتجهها بنفسه، والوحدتين اللتين يستمدّهما من شاعر آخر، أو من نص آخر له أنتجه سابقاً. لأن ما ينجم عن عملية التفاعل ما بين النصين المتجاورين من دلالة إنما يحدث بآليات خاصة بالإنشاءات اللغوية، وبمعزل تامّ عن وعي الشاعر وإرادته. ذلك أن إنتاج الدلالة الجديدة يكفله النظام اللغوي الذي يحكم عامة إنتاج هذه الدلالة الجديدة مثلما يحكم الممارسات الدلالية السابقة واللاحقة في لغة ما.

• ورابعها: تصور أبي مسلم البهلاني نفسه لعملية الإنتاج الأدبي ذاتها. فالرجل يؤمن أن إنتاج الشعر ليس صناعة بمقدار ما هو إلهام، ومصدر هذا الإلهام هو الخالق الذي يفيض على لسان الشاعر ما ينظمه من قصائد. يكتب البهلاني في ذكره الأول المعنون بـ«الوادي المقدّس في أسماء الله الحسنی» في معرض حديثه عن شروط الذكر فيقول:

«فإن مفيض النور جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، ببركة أسمائه وصفاته

أفاض على لسان عبده العاجز منظوماً يحتوي أسماءه الحسنی الواردة بها السنّة المطهرة، ثم على ما ورد به القرآن العزيز؛ مما زاد على الوارد به أصحّ الأحاديث النبوية، ولفيض شعبه بالأنوار والأسرار والبركات ظاهراً وباطناً لَمَّا تَمَّ بوهب الله وهدايته سَمَّيْتَه: الوادي المقدّس. أسأل الله أن يفيض عليّ من سيوله بحار العرفان وفيوض الإحسان، وأن يجعل ذكر الله سمير قلبي واللسان).

ويكتب في شروط ذكره الثاني المعنون بـ «مفاتيح المدد»:

«نزلت بقضاء الله وقدرته نازلة لم أجد للخلاص منها سبيلاً حتى تداركني الله برحمته ولطفه، فوهبني هذا الذكر بأن أخرجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، إجراءً على لساني» (ص ١٩٣)

ويذكر، في مقدمة ذكره الخامس الموسوم بـ «ثمرات المعارف وطيبات العوارف»، والذي يخمّس قصيدة شيخه القطب الجليل العارف بالله سعيد بن خلفان الخليلي، أن نظم هذا الأخير ونثره يدلان «على أن علمه كسفي وهبّي لا يطيق أداءه إلا من أكرمه الله بالوصول، وأقامه مقاماً رفيعاً من المدد، والفتح»، وأن من «جملة ما أفاضه الله عليه هذه القصيدة الجليلة» التي فتح الله له ببركة سيده الشيخ تخميسها بعد أن استخاره سبحانه وتعالى. (ص ص ٢٩٣-٢٩٤).

كما يؤكد في تقديمه للذكر الثالث عشر المعنون بـ «المعرج الأسنى في نظم أسماء الله الحسنی» أن الله أجراها على لسانه:

«فهذه نفثات قدسية، وكلمات عرشية، عبق عبيرها عن رياض الأسرار الفرقانية، وأشرق ضوءها عن مشكاة الأنوار الأسمائية، أجراها الله على لسان عبده المفتقر إلى رحمته». (ص ٤٠٢).

وتصوّر كهذا لعملية إنتاج الشعر يعني أن استحضر الذات الإلهية في الذات الإنسانية هو السبيل الممكن لاستمطار فيض الإلهام؛ واستحضار

هذه الذات الإلهية ينطوي فيما ينطوي على استحضر لبيانها المتمثل بالنسبة للمسلم بـ القرآن الكريم أولاً ثم بمصادر أخرى كـ الحديث القدسي وما صحّ من كتب الله المنزلة على رسله السابقين لمحمد ﷺ ثانياً. ومعنى هذا أن الفرصة تبقى مهياً، في أثناء إنتاج الشعر، لتفاعل البيان الموحى، أو المستلهم من الذات الإلهية، مع البيان الإلهي، أو لحدوث تناصّ مستمر بين ضربَي البيان: الإلهي، والمستلهم من الذات الإلهية في أثناء وجود الشاعر فيما يمكن أن يدعى بفسحة الأذكار التي تشبه إلى حدّ بعيد لحظة الكشف، ولكن على مستوى الإنشاء الشعري، وذلك عندما يتسامى استحضر الشاعر للذات الإلهية في ذاته الإنسانية ليلبغ مستوى اللقاء المنشود، من جانب أي متصوف متيم بحب الله، بين المحب والحبيب.

وربما كان من المفيد، في معرض الإشارة إلى تصوّر البهلاني لعملية الإنتاج الشعري على أنها إلهام إلهي يفيض على لسان الشاعر بما ينظمه، التذكير بتصوّر (أفلاطون) للإنتاج الشعري على أنه إلهام inspiration أيضاً. يقول (سقراط) محدثاً (أيون) Ion عن موهبة هذا الأخير في الحديث عن (هوميروس)، وشارحاً الآلية التي تنتقل بها هذه الموهبة إليه من ربة الشعر Muse:

«فالموهبة التي تملكها، موهبة الحديث عن هوميروس بطريقة بارعة، ليست فناً، ولكنها - كما قلت قبل هنيهة - من الإلهام. فهناك قوة إلهية تحركك، كتلك القوة المودعة في ذلك الحجر، الذي يسميه أوريديس Euripides المغناطيس، ولكن اسمه الشائع هو حجر هرقل. هذا الحجر لا يجذب أطواق الحديد فحسب، ولكنه ينقل إليها قوة مشابهة لجذب الأطواق الأخرى. وفي بعض الأحيان ترى عدداً من قطع الحديد والأطواق وقد تعلقت إحداها بالأخرى حتى لتتكون منها سلسلة طويلة جداً، وكلها تستمد قوة التعلق

من الحجر الأصلي. وبالمثل فإن ربة الشعر Muse نفسها تلهم (بعض) الناس أولاً، ومن هؤلاء الأشخاص الملهمين تتعلق سلسلة من الأشخاص الآخرين الذين يتلقون الإلهام. ذلك لأن الشعراء الغنائيين، لا يؤلفون قصائدهم الجميلة بالفن ولكن يؤلفونها لأنهم ملهمون مجذوبون....

فالشاعر كائن لطيف مجنح مقدس، وهو لا يقدر على الابتكار حتى يُوحى إليه ويغيب عن وعيه ولا يبقى فيه رشد: فإذا لم يبلغ هذه الحالة، فهو بغير حول وهو عاجز عن التفوه بنبوءاته.... لأن الشاعر لا يُغني بقوة الفن ولكنه يغني بالقوة الإلهية. فلو تعلم نظم الشعر بقواعد الفن لما عرف كيف يتحدث في موضوع واحد لا سواه، بل لعرف كيف يتحدث في كل موضوع. وهكذا يستولي الله على عقول الشعراء ويستخدمها لتكون رسالاً له، كما يستخدم العرفان والأنبيا المقدسين، حتى نعرف، نحن سامعيهم، أنهم لا يتكلمون من تلقاء أنفسهم وهم الذين يتفوهون بهذه الألفاظ النفسية في حالة غيبوبة، وإنما الله نفسه هو المتكلم فيهم، وهو يحدثنا، من خلالهم»^(٨).

ولا ريب أن هذا التذكير لا يحمل أي افتراض ضمني أن أبا مسلم البهلاني إنما يتابع في تصوّره (أفلاطون) أو أنه تأثر به، ولكن الغاية منه إيضاح آلية الإلهام لدى كليهما، هذه الآلية التي تنسجم تمام الانسجام مع

(٨) انظر: دكتور لويس عوض، نصوص النقد الأدبي: اليونان، الجزء الأول، (دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥)، ص ص ١٨-١٩؛ وانظر كذلك: **Ancient Literary Criticism: The Principal Texts in New Translation**, Edited by D. A. Russell and M. Winterbottom, (The Clarendon Press, Oxford, 1972), pp. 42-39; **Classical Literary Criticism**, Edited by D. A. Russell and M. Winterbottom (Oxford University Press, Oxford, 1989), pp.4-6.

التصور الصوفي لعلاقة المخلوق بالخالق، ودور الذكر في استحضاره في النفس، والتسامي بها لتبلغ مرحلة الكشف، بمعنى التواصل مع الذات الحبيبة والذوبان فيها لاحقاً، والتي هي بغية المسعى العرفاني. وربما كان مما يؤيد هذا أن أبا مسلم البهلاني يشير في موضع آخر من الديوان في ثانيا تقديمه للذكر السابع، وهو «الدعوة العظيمة المسماة درك المنى في تخميس سموط الثنا» للقطب الرباني الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، أنه، في تخميسه لتلك الدعوة، قد استمد الإلهام من الله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى، بوصفه مصدر هذا الإلهام قد فتح له بهذا «الفتح المبين»، ومنّ عليه بهذا الفيض وهو تخميس «سموط الثنا» تعرضاً لبركات ذلك الغوث العظيم، واستمداداً للفتح من نفثاته لا مباراة لكلامه» (ص ٢٧٦) وهو لذلك يسأل الله: «أن يمدنا بأمداد ذكره (يقصد ذكر شيخه الخليلي)، ويفيض علينا بركات الدين والدنيا من فيوض بحاره» (ص ٢٧٧).

وبعبارة أخرى إن الفتح والإلهام يُستمد من الله عز وجل، ويُلتَمَس كذلك ممن أفاض الله عليه من المنظوم، وهو في هذه الحالة الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، أي إن الإلهام ينتقل من الملهم الأول، إلى الملهم الشيخ صاحب سموط الثنا، ليتقل بدوره إلى مُخَمَّس قصيدته أبي مسلم البهلاني، على النحو نفسه الذي ينتقل فيه الإلهام من ربة الشعر Muse، إلى الشاعر، إلى الراوية، ثم إلى الجمهور في سلسلة تشبه تلك التي يشكلها حجر المغناطيس، أو حجر هرقل. وليس ثمة من حاجة للتأكيد أن الأمر منوط بإرادة الملهم الأول، المصدر ينبوع الذي تُستمد منه طاقة الإبداع الشعري، إذا صحت هذه التسمية في الإشارة إلى حصيلة الإلهام التي تتجسد في منظوم الشاعر.

• وخامسها: إلحاح أبي مسلم البهلاني نفسه في شروط أذكاره (ولا سيما

ذكره الأول المعنون بـ«الوادي المقدس في أسماء الله الحسنى» (ص ص ٣٣-٣٦)، وذكره الثاني الموسوم بـ«الشجرة المباركة» (ص ١٨٥)، وذكره الثالث المعنون بـ«مفاتيح المدد» (ص ١٩٣)، والذكر الرابع الموسوم بـ«مقدس النفوس» (ص ص ٢١٤-٢١٥)، وفي مقدمات بعضها كالذكر التاسع الموسوم بـ«الناموس الأسنى بالأسماء الحسنى» (ص ص ٣١٠-٣١١)، وفي «دعاء أحرف النور» (ص ص ٤١٥-٤١٧) على ضرورة اقتران أداء هذه الأذكار بقراءة سور وآيات محددة من القرآن الكريم، وتكرارها مرات محددة؛ وبعبارة أخرى إصرار أبي مسلم على المزوجة بين البيان الإلهي وبين إنشائه الشعري الذي أفاضه الله عليه في أداء أي من الأذكار التي يوصي بها لقضاء حاجات معينة يلتمسها الذاكر مستعيناً بالله على قضائها.

فعلى سبيل المثال يكتب أبو مسلم في شرط ذكره الأول:

«ثم إن طريقي في تلاوته توزيعه على أيام الأسبوع مبتدئاً بليلة الجمعة مختتماً بمساء يوم الخميس والتوزيع بحسب الإمكان لا بالتزام ترتيب مخصوص، ولكن الشرط إتمامها في أسبوع، ومن قدر على تلاوتها في أقل من ذلك ولو في مقام واحد فلكل درجات مما عملوا، وعند الابتداء فينبغي صلاة ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة آية الكرسي مرةً وآخر البقرة مرةً وآية الملك مرةً وسورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، وفي الثانية أول سورة الحديد وآخر الحشر مرةً مرة، وسورة الإخلاص إحدى عشرة مرة وبعد الفراغ تكون تلك الجلسة جلسة الذكر فتبتدئ قائلاً: هو الله، ستاً وستين مرة ثم تقول: أنت الله، كذلك ستاً وستين مرة، وإن قدرت أن تجمع كلاً إحدى عشرة مرة في نفس واحدة [كذا في الأصل والأولى واحد] فيكون كل واحدٍ من الذكرين في ستة أنفاس، فذلك لجمع السر وإحراق الخواطر عندي من المجربات، ثم تقرأ فاتحة الكتاب

فآية الكرسي فأخر سورة البقرة، فقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨]،
 فآية المُلْك، فأخر آل عمران، فالآيتين من آخر التوبة فقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ
 أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] إلى آخر السورة فأول الحديد إلى الصدور، فأخر
 الحشر فسورة الإخلاص، فالمعوذتين «(ص ص ٣٤-٣٥).

ويكتب في شرط ذكره الثاني:

«وكيفية استعماله في ليلة كل جمعة ثلاث مرات بعد قراءة آية الكرسي
 خمسين مرة» (ص ١٨٥)؛

ويكتب في شرط ذكره الثالث:

«وكيفية استعماله إياه أن أبتدئ بالصلاة على النبي ﷺ بالصيغة النارية
 سبعا ثم الفاتحة سبعا ثم آية الكرسي سبعا ثم خاتمة سورة البقرة سبعا ثم قوله
 تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٤٦]
 الآية سبعا ثم قراءة سورة الأنعام، حتى إذا وصلت بين الجلاتين منها أخذت
 في الذكر المبارك، ومع تمامه أرجع إلى تلاوة السورة مبتدئا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ
 أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] إلى تمام السورة» (ص ١٩٣)؛

ويكتب في شروط ذكره الرابع:

«ووقت تلاوته كل يوم بعد صلاة الصبح، وأوله قراءة الفاتحة، وآية
 الكرسي، ثم قل: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكِ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلى آخرها، ثم
 ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] إلى آخرها، ثم الآيتين من آخر
 التوبة، ثم قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] إلى آخر
 السورة، ثم أول الحديد إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ثم آخر الحشر، ثم
 سورة الضحى، ثم سورة ألم نشرح، ثم سورة القدر، ثم سورة الكوثر، ثم
 سورة الكافرون، ثم الإخلاص، ثم المعوذتين» (ص ٢١٤)؛

ويكتب في مقدمة الذكر التاسع «حضرة الناموس»:
«الحمد لله ببركة أسماء الله، قد أبرزت العناية الأزلية للحكمة الخفية من
الستور الغيبية ناموسنا الأعظم الأسنى متجلياً بتسع حضراتٍ إلهية، تتقل النفس
الزكية بين مشاهدها القدسية حتى ترجع إلى ربها راضية مرضية.
الأولى: الحضرة الجامعة المشرفة من خلال: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾.
الثانية: الحضرة الأحدية المتجلية من كمال ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾.
الثالثة: الحضرة العرفانية المتشعشة من أنوار كمال ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمُ﴾.

الرابعة: الحضرة القدسية اللائحة على جمال ﴿وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.
الخامسة: الحضرة الرَّحْمَتِيَّة الظاهرة من جمال ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ﴾.

السادسة: الحضرة الفتوحية المنبسطة من جمال: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.
السابعة: الحضرة الجبروتية الصادرة من قهر جلال ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾.
الثامنة: الحضرة القاصمة المرسله صواعقها من خلال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.
التاسعة: الحضرة القريبة الواردة من جمال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾.

وبعدها: سجدة فيها تسع وتسعون تسيحة.
وبعدها: الصلاة على الذات المحمدية بأي الصيغ.
وبعدها: الفاتحة ثلاثاً على الذات المحمدية.
ثم: الفاتحة ثلاثاً إلى الأرواح المقدسة» (ص ص ٣١٠-٣١١).
ويكتب في «دعاء أحرف النور»:

«اللهم سيدي أسألك بأنوار إشارة ألف ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ وبحماية حُجُب
حاء ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وبروح ريحانة ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾، وبشاء سرِّ سين ﴿سِرِّهِمْ﴾

﴿اللَّهُ﴾، وبصفاء صفحات صاد ﴿صَبَّغَةَ اللَّهُ﴾ وبطوأي طوايا طاء ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾
 وبعوالم عوارف عين ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾، وبقوة قهرية قاف ﴿قُلِ اللَّهُ﴾
 وبكمال كلية كاف ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وبلوامع لطائف لام ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾
 وبمجد ملكة ميم ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وبنفحات نسيمات نون ﴿نَصْرٌ﴾
 مِّنَ اللَّهِ ﴿، وبهدي هبية هاء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ وبئمن يمين ياء ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾
 مِّنَ اللَّهِ ﴿... (ص ٤١٥). [التشديد من جانب الباحث].

وأداء هذه الأذكار على هذه الصورة من المزوجة بين البيان الإلهي المتمثل
 بـ«القرآن الكريم» وبيان الباهلي المتمثل بقصائده يُيسر فسح تناص شفوية بينهما،
 أو فسح تفاعل في نفس مؤدي هذه الأذكار، تسهم في تعزيز حضور الذات في
 هذه النفس إذ تتسامى متطلعة إلى خالقها متضرعة إليه ليجيب سُؤلها.

ثالثاً: نماذج من التناص القرآني:

ربما كان من المهم الإشارة بادئ ذي بدء إلى أنه لا تكاد تخلو صفحة من
 صفحات «النفس الرحماني في أذكار أبي مسلم البهلائي» من فسحة تناص قرآني
 أو أكثر، وهو أمر يشي بالحضور الفعّال للبيان الإلهي في نفس البهلائي وهو ينظم
 أذكاره، أو يتلقاها - على حد تعبيره - أيضاً منظوماً من المولى سبحانه وتعالى.
 ويبدو أن هذا الحضور مطلوب كذلك من جانب منشد هذه الأذكار، الذي ينبغي
 عليه - كما يشترط البهلائي في التقديم لها - أن يزاوج في أدائه لأذكار البهلائي
 بين قراءة القرآن الكريم من جهة، وبين إنشاده لها من جهة أخرى. ومعنى هذا أن
 تفاعل النص القرآني مع النص البهلائي يشغل حيزاً مركزياً في عمليتي:

- إنتاج هذه الأذكار التي تمجد الخالق من جانب أبي مسلم،
- وفي أدائها أو إنشادها من جانب منشد الذكر في الحضرة أو الحلقة.

ويبدو هذا التفاعل النصي طبيعياً في ضوء الهدف المنشود من هذه الأذكار التي تعمل، بفسح التناص فيها من جهة، وبالمزاوجة المستمرة بين تلاوة القرآن الكريم وإنشاد الأذكار البهلانية من جهة أخرى؛ على تعزيز تنامي حضور الذات الإلهية في نفس الذاكر سعة وعمقاً وشمولاً، بغرض الوصول إلى لحظة تنسرب فيها في هذه النفس قوى تمكّنه من مواجهة الموقف الصعب الذي يواجهه في الحياة الدنيا. ذلك أن الغاية من هذه الأذكار، كما ينبهنا على ذلك البهلاني في مقدماتها، هي استمداد القوة من الخالق ليستعين بها المخلوق في مواجهة دنيوية يشعر الذاكر أنه ضعيف فيها دون مدد من الخالق.

فبعد أن يبين البهلاني طريقته في تلاوة الذكر الأول بشيء من تفصيل، ويوصي قارئه بقراءة كذا من الآيات والأدعية والصلوات والابتهالات، ينصحه بأن يستقر في مكانه:

«ساكناً خاضعاً متأدباً ناكس الطرف، حاضر القلب، منتظراً للمدد» (ص ٣٦).
ثم يضيف: «ثم إن مقاصد الداعية متعددة، فيأخذ الداعي ما مناسب مقصده، ولا بأس بجمع حضرة بأخرى إذا ناسبها بحسب المقاصد ولو على غير ترتيب الأسماء الواردة، كما لو جمعت أسماء الجلال أو أسماء الكمال كل منها على حدة لما تقتضيه المظاهر، وأيقن بالإجابة بلا ارتياب والله هو الكريم الوهاب» (ص ٣٦).

ويذكر في شروط ذكره الثاني: «هذا الذكر هو السر الخارق، والكوكب الدرّي الشارق، اتخذته وسيلة إلى ربي ذي الكرم والجود، وتقرير الوجوب واجب الوجود، وكيفية استعماله في ليلة كل جمعة ثلاث مرات بعد قراءة

آية الكرسي خمسين مرة بنية إيجاد المعدومات كالزكاء للنفس، والحياة للقلب، والفهم للمشكلات، والسعة في المال، والمودة في قلوب المعرضين...» (ص ١٨٥).

كما يختم مقدمة ذكره التاسع التي يفصل فيها الحضرات الإلهية التسع ومايتبعها من تلاوة وسجود وصلاة وقراءة ودعاء، بالإلحاح على ضرورة: «الالتفات الكلي بالغيبة عن عالم الوجود إلى عالم الشهود بمجرد مراقبة المعبود لقصد الانتظار لا الاختيار لفيض الكرم والجود» (ص ٣١١).

ولما كان القيام بدراسة مستقصية تحصى فيها جميع فُسَح التناص القرآني في الإنشاء الشعري لأبي مسلم البهلاني، ثم تصنف، وتحلل، بغرض تبين آليات التفاعل السائدة فيها، والكشف عما تنطوي عليه من دلالات ومؤشرات تسهم في فهم أعمق لعمل البهلاني، أمراً يتطلب وقتاً أطول من الوقت المتيسر لإعداد هذا البحث/ المقدمة، ومقاماً أرحب من المقام الحالي، فإنه ربما كان من الحكمة اختيار مجموعة من فُسَح التناص القرآني في أذكار البهلاني وتحليلها بشيء من تفصيل يوضح آلية التفاعل في هذه الفسح ما بين النص القرآني وإنشاء البهلاني، وبخاصة أن النص القرآني- كما سيتضح لاحقاً من الأمثلة المحللة- يؤدي وظيفة الأرضية أو الخلفية background التي يتحرك أمامها الإنشاء البهلاني في إنتاجه لدلالته أو لدلالاته، التي تبدو محكومة على نحو من الأنحاء بهذه الخلفية. وبعبارة أخرى إن الإنشاء البهلاني يشبه لوحة، يشكّل النص القرآني خلفيتها التي تتحرك أمامها العناصر المكوّنة للأذكار في تشكيل formation تتحدد دلالاته بالعلاقات التي يقيمها البهلاني فيما بين هذه المكوّنات من جهة، وما بينها وبين تلك الخلفية من جهة أخرى.

فُسْمُ الْمَقْبُوسَاتِ الْقِرَائِيَةِ الْبَرْقِيَةِ

وإذا ما بدأ الدارس بفسح المقبوسات البرقية من القرآن الكريم والتي يقع عليها في أبيات من مثل:

دعاني ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾^(٩) والفقر مطلقاً وإنك يا الله أهلٌ لدعوتي
ونور جلال من ﴿قُلِ اللَّهُ﴾^(١٠) مشرق سریت به حتى شهود الحقيقة
وعز كمال الله من ﴿أنا الله﴾^(١١) له استسلم الأشياء طوعاً^(١٢) وذلت
وحسن جمال من ﴿هو الله﴾^(١٣) ظاهر به نشوة الأرواح تحت الهوية

أو بالاثنتين وعشرين حضرة المنظومة على أسماء الله الحسنى المستخرجة من القرآن الكريم والتي يتكرر فيها ذكر الاسم المستمد من البيان الإلهي على نحو ينسجم تمام الانسجام مع طبيعة الحضرة، كما هو الشأن مثلاً في حضرة «شديد العقاب» التي تفتتح أبياتها الأحد عشر جميعها بـ «شديد العقاب» (ص ص ١٥٦-١٥٧) فإنه ربما يعزو هذا القبس البرقي إلى رغبة البهلاني في دفع الشعر عن البيان الإلهي الذي أوحى إلى النبي محمد ﷺ والذي تكرر نفي تهمة الشاعرية عنه أكثر من مرة في القرآن الكريم. ولعل المرء يُذكر في هذا السياق بالضجة التي أثيرت قبل عدة سنوات حول غناء مارسيل خليفة لقصيدة محمود

(٩) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

(١٠) سورة الحشر، الآيات ٢٢-٢٤، وسورة الكهف، الآية ٣٨.

(١١) سورة طه، الآية ١٤.

(١٢) سورة آل عمران، الآية ٨٣.

(١٣) سورة الأنعام، الآية ٩١.

درويش «أنا يوسف يا أبي»^(١٤) التي تتضمن بعض آي الذكر الحكيم، حتى يتبين الحكمة من الاقتصار على المقبوسات البرقية من جانب البهلاني.

فسح التناسق القرآني:

ويلاحظ أنه يمكن أن تصنّف في فئات عدة:

• فئة تهدف إلى تأكيد المعنى القرآني باستحضاره من خلال إيراد إشارة أو أكثر إلى القرآن الكريم، وهي أكثر الفئات وروداً في الإنشاء البهلاني، وأمثلتها كثيرة، ومنها قوله في بيته اللذين يفتح بهما الذكر الأول الموسوم بـ«الوادي المقدس في أسماء الله الحسنى»:

هذه النار وذا الوادي المقدس فاخلع النعلين والذلة فالبس
واجد أنت هدى أو قبساً لا تجاوز إن هذا الليل عسعس
واللذين يتضمنان عدداً من فسح التناسق القرآني التي تؤكد المعاني الواردة في الآيات ٩-١٣ من سورة طه، والتي تمضي على هذا النحو:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنهَا تُودِي يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾

ولا شك أن الغاية من استحضار هذه الآيات هي استحضار الأجواء الرحمانية التي سبقت النداء الإلهي لموسى عليه السلام والتي يود البهلاني لها أن تلقي بظلالها على الأجواء التي يريد أن تستبق ذكره الأطول والذي

(١٤) انظر قصيدة محمود درويش «أنا يوسف يا أبي»، في ديوانه: ورد أقل: شعر (دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦) ص ٧٧، والتي يختمها بقوله: «أبت! هل جنيت على أحد عندما قلت إنني: رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، رأيتهم لي ساجدين».

وسمه بـ«الوادي المقدس» تهيئة لمنشد الذكر، وإعداداً له، حتى يدخل في هذا العالم ويمضي في تساميه من قراءته وتلاواته وصلواته وأدعيته وابتهالاته متطلعاً إلى الله عز وجل، إلى أن ينتهي به المطاف إلى الاستقرار في مكانه «ساکتاً خاضعاً متأدباً ناكس الطرف، حاضر القلب، منتظراً للمدد» (ص ٣٦) وعندها سيجاب دعاؤه بلا ارتياب.

• وفئة تستحضر المعنى القرآني بالإشارة إليه في النص البهلاني، ولكنها لا تهدف إلى تأكيده بمقدار سعيها إلى تحويله جزئياً أو كلياً على النحو الذي يسهم في إنتاج الدلالة المرغوب فيها. وبالطبع فإن إنتاج هذه الدلالة يقتضي فيما يقتضيه وضع الإشارة القرآنية في ممارسة دلالية متماسكة معدلة قليلاً، تيسر استعادة المعنى القرآني ولكن بظلال جديدة بات يحملها نتيجة التحول الجزئي الذي طرأ عليه، وتم ذلك بدخوله في الممارسة الدالة المعدلة التي نراها في إنشاء البهلاني والمختلفة عن الممارسة الدالة التي نقرؤها في النص القرآني. ومنها قوله:

«ويا وارثاً اصرف سورة البغي وانتقم بعدلك ممن بالضلال تسربلا
ويا قائماً بالقسط قوم مسدداً قوياً على إظهار دينك فيصلاً»

(ص ١١)

والذي يستحضر التناص القرآني في البيت الأول منها المعنى الوارد في الآية رقم (٦٥) من سورة الفرقان والتي تتحدث عن:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٥].

ولكنه لا يستحضره ليؤكد كده كما هو، وإنما يسعى إلى تحويله بإدخاله في نظام علاماتي معدّل قادر على إنتاج الدلالة الجديدة التي انتقلت بفعل الصرف

من عالم الآخرة (صَرَفَ عذاب جهنم، وهو سؤال عِبَادِ الرحمن) إلى عالم الدنيا (صرف سَوْرَةَ البغي الذي هو سؤال البهلاني الذي يريد أن يستعين بالخالق ومدده في كفاحه للظلم والبغي في هذا العالم). ومادام الخالق قد حرّم الظلم على نفسه، كما ورد في الحديث القدسي، وجعله بين عباده محرّماً، ومادام قد نهاهم عن التظالم، فإن من الطبيعي أن يكون صرفه لسورة البغي بمنزلة الانتقام من الظالم الذي خالف وصية الخالق وحاد عن سبيل الهداية، بل تسربل بالضلال إلى درجة تتطلب الانتقام العادل المنصف من جانب الله. وهكذا تمّ تعزيز الدلالة المحوّلة جزئياً في هذه الممارسة الدالة المختلفة عن طريق إدخالها في نظام علاماتي معدّل يمكن البهلاني من إنتاج الدلالة المرغوبة التي تدور في فلك عالمنا الذي يُفترض بنا أن نتدبّره بأنفسنا ما دمنا قد صنعناه بأنفسنا أيضاً. ولكن كيف تُرجى إقامة العدل من الضال المسربل في ضلاله؟ لا بُدَّ إذن من تدخل الخالق، ولا مناص من الاستعانة به، فهو المؤهل لإقامة العدل، وقد أوصانا نبينا محمد ﷺ بأن نستعين به إذا ما طلبنا أي عون: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١٥).

أما فسحة التناص القرآني في البيت الثاني فإنها تحوّل المعنى القرآني من جهة، وتعزز الدلالة المعدّلة التي تمّ إنتاجها في البيت الأول من جهة أخرى. وهكذا فإن دعاءه القائم بالقسط وإن كان يستحضر صفة العدل في الخالق عز وجل، التي تنطوي عليها الآية الكريمة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَمَلَٰ تِكَّةٌ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، والتي تنصرف إلى تأكيد شهادته بأنه لا شريك له، وأنه عزيز حكيم أيضاً، فضلاً على

(١٥) الإمام النووي، رياض الصالحين، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، (دار الفكر، دمشق،

كونه قائماً بالقسط، فإنه لا يكتفي بتأكيد العدالة أو القيام بالقسط بل يتوسع فيها لتشمل الدنيا، عالم الإنسان الذي أفسده الظلم، والذي يحتاج ليس فقط إلى إبطال الظلم (صرف سورة البغي) بل كذلك إلى جانب أكثر وضوحاً في إيجابيته وهو مناصرة من يُظهر الدين، وتسديد خطاه، وتعزيز قوته ولاسيما أن هذا الأخير قوي على إظهار دين الله، فيصل في تمييزه بين المباح والمحرم، أي حريص على العمل بما أمر الله. وبعبارة أخرى إن فسحة التناص القرآني في البيت الثاني لا تكتفي بتأكيد المعنى القرآني بعد استحضاره (وهو القيام بالقسط) بل تتوسع فيه ليشمل كلا الجانبين السلبي (وهو صرف سورة البغي، أو ردع الظلم والذي هو في حقيقته نفي للسلب، ولذا فهو إيجابي) والإيجابي (المناصرة والتسديد للقوي في إظهار الدين والفيصل بين الحرام والحلال) في فعل العدل. وفوق هذا وذاك فإنها تعزز الدلالة المعدلة في البيت الأول، وترسخها بتوكيدها في صورتها الجديدة. أي إن التناص القرآني في البيت الثاني بوصفه ممارسة دالة معدلة يحقق ثلاثة أهداف مجتمعة هي:

- توكيد الدلالة القرآنية (القيام بالقسط)؛
- توسيعها لتشمل السماء والأرض؛
- تعزيز الدلالة المعدلة المنتجة في الممارسة الدالة المعدلة في البيت الأول، وترسيخ العلاقة الوطيدة بين الدنيا والآخرة وبين الدنيا والدين.

والبهلاقي في توظيفه لفسح التناص القرآني على هذا النحو منسجم تمام الانسجام مع نفسه في «حرصه على مصلحة الأمة»، وفي توظيفه الأذكار لهذا الجانب من همه السياسي والاجتماعي، وهو ما أشار إليه بحق سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، المفتي العام لسلاطنة عُمان في

محاضراته التي ألقاها في معهد العلوم الشرعية في مطلع عام ٢٠٠٢م، ونُشرت مقدمة لـ «النفس الرحماني» تحت عنوان «أضواء على حياة العلامة أبي مسلم البهلاني» (ص ص ٥-١٨) عندما قال واصفاً البهلاني:

«كان عالماً منفتحاً، بحيث لم يكن متوقعاً في مضيق من هذه الحياة وإنما كان يطل ببصره على أطراف هذه الأمة في أرجاء الأرض، وما تعانیه في كل مكان، ولذلك كان يشارك أمته فيما هي فيه وعليه من مأس ويحاول أن يجد علاجاً لهذه المآسي التي تعانيتها الأمة» (ص ١٠).

وأضاف مؤكداً توظيفه أذكاره لهذا الغرض: «وكان بسبب هذه الهموم التي يحملها في جنابته يوظف أذكاره لهذا الجانب، فكان كثيراً ما يهتم بنظم أسماء الله الحسنى، ويهتم بالأذكار، ولكنه يوظف هذه الأذكار لهذا الجانب» (ص ١١).

وهو ما نجده واضحاً غاية الوضوح في الحضرة التي خصصها لاسم الله

«القائم بالقسط» المستمد من القرآن الكريم والتي تمضي على هذا النحو:

ويا قائماً بالقسط خصمك باهرُ	لأهلك مُنقِضٌ لهدم الشريعة
ولا يُشككى إلا إليك ولا حمى	ولا ناصرًا إلا جلال الرُّبوبة
لقد جدّ هذا الخصم في حرب ربه	وأعيت قواه طاقة البشرية
تعادى إلى الإسلام نقضاً لحبله	وسام عيال الله أسوأ خُطة
وجاس بلاد الله بالخسف آمنًا	كأن ليس بالمرصاد رب البرية
بلى إن للأكوان ربًّا مهيمناً	غيوراً شهيداً قائم المَقْسطِية
بلى إن للأكوان ربًّا يسوسها	بتدبيره تجري أمور الخليفة
بلى إن بالمرصاد سلطان قائم	بقسط وحكماً لا يرد بقوة
رعى ملكه عدلاً وفضلاً بلا يد	تدافع ما يقضي به من قضية

إلهي لم يعجز نكيرك عنهم وإن أمهلتهم حكمة الأجلية
أغث عزة التوحيد وحيأ بقصمهم كستك اللهم في شر أمة
ومما يندرج تحت هذه الفئة أيضاً قول البهلاني في «فاتحة الدعوة» التي
تشمل ستة وستين بيتاً مخصصة لـ «اسمه هو جل جلاله» (ص ص ٣٧-٤٢):
«هو الله باسم الله يا رب لا تدع لأمارتي بالسوء نقطة خيرة»

(ص ٤١)

الذي لا يكتفي فيه فقط باستحضار المعنى القرآني الذي تشير إليه الآية
٥٣، من سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، ويؤكد
من إقرار امرأة العزيز بأنها فعلت ما فعلت بسبب من هذه النفس الضعيفة
التي اختارت طريق إغواء سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ
رَأَوْتَنِي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ
حَصَحَّ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣].

بل نراه كذلك يبنى على هذا المعنى ويطوره، فإذا ما كانت النفس أمارة
بالسوء، وإذا ما كان المرء يتبع أوامرها مخالفاً بذلك أوامر الله وملحقاً
باتباعه أوامرها الأذى بغيره من العباد، فإن البهلاني يود أن يحمي نفسه من
هذا الخيار الذي لا يرضي الله رب العالمين، وهكذا نراه يُسلم قياده طوعاً
وحباً لله عز وجل، ويجعل الخيرة فيما اختاره الله.

وهو في هذا منسجم تمام الانسجام مع روح الإسلام (مصدر أسلم أي
انقاد طوعاً وحباً) دين الله الذي يوده أن يسود في هذا العالم.

• وفئة ثالثة تقوم فسحة التناص القرآني فيها بتحويل المعنى القرآني

تحويلاً جذرياً بنقله من عالم إلى عالم نقيض من خلال وضع الممارسة الدالة المتماسكة، التي يتجسد فيها، في سياق دلالي جديد. ومع أن البيان الإلهي يظل، فيما ينطوي عليه من معنى أصلي، يمارس وظيفة الخلفية التي جرت الإشارة إليها سابقاً، وذلك بما يثيره في نفس القارئ من تضمينات وارتباطات وتداعيات (تندرج جميعاً في أفق التوقعات التي تثار في ذهنه إذ يفك رموز العلامة القرآنية) فإن الممارسة الدالة المتماسكة الجديدة سرعان ما تنعطف وعلى نحو جذري بكل ما أثارته هذه العلامة في نفس القارئ، لتمضي به إلى آفاق مباينة تماماً لآفاق التوقعات التي استثيرت في ذهنه للوهلة الأولى، وإذ يتنبه إلى هذا التباين الحاد بين آفاق التوقعات التي أثارها الإشارة القرآنية وبين ما يدخل فيه من فسحة دلالية جديدة فإن فضوله يستثار إلى درجة يمضي معها في جوس آفاق هذه الفسحة مستعيناً بالصوى التي يقدمها البهلاني في إنشائه الشعري، ومنقاداً بما تنطوي عليه من سحر وأسْرٍ ناجمين عن جدتها وخرقها لما ألفه سابقاً في قراءته لـ القرآن الكريم .

وعلى أي حال فإن تحليلاً موجزاً لمثال واحد من فسح التناص القرآني في إنشاء البهلاني الشعري كفيل ببيان هذه الآلية التي يلجأ إليها في استثارته الأولى لتوقعات قارئه السابقة ثم لانعطافه اللاحق بها على نحو جذري في مسار مباين تماماً لمسارها الأولي، وذلك بتقديم ممارسته الدالة المتماسكة الجديدة الموضوعية في سياق دلالي جديد.

يكتب البهلاني في مقدمة الأذكار:

نصبت لهم من تير الذكر معلما	وبوأتهم من أنفع الذخر مغنما
وصيرت نفسي خادماً لطريقة	بها هام أهل الله في الأرض والسما
فيا لرجال الحب والكأس مفعم	هلم اشربوا هذا المغني ترنما

عصرت لكم من خمرة الله صفوها فموتوا بها سُكراً فما السكر مأثماً
لقد هام أهل الاستقامة قبلنا بها فانتشوا بين الخليقة هَيْمًا
تراهم سكارى ينشر الجمع فهمهم ويطويه نور الفرق في أبحر العمى
ملأت لهم دني شراباً مروّقاً وحركت أوتاري فأنطقت أعجماً
وغنيت في شرب هم الرسل كلهم تقدّم إلى باب المليك مقدماً
(ص ٣٠)

من البين أن فسحة التناص القرآني (تراهم سكارى) تحيل القارئ على الآيتين الأولى والثانية من سورة الحج وهما:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢].

ومع أن المعنى القرآني كان قد سبق إلى تحويل دلالة السكر من خلال وضعه في ممارسة دالة متماسكة تجعله ينجم عن هول الموقف، موقف زلزلة الساعة، وما يتلوه من انتظار للحساب، فإن فسحة التناص القرآني في أبيات البهلاني بإحالتها القارئ على آية سورة الحج تشير في نفسه جملة من التوقعات والتضمنات والارتباطات والتداعيات التي تقترن عادة في ذهن القارئ بزلزلة الساعة التي جاء وصفها بتفصيل أوسع في سورة الزلزلة، ولكنها ما إن تطمئن إلى هذه الاستشارة التي رسمت ملامح آفاق توقعاته حتى تنعطف به انعطافاً حاداً إلى عالم غير عالم زلزلة الساعة، وغير عالم السكر الذي ألفه في حياته الدنيا عندما يرى من يعاقر ما حرّم عليه في مجالس اللهو والطرب، وهذا العالم هو عالم الذكر الصوفي الذي يقوده فيه أبو مسلم البهلاني بأذكاره التي هي خمرة المحب. صحيح أن البهلاني يتحرك ضمن الإطار التقليدي للشعر

الصوفي في الذات الإلهية في حديثه عن الخمرة والسكر والانشاء والغناء والشرب وغير ذلك، ولكنه من ناحية أخرى يضع كل ذلك في ممارسة دالة متماسكة مناقضة تماماً للممارسة الدالة المتماسكة التي نقرؤها في سورة الحج كما يتبين للمرء من الجدول التالي:

آية الحج	إنشاء البهلاني الشعري
لا يعرف أوانه الناس ولا يستشارون فيه	أوانه معروف والداعي إليه معروف
يمليه الخوف الشديد أو الفرق	يمليه الحب
عام/ يشمل الناس كلهم	خاص/ يضم أهل الاستقامة ومن يلي الدعوة من رجال الحب
غير إرادي	إرادي
السكر من هول الموقف	السكر نتيجة تناول الخمرة الإلهية التي هي الذكر

وإذا ما تجاوز بعض المفارقات والمبالغات التي تنطوي عليها فسحة التناص القرآني في أبيات البهلاني (هيام أهل الأرض والسماء بطريقته، أهل الاستقامة، الموت سكرًا، والسكر البعيد عن الإثم، وإنطاق الأعجمي، واصطحاب الرسل...) فإنه يتبين بوضوح مسعى البهلاني في إغراء القارئ أو إغوائه بطريقته التي يلقّعها بالغموض والسحر في آن معاً من خلال إشارته إلى طريقته التي هام بها أهل الله في الأرض والسماء، وحديثه عن خمرة الله التي تقترب عادة بالفردوس، وعن هيام أهل الاستقامة بهذه الخمرة، وعن قيام الجمع بنشر فهمهم الصوفي، وعن دَنِّه الذي يحوي صفو خمرة الله والشراب المرّوق والمرّوق، وعن عزفه الذي ينطق الأعجمي، وعن صحبة الرسل الذين يشكّلون مجلس شربه، ويقودون موكبه باتجاه

المليك في جو احتفالي يضم الخاصة، إن لم يكن خاصة الخاصة، ولكنه في الوقت نفسه مفتوح لكل راغب فيه بالدعوة التي يوجهها البهلاني لرجال الحب الذي يعدّ الشرط الوحيد للانضمام إلى الموكب، والشرب من خمرة الله التي عصر البهلاني صفوها وقدمها شراباً مروقاً (بفتح الواو المشددة وكسرهما)، والاستمتاع بالعزف والشرب والشرب، وتلك لعمرى دعوة يصعب مقاومتها، ولاسيما إن كانت ستتنزع من وجهته إليه من هول زلزلة الساعة وما يقترن بها من سكر ليس بالسكر وإنما هو فرق رؤية الأعمال الذي تحدّث عنه القرآن الكريم.

والخلاصة أن الآلية التي يتم بها التفاعل النصي بين البيان الإلهي والإنشاء البهلاني في هذه الفئة الثالثة يتحقق من تقديم ممارسة دالة متماسكة تستند إلى نظام علاماتي متماسك يتيح لها إنتاج الدلالة المطلوبة، والمباينة على نحو جذري للدلالة التي تتحرك أمامها في لوحة تشكل أرضيتها الممارسة الدالة المتماسكة للقرآن الكريم التي ينتجها نظام علاماتي متماسك مختلف. ولهذا التضاد بين الممارستين وبين النظامين سحره وأسرره اللذين سعى البهلاني إلى إقامتهما معلماً يهيم به أهل الله في الأرض والسماء.

صفوة القول:

وهكذا يتبين للباحث من خلال تحليل هذه الأمثلة التي تندرج تحت الفئات الثلاث لفسح التناص القرآني في الإنشاء الشعري لأبي مسلم البهلاني، أن طيف آليات تفاعل النصوص في أذكاره واسع، وأنه ينحصر بين تأكيد المعنى القرآني في طرف منه، وبين نفي هذا المعنى في الطرف الآخر، وينطوي على غنى وتنوع لافتين للنظر، وجديرين باستكشاف أوسع،

يتم من خلال تحليلٍ لأمثلة أكثر لم يتسع لها المقام الراهن، الذي أملى طبيعة الإسهام المتواضع لصاحب هذه السطور، والذي أراد مجرد ارتياد محدود لآفاق واعدة غير محدودة، تشكل عالم البهلاني المتألى بنور فريد، والمفعم بحبِّ سام في معارج العرفان، عالم وصفه البهلاني نفسه فيما كان يردده سؤالاً من الخالق وأي سؤال:

بنور وجهك يا نور السموات أشعل مصابيح عرفاني بمشكاتي
واملاً بحبك قلبي واجتذب رمقي من بين أبحر أوهامي وغفلاتي

* * *

المصادر والمراجع

بالعربية:

- القرآن الكريم؛
- رياض الصالحين، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، (دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢).
- نصوص النقد الأدبي: اليونان، الجزء الأول، الدكتور لويس عوض، (دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥).
- النفس الرحماني في أذكار أبي مسلم البهلاني، ناصر بن سالم بن عديم البهلاني، (مكتبة مسقط، مسقط، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠١م).
- ورد أقل: شعر، محمود درويش، (دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦).

بالإنكليزية:

- Barthes, Roland, **The Rustle of Language**, Translated by Richard Howard (Blackwell, Oxford, 1986).
- Culler, Jonathan, **The Pursuit of Signs: Semiotics, Literature, Deconstruction** (Routledge and Kegan Paul, London, 1981).
- Kristeva, Juli, **Revolution in Poetic Language**, Translated by Margaret Waller, with an Introduction by Leon S. Roudiez (Columbia University Press, New York, 1984).
- Russell, D. A. and M. Winterbottom (editors), **Classical Literary Criticism**, (Oxford University Press, Oxford, 1989).
- Russell, D. A. and M. Winterbottom (editors), **Ancient Literary Criticism: The Principal Texts in New Translation**, (The Clarendon Press, Oxford, 1972).
- Worton, Michael and Judith Still (eds) **Inter textuality: Theories and Practices** (Manchester University Press, Manchester and New York, 1990).

* * *

المقامات القرناصية

جمعها وقرأها وحقّقها

د. وليد السّراقبي (*)

د. محمد السّراقبي (**)

المقامات فن أدبي له أصوله وقواعده، وله أعلامه الذين عُرفوا به وعُرف بهم، أمثال بديع الزمان الهمذاني، والزمخشري، والحريري من المتقدمين، والسيوطي من المتأخرين. وهذا البحث الذي نقدمه إلى قرائنا الكرام يهدف إلى التعريف بإيجاز بأحد البيوتات العريقة في مدينة حماة على مدة خمسة قرون، وإضاءة جانب من نشاطه الأدبي، ذلكم هم (آل قرناص)، الذين لم تمتد - في حدود علمنا - يد إلى جمع تراثهم الأدبي، شعره ونثره، ودّرّسه وتوثيقه ليكون مرآة لتلك المدينة في عصر الدول المتتابعة.

وقد وقفنا في أثناء عملنا في جمع تراث هذا البيت العلمي على بعض النصوص التي تندرج تحت فن المقامات، آثرنا نشرها منفصلة عن المجموع الشعري، ذلك أننا أخلصنا الأول منهما للشعر ودراسة موضوعاته وخصائصه الفنية، فكان وضعنا للنثر معه خلطاً بين فنين متباعدين، ولا سيما أننا سمّينا الأول

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية - جامعة البعث.

(**) دكتوراه في العلوم الزراعية.

(شعر بني قرناص). يضاف إلى ذلك أن نثرهم ليس بالكثير الذي يقرون بشعرهم. أما النصوص التي عثرنا عليها فكانت لعلمين من أعلام البيت القرناصي، هما:

١. القاضي محيي الدين بن قرناص.

٢. تقي الدين بن قرناص.

وفيما يأتي ترجمة صاحبي النصوص:

١. محيي الدين بن قُرْنَاص: لم يُفرد أحد - فيما وقفنا عليه من المصادر - له ترجمة أسوة بغيره من بني قُرْنَاص، فلا نعلم حقيقة تاريخ مولده، أو اسمه، أو نسبه، وما هي إلا محاولات في استنباط اسمه بناء على ما ورد في كتب التراجم والأدب وغيرها من مصادر الشعر. فقد كانت تذكره مقتصرة على لقبه دون التصريح باسمه، على نحو ما فعل ابن إياس - الذي تفرّد بذكر وفاته - فقال: «وفي سنة ٦٨٥ هـ توفي الشيخ محيي الدين بن قُرْنَاص الحَمَوِيّ، وكان من فحول الشعراء، وله شعر جيد...»^(١)، واقتصر ابن فضل الله العمري على قوله: «ومنهم: ابن قُرْنَاص، محيي الدين، وهو من أهل حَمَاة»^(٢)، كما تفرّد الكتبي بذكر لقب لابن قُرْنَاص فقال: «ابن قُرْنَاص الدوباش»^(٣).

وأول إشارة إلى اسم (محيي الدين) كانت ما ذكره الذهبي^(٤) (ت ٧٤٨ هـ) - وهو الأقرب إلى عصر محيي الدين -، في ترجمة موفق الدين بن قُرْنَاص (٦٠٤ - ٦٨٠ هـ) على أنه ابن المُحَيِّي، فقال: «مُحَمَّد بن عَلِي بن هبة

(١) بدائع الزهور ١: ٣٥٦.

(٢) مسالك الأبصار ١٢: ٣٤٦.

(٣) فوات الوفيات ٢: ٩٤. والدوباش: فارسية الأصل، وتعني: المباشر والمشاور.

(٤) تاريخ الإسلام ٥٠: ٣٨٥، والمقفّي الكبير: ٦: ٣٦٦. وقد وهم محقق المقفّي الكبير بجعل وفاته (بعد ٦٥٧ هـ).

الله بن أحمد ابن هبة الله بن أحمد بن قُرْنَاص، الشَّيْخ مَوْفَّق الدِّين بن المَحْيِي بن قُرْنَاص». وعليه يكون اسم محيي الدين: (عَلِي بن هبة الله). إلا أنَّ ذلك لا يمكن الجزم به، لقلة القرائن، إضافة إلى أنَّ ذلك بدا بعيداً عن فترة وفاة محيي الدِّين التي نصَّ عليها ابن إياس، فبدا موقعه في شجرة النسب^(٥) التي أنشأناها غير متوافق مع مدة حياته وعصره.

ولعلَّ أوَّل تصريح باسم (محيي الدين) كانت ما ذكره ابن حبيب^(٦)، فقال: «الأديب محيي الدِّين أبو العباس أحمد بن قُرْنَاص الخَزَاعِي الحَمَوِي». ثم تبعه السيوطي فصرَّح باسمه ولقبه مرة فقال: «محيي الدِّين أحمد بن قُرْنَاص»^(٧)، ويتفق هذا مع الترجمة التي ذكرها المقرئزي^(٨) في ترجمة أبي الفضل، أو أبي العباس أحمد بن قُرْنَاص: «أحمد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد^(٩) بن علي بن هبة الله». فلعل محيي الدِّين (عَلِي بن هبة الله) الذي ذكره الذهبي إنما هو جدُّ محيي الدِّين بن قُرْنَاص الشاعر. ولأبي الفضل أو أبي العباس هذا شعر يشابه شعر محيي الدِّين بن قُرْنَاص في أسلوبه وصياغته وموضوعاته، ونُسبت بعض الأبيات إلى كليهما، فذهبنا إلى أنَّهما واحد.

وعليه فمحيي الدِّين بن قُرْنَاص هو^(١٠):

أحمد بن مَوْفَّق الدِّين مُحَمَّد بن محيي الدِّين عَلِي بن أبي البركات هبة الله بن

(٥) انظر شجرة النسب في: شعر بني قرناص: ٢٩٣.

(٦) درة الأسلاك: ق ٧٧/ب.

(٧) المرجح النضر: ق ٤٦/ب.

(٨) المقفَّى الكبير ١: ٦١٠-٦١١.

(٩) لم يذكر المقرئزي تاريخ وفاته. ولعلَّ تكرار (ابن محمد) زيادة أو سهو من الناسخ أو المحقق.

(١٠) انظر زيادة في التفصيل في: شعر بني قرناص: ٦١.

صفي الدين أحمد بن هبة الله بن أحمد بن علي بن الحسين بن مضعب بن زريق ابن أسعد، أبو الفضل، وأبو العباس، المعروف بابن قرناص، الحموي الخزاعي.

٢. تقي الدين بن قرناص (ت بعد ٨١٠ تقديراً^(١١)): ذكره ابن حجة وأورد له ثلاث قطع نثرية. ومجموع النصوص النثرية التي وقفنا عليها وجمعناها ووثقناها ستة: ثلاثة منها للقاضي محيي الدين بن قرناص رد في أولها على مقامة كتبها إليه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، موضوعها الارتحال ومفارقة الأوطان، والاعتراب عن الصحبة والإخوان. ومما يلاحظ على هذه القطع النثرية أنها تقوم على ما عرف به الشر العربي في ذلك العصر، من ازدواج في العبارة، أو مطابقة، واهتمام بالسجعة، واقتباس من آيات القرآن الكريم وغيره، وتوظيف ذلك في خدمة المعاني المرادة.

النصوص النثرية محيي الدين بن قرناص

- ١ -

كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر صورة مقامة وهي مما كتب به إلى محيي الدين بن القرناص الحموي، جاء في بدايتها: «حكى مسافر بن سيار قال: لما ألفت النوى عن الإخوان، وتساوت عندي الرحلة إلى بين تساوي الرحلة إلى الأوطان، وتمادت الغربة تحبوني أهوالها، فتزلزل بي الأرض زلزالها، وتخرج مني ومن أمثالي أثقالها، ولا إنسان يرى أراجي نفسي وأمالها، فيقول ما لها، ولا يشاهد ما هو أوحى لها، فتغدو وقد أوحى لها، حتى تقاذفت بي الأمصار، ومللت

(١١) لم نقف على ترجمة له.

الأسفار، مواصلاً فيها الدُّلجة بالغدوة والاعتماد بالإسفار، وغرني مع إيماني
تقليبي في البلاد، وتطلبي لتقويم عيشي المناد، وتحنني إلى الحُصول بإرم ذات
العِماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، فلبثت فيها أياماً وشهوراً، وددت لو كانت
سنينَ ودهوراً، وما بلد الإنسان إلا المُوافق^(١٢). فيينا أنا منها، وثلة من الأولين،
ومن الوافدين عليها في قليل من الآخرين، وبين سادات من كتبها وأصحاب
اليمين ما أصحاب اليمين، ونحن في نعمة بالإيواء من ظلها إلى ربوة ذات قرارٍ
ومعين، وإذا بداعي النفير قد أعلن مناديه، وارتجل ما ارتجز حاديه، فقلت:
المسير إلى أين؟ قالوا: إلى الأين^(١٣)! والسفر متى؟، فقيل: أتى...»^(١٤).

فأجابه عنها محيي الدين بن قُرناص بقوله^(١٥): «لما ظعن والدي
وقطنت، وتحرك للرحلة وسكنت، قلت لبُعده، وأرقت من بعده، ووجدت
غاية الأكم لفقده^(١٦)، فبقيت لا ألتدُّ بطعام ولا شراب، ولا آوي إلى أهل ولا
أصحاب، ولا أتخذ مكاناً في الأرض إلا ظهر سابع^(١٧)، ولا جليسا إلا

(١٢) تضمين لقول المتنبي:

وَمَا بَلَدُ الْإِنْسَانِ غَيْرُ الْمُوَافِقِ وَلَا أَهْلُهُ الْأَذُنُونَ غَيْرُ الْأَصَادِقِ

ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٣: ٦٣.

(١٣) الأين: الإغياء والتعب. التاج (أين).

(١٤) المقامة بتمامها في: كوكب الروضة: ٣٥٠-٣٥٤، والوافي بالوفيات ١٧: ١٣٧-١٤١.

وأورد الصفدي بين الرسالتين رسالة أخرى ضمنها السيوطي في الرسالة الأولى. انظر:

الوافي بالوفيات ١٧: ١٤١-١٤٣.

(١٥) كوكب الروضة: ٣٥٥-٣٥٨، والوافي بالوفيات ١٧: ١٤٣-١٤٧.

(١٦) في الوافي بالوفيات: (عند فقده).

(١٧) في كوكب الروضة: (في الدنيا إلا ظهر مسابح). السبحة: فرس للبي^٨، معدود من

جُملة خيله، وفرس آخر لجعفر بن أبي طالب. وفرس سابع: إذا كان حسن معدد اليدنين

في الجزية. التاج (سبح).

كِتَابًا، أَعَالِجُ لَوَاعِجَ الْأَشْوَاقِ، وَأَبُوحُ بِمَا^(١٨) أَجِدُ مِنَ الْفِرَاقِ، وَأَنُوحُ لِلوَزْقَاءِ
 حَتَّى تَعْدُو مَشْقُوقَةَ الْأَطْوَاقِ، وَحِينَ طَالَتْ شَقَّةُ الْبَيْنِ وَلَمْ تَتَفَصَّلْ، وَنَهَلَهَلَتْ
 خُيُوطُ الدَّمُوعِ تَتَقَطَّعُ تَارَةً وَتَتَوَصَّلُ^(١٩): [الطَّوِيلُ]
 لَبَسْتُ ثِيَابَ الْحُزْنِ وَهِيَ^(٢٠) جَدِيدَةٌ تَشْفُ عَلَى أَثْوَابِ صَبْرِي الْمُمَزَّقِ^(٢١)
 وَعَقَرْتُ سَوَائِمَ^(٢٢) الْأَمَالِ بَعْقَرِ دَارِي، وَلَزِمْتُ كِسْرَ بَيْتِي بِانْكَسَارِي^(٢٣)،
 يَتَزَايِدُ شَوْقِي وَيَتَنَاقَصُ صَبْرِي، وَتَتَسَّعُ هُمُومِي فَيَضِيقُ بِهَا^(٢٤) صَدْرِي، فَبَقِيتُ
 عَلَى ذَلِكَ مِنَ الزَّمَنِ^(٢٥) بُرْهَةً، لَا أَدْخُلُ فِي لَذَّةٍ وَلَا أَخْرُجُ فِي نُزْهَةٍ، إِلَى أَنْ
 شَامَتْ بَوَارِقُ الْبِيَارِقِ^(٢٦).....

(١٨) في الوافي بالوفيات: (لما).

(١٩) في كوكب الروضة: (خيوط الدموع المجمع تنقطع تارة وتارة تتوصل).

(٢٠) في الوافي بالوفيات: (رثى).

(٢١) البيت لمحبي الدين بن قرناص في: الوافي بالوفيات ١٧: ١٤٣، وكوكب الروضة: ٣٥٥.

وفي الوافي بالوفيات: (بشر ممزق). والبيت شعر بني قرناص، التتفة الشعرية رقم (٦١).

(٢٢) السَّوَامُ وَالسَّائِمَةُ: كُلُّ إِبِلٍ تُرْسَلُ تَرْعَى وَلَا تُعْلَفُ فِي الْأَصْلِ، وَالْجَمْعُ السَّوَامِ، وَالسَّوَامِ
 حَفِيفَةٌ عَلَى فَعَالٍ. التاج (سوم)، والمخصص ٣: ٢٨٨.

(٢٣) في كوكب الروضة: (لزمت كسر بيتي لفرطه انكساري).

(٢٤) في الوافي بالوفيات: (لها).

(٢٥) في كوكب الروضة: (الزمان).

(٢٦) في كوكب الروضة: (البيادق). شَامَ سَيْفُهُ يَشِيمُهُ: أَعَمَدَهُ، وَأَيْضًا: اسْتَلَّهُ، وَهُوَ ضِدُّ
 وَيُقَالُ: أَشَامَ الرَّجُلُ: إِذَا أَتَى الشَّامَ. التاج (شيم).

الْبَارِقَةُ: السَّحَابَةُ ذَاتُ الْبَرْقِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَلَأَلُ لَوْنُهُ فَهُوَ بَارِقٌ. وَيُقَالُ لِلْسَّيُوفِ
 بَوَارِقٌ. مقاييس اللغة (برق).

البيادق والبيادقة: الرجالة، وهم أيضاً أصحاب ركائب الملك والمتصرفون له.

مشارك الأنوار ١: ١٠٨.

والمفرد: البيدق: الدليل في السفر والجندي الراجل. البيروق: الراية، والجمع:

بيارق. المعجم الوسيط ١: ٥١، ٧٨.

الشَّرِيفَةَ^(٢٧) عِيُونَ الشَّامِ، فَتَوَجَّهَ لَخِدْمَتِهَا المَخْدُوم^(٢٨)، واثقاً^(٢٩) بِأَنَّ قَدْ هُزِمَتِ الأَحْزَابُ وَعُلبَتِ الرُّومُ^(٣٠)، لَكِنِ الحَزْمُ^(٣١) يُوجِبُ لِلقُلُوبِ أَنْ تَكُونَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا خَائِفَةً، وَالعَزْمُ يَقْتَضِي أَنْ تُوجَدَ رَاجِيَةً، وَكُلُّ فِرْقَةٍ لَمْ تُفَارِقِ الرِّكَابَ الشَّرِيفَ فِيهِ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ^(٣٢)، وَكُنْتُ بِتِلْكَ المَدَّةِ أُسْتَرِيحُ مِنَ الغُموِمِ^(٣٣) إِلَى النَّبْتِ العَمِيمِ^(٣٤)، وَأَسْأَلُ مِنَ أَلْقَاهُ مِنَ الوُفُودِ حَتَّى وَفَدَ النَّسِيمِ، فَخَطَرَ لِي فِي^(٣٥) بَعْضِ الأَيَّامِ أَنْ أَكْرَبُ بِطَرْفِ طَرْفِي^(٣٦) فِي مِيَادِينِ الفَضَا، وَأَنْ أَجْرَدَ سَيْفَ عَزْمِي لِقَطْعِ مُوَاصِلَةِ الهُمُومِ^(٣٧) فَإِنَّهُ مَعْرُوفٌ بِالمَضَا، فَخَرَجْتُ أُجِيلُهُ فِي مَسَارِي الغَمَامِ وَهُوَ يَتَمَطَّرُ، وَأَمِيلُهُ عَنِ مَحَالِّ الوَعُولِ، وَمَجَارِي السُّيُولِ، وَهُوَ لَطُولِ الجِمَامِ يَتَقَطَّرُ^(٣٨)، وَكَانَ فِيمَا يَجَاوِرُ المَدِينَةَ مِنَ الحَيْطِ^(٣٩) وَالغَيْطِ، جَبَل

(٢٧) الكلمة ليست في كوكب الروضة.

(٢٨) في كوكب الروضة: (توجه بخدمتها للخدموم).

(٢٩) في كوكب الروضة: (لتهزم بها الاضطراب وتغلب الروم).

(٣٠) اقتباس من قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص ٣٨: ١١]، وقوله

تعالى: ﴿عُلبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ [الرُّوم ٣٠: ٢-٣].

(٣١) في الوافي بالوفيات: (الجزم).

(٣٢) في الوافي بالوفيات: (وَأَنَّ يَتَحَقَّقَ أَنَّ فِرْقَهُ لَمْ يُفَارِقِ الإِسْلَامَ وَالرِّكَابَ الشَّرِيفَ هِيَ النَّاجِيَةُ).

(٣٣) في كوكب الروضة: (وكنتم بتلك المدة أستروح من همومي وغمومي).

(٣٤) العَمِيمُ: الطَّوِيلُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنَّبَاتِ، وَاعْتَمَّتِ الأَكَامُ بِالنَّبَاتِ وَتَعَمَّمَتْ. التاج (عمم).

(٣٥) ليست في كوكب الروضة.

(٣٦) في كوكب الروضة: (أكن طرف طرفي)، وهو تحريف.

(٣٧) في كوكب الروضة: (لقطع علائق العوائق).

(٣٨) في كوكب الروضة: (وأميله عن مجاري السيول وهو يتقطر). الجَمَامُ، والجِمَامُ: مَا

اجْتَمَعَ مِنْ مَاءِ الفَرَسِ. التاج (جمم).

(٣٩) في كوكب الروضة: (الخيط).

الحَائِطُ: البُسْتَانُ وَجَمْعُهُ حَوَائِطُ، وَالإِسْمُ الحَيْطُ. المصباح المنير ١: ١٥٦. =

يُسمى بالخَيْط^(٤٠)، يشاكل خَيْطَ الصُّبْحِ فِي امتداده، ويمائلُ جَنَاحَ الجَنحِ بِكَثْرَةِ ظلالِ نَجْمِهِ وشجرِهِ وَسَوَادِهِ^(٤١)، قَدْ شَمَخَ بِأَنفِهِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَشَقَّ السَّمَاءَ بِالطُولِ وَشَقَّ الأَرْضَ بِالْعَرْضِ، قَامَ الدَّوْحُ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ جَالِسٌ، وَتَبَسَّمَ البُلْبُجُ^(٤٢) فِي وَجْهِهِ وَهُوَ عَابِسٌ: [الطَّوِيل]

وَقَوْرٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي كَأَنَّمَا يُصِيحُ^(٤٣) إِلَى نَجْوَى وَفِي أُذُنِهِ يَمسحُ بِكَفِّ الثُّرَيَّا عَن أَعْطَافِهِ^(٤٥)، وَيَدِيرُ مَنْطِقَةَ الجوزاءِ عَلَى أَرَادِفِهِ، فَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَسْتَظِلَّ بِذُرُوتِهِ، وَأَسْتَظِلَّ مِنْ ذُرُوتِهِ^(٤٦)، فَدَعَوْتُ جَمَاعَةَ مِنْ أَصْحَابِي كُنْتُ فِي السَّفَرِ أَرَأَفْتُهُمْ، وَفِي الحَضَرِ لَا أْفَارِقُهُمْ^(٤٧)، قَدْ انْتَضَمُوا فِي المَوَدَّةِ انْتِظَامَ الدَّرِّ فِي الأَسْلَاقِ، وَاتَسَقَوْا فِي الصُّحْبَةِ اتِّسَاقَ الدَّرَارِيِّ^(٤٨) فِي الأَفْلاكِ. [الطَّوِيل]

- = الغَيْطُ وَالعَوْتُ: المُطْمَئِنُّ مِنَ الأَرْضِ الواسِعُ، وَمِنْهُ: العَوْطَةُ. اللسان (عوط).
- (٤٠) خَيْطُ: الخِيوطُ: أَطَمَ كان لَبْنِي سَوَادٍ عَلَى شَرَفِ الحرةِ شَرْقِي مَسْجِدِ القَبْلَتَيْنِ. وفاء الوفا ٤: ٧٥.
- وَجَبَلُ الخَيْطِ آخِرُ جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ الخَنْدَمَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: الخَنْدَامُ - جَمْعٌ - هِيَ جِبَالُ مَكَّةَ الشَّرْقِيَّةِ. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: ١١٥.
- (٤١) فِي كوكبِ الرُوضَةِ: (بكره طلالِ نَجْمِهِ وشجرِهِ الأَحْوَى وَسَوَادِهِ).
- (٤٢) فِي كوكبِ الرُوضَةِ: (الثَّلَج).
- البُلْبُجُ: الإِشْرَاقُ، وَالبُلْبُجَةُ، وَالبُلْبُجَةُ: ضَوْءُ الصُّبْحِ. التاج (بلج).
- (٤٣) فِي الوافيِ بالوفياتِ: (يُصِيحُ إِلَى نَحْوِي)، وَفِي كوكبِ الرُوضَةِ: (يُصِيحُ إِلَى نَحْوِي... وَقَرَأَ)، وَهُوَ تَصْحِيفٌ. أَصَاحَ لَهُ وَيُصِيحُ إِلَيْهِ: اسْتَمَعَ، وَأَنْصَتَ لِصَوْتِهِ. التاج (صيخ).
- الْوَقْرُ: ثِقَلٌ فِي الأُذُنِ، أَوْ هُوَ ذَهَابُ السَّمْعِ كُلِّهِ. التاج (وقر).
- (٤٤) البَيْتُ لابنِ خَفَاجَةَ فِي: ديوانه: ١٥٠، وَالدَّخِيرَةُ ٦: ٦٢٧.
- (٤٥) فِي كوكبِ الرُوضَةِ: (أَطْرَافِهِ).
- (٤٦) فِي الوافيِ: (ذُورَتِهِ)، وَفِي كوكبِ الرُوضَةِ: (وَاسْتَظَلَّ مِنْ ذُورَتِهِ)، وَهُوَ تَصْحِيفٌ. الدُّرُوزَةُ وَالدُّرُوزَةُ: أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ. اسْتَظَلَّ مِنَ الشَّيْءِ، وَبِهِ: تَطَلَّلَ. التاج (ذرى، ظلل).
- (٤٧) فِي كوكبِ الرُوضَةِ: (وَفِي الحَضَرِ أَلْأَزْمَهُمْ، فَقَلَّمَا أْفَارِقُهُمْ).
- (٤٨) الدَّرَارِيُّ: الكَوَاكِبُ العِظَامُ الَّتِي لَا تُعْرَفُ أَسْمَاؤَهَا. التاج (درا).

وَقَدْ كَثُرُوا عَدًّا وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ قَدِ اتَّفَقَتْ وَدًّا عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ^(٤٩)
يَتَبَارُونَ^(٥٠) إِلَى الْفَضَائِلِ كِتَابِي الْجِيَادِ، وَيَهْتَزُونَ إِلَى الْفَضَائِلِ اهْتِزَازَ
الصَّعَادِ^(٥١)، قَدْ تَجَنَّبُوا^(٥٢) الْمُشَاقَّةَ وَالْمُحَاقَّةَ^(٥٣)، وَالتَّزَمُوا بِشُرُوطِ الْمُوَافَقَةِ
وَالْمُرَافِقَةِ^(٥٤)، فَذَكَرْتُ لَهُمْ مَا خَطَرَ^(٥٥) لِي مِنَ الْعَزْمِ، فَكَلَّمَهُمْ أَشَارَ بِأَنَّ الْحَزْمَ
فِي الْجَزْمِ^(٥٦)، فَسِرْنَا وَالشَّمْسُ قَدْ رُفِعَتْ حُجُبُ^(٥٧) الظُّلَامِ عَنْهَا، وَقَدْ تَرَاءَتْ
لَنَا تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا جَانِبُ مِنْهَا. وَكُنَّا فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ الَّذِي قَدْ رَقَّ حُسْنًا وَرَاقَ
شَبَابًا، وَشَابَ عَارِضُهُ بِالزَّهْرِ عَلَى صَبَاً فَجَعَلَ لَهُ الظَّلَّ خِضَابًا، قَدْ اِكْتَسَتْ
أَرْضُهُ وَأَشْجَارُهُ، وَاسْتَوَتْ فِي الطَّيْبِ هَوَاجِرُهُ^(٥٨) وَأَسْحَارُهُ^(٥٩): [الوافر]

(٤٩) البيت لمحبي الدين بن قرناص في: الوافي بالوفيات ١٧ : ١٤٤، هو في شعر بني قرناص، التنفة الشعرية رقم: (٣٤).

(٥٠) في المصادر: (يتجارون)، ولعله تحريف، والتصويب اعتماداً على السياق.

(٥١) الصَّعَادُ: واحدها: الصَّعْدَةُ: القَنَاةُ الْمُسْتَوِيَّةُ الَّتِي تَنْبُتُ كَذَلِكَ، لَا تَحْتَاجُ إِلَى التَّثْقِيفِ. ومنها: الصَّعْدَةُ: الأَلَّةُ، وَهِيَ أَصْغَرُ مِنَ الْحَرْبَةِ.

(٥٢) في كوكب الروضة: (يتحاورون في أحاديث الفضائل، ويتبادرون في حل المشاكل وإيضاح الدلائل، وشرح المسائل، لكل مستوضح عنها ومسائل، قد تجنبوا...).

(٥٣) الْمُشَاقَّةُ: الْعِدَاوَةُ، وَالشَّقَاقُ: الْخِلَافُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، وَالْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ (شِقَاقًا) لِأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْ فَرِيقَتِي الْعِدَاوَةِ قَصِدُ شِقًّا. حَاقَهُ مُحَاقَةً: خَاصَمَهُ وَادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْحَقَّ، فَإِذَا غَلَبَهُ قِيلَ: قَدْ حَقَّهُ حَقًّا؛ وَالْحِقَاقُ وَالْمُحَاقَةُ: أَنَّ تَقُولَ: أَنَا أَحَقُّ، وَيَقُولُ أَوْلَيْكَ: نَحْنُ أَحَقُّ.

(٥٤) في كوكب الروضة: (ولزموا شروط المرافقة بالموافقة).

(٥٥) في كوكب الروضة: (عن).

(٥٦) في كوكب الروضة: (فما منهم إلا من رأى أن الحزم في التصميم على ذلك والحزم).

(٥٧) في الوافي بالوفيات: (رُفِعَ حِجَابُ).

(٥٨) الْهَاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ مَعَ الظُّهْرِ، أَوْ مِنْ عِنْدِ زَوَالِهَا إِلَى الْعَصْرِ، يُجْمَعُ هَاجِرَةٌ عَلَى هَوَاجِرٍ جَمْعًا مُكْسَرًا. التاج (هجر).

نَجِيبُ الْقَوْمِ وَصَاحُ الْمُحَيَا أَنْيْقُ الرَّوْضِ مَصْقُولُ الْأَدِيمِ^(٦٠)
فَلَمْ نَزَلْ^(٦١) نَمْرُ مَرَّ السَّحَابِ، وَتَقِفْ لِلتَّنْزِهِ وَقُوفَ السَّرَابِ، حَتَّى أَشْرَفْنَا
عَلَى وَاِدٍ لَا يُعْرِفُ قَعْرَهُ، وَلَا يُسَلِّكُ وَعْرَهُ، قَدْ نَزَلَ عَنِ سَمْتِ الْأُودِيَةِ وَالْبِقَاعِ^(٦٢)،
وَأَخَذَ فِي الانْحِطَاطِ نَظِيرَ مَا أَخَذَ جَبْلُهُ فِي الِازْتِفَاعِ^(٦٣)، وَقَدْ اسْتَدَارَ بِالْجَبَلِ
وَأَحْدَقَ، وَأَضْحَى لِعَالِي^(٦٤) سُورِهِ كَالْحَنْدَقِ، لَا يَسْلُكُهُ إِلَّا مَلَكٌ أَوْ شَيْطَانٌ، وَلَا
يَصِلُ إِلَى قَرَارَتِهِ وَلَا مِنْهَا^(٦٥) إِلَّا بِأَمْرَاسٍ^(٦٦) وَمِرَاسٍ أَشْطَانَ^(٦٧): [الوافر]
سَحِيقُ سَاخٍ فِي الْأَرْضِينَ حَتَّى حَكَى فِي الْعُمُقِ أُوْدِيَةَ الْجَجِيمِ^(٦٨)
وَلَا حَ الدَّوْحُ وَالْأَنْهَارُ فِيهِ فَخَلْنَا ثَمَّ جَنَاتِ النَّعِيمِ
وَعِنْدَمَا أَشْرَفْنَا عَلَيْهِ حَمَدْنَا التَّأْوِيْبَ لَا الشُّرَى^(٦٩)، وَرَأَيْنَا مَا لَمْ يُرِ بِشَعْبِ بَوَّانٍ^(٧٠)

- (٥٩) في كوكب الروضة: (وكنا إذ ذاك بفصل الربيع ... وشاب عارضه بالزهر على صبا فجعل له
الطل خضابا، قد اكتست أرضه وأشجاره، واستوت في الطبيعة جواهره وأشجاره).
(٦٠) البيت لمحيي الدين بن قرناص في شعر بني قرناص، التفتة الشعرية رقم (٨٤).
(٦١) في كوكب الروضة: (فلم يزل).
(٦٢) في كوكب الروضة: (والوهاد).
(٦٣) في كوكب الروضة: (في السمو على شوامخ الأطواد).
(٦٤) في كوكب الروضة: (بعالي).
(٦٥) (ولا منها): ليست في كوكب الروضة.
(٦٦) المرساة: الجبل، لتمرس قواه بعضها على بعض، والجمع: مرس، بغير هاء، وجمع الجمع: أمراس.
(٦٧) الشطن: الجبل الطويل الشديد القتل؛ والجمع: أشطان.
(٦٨) البيتان في: الوافي بالوفيات ١٧: ١٤٥، وكوكب الروضة: ٣٥٦. وهما في شعر بني
قرناص، التفتة الشعرية رقم (٨٣).
(٦٩) التأويب: السائر جميع النهار. الشرى: سائر الليل كله.
(٧٠) في كوكب الروضة: (واد). شعب بوان: بأرض فارس، وهو أحد المواضع المتترهة
المشتهرة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الأطيوار. معجم البلدان
١: ٥٠٣. والأبيات في ديوان المتنبي بشرح البرقوق ٤: ٣٨٣-٣٨٤.

وَلَا وَادِي الْقَرْيِ^(٧١)، فَأَجْمَعْنَا عَلَى التُّزُولِ إِلَى قَرَارِهِ، وَالْمَبِيتِ بِمَخِيمِ
أَشْجَارِهِ، فَتَحَدَّرْنَا إِلَيْهِ تَحَدَّرَ السَّيْلُ، وَنَزَلْنَا إِلَى بَطُونِ شَعَابِهِ عَلَى ظُهُورِ
الْخَيْلِ، وَلَمْ نَزَلْ تَارَةً نَهْوِي هُوِيَّ الْقَشَاعِمِ^(٧٢)، وَنَسَابِ آوَنَةَ انْسِيَابِ
الْأَرَاقِمِ^(٧٣)، إِلَى أَنْ انْقَطَعَتْ أَنْفَاسُنَا وَأَنْفَاسُ الْهَوَا^(٧٤)، وَاحْتَجَبَ عَنَّا عَيْنُ
الشَّمْسِ وَكَادَ يَحْتَجِبُ وَجْهَ السَّمَاءِ^(٧٥)، وَلَمَّا^(٧٦) بَلَّغْنَا مَتْنَهَا بِطَرِيقٍ غَيْرِ
مَسْلُوكِ، وَنَزَلْنَا كَمَا يَقُولُ الْعَامَّةُ إِلَى السَّيْدُوكِ^(٧٧)، إِذَا هُوَ وَادٍ يَذْهَلُ لِحُسْنِهِ
الْجَنَانِ^(٧٨)، وَكَأَنَّمَا هُوَ فِي الدُّنْيَا أَنْمُودَجِ الْجَنَانِ^(٧٩) وَقَدْ امْتَدَّتْ سَمَاوُهُ
غَصُونًا عِنْدَمَا هَبَّ الْهَوَاءُ، وَفَجَّرَتْ أَرْضُهُ عَيْونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ: [الوافر]

(٧١) وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة، سُمي وادي القرى لأن الوادي من أوله إلى آخره
قرى منظومة، ثم أصبحت كلها خراباً ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد.
معجم البلدان ٤: ٣٣٨.

(٧٢) الْقَشَعْمُ: الْمُسِنَّ مِنَ الرَّجَالِ وَالنُّسُورِ. التاج (قشعم).

(٧٣) الْأَرَقِمُ: أَخْبَثُ الْحَيَّاتِ وَأَطْلُبُهَا لِلنَّاسِ، أَوْ: مَا فِيهِ سَوَادٌ وَبَيَاضٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، وَالْجَمْعُ
أَرَاقِمُ. التاج (رقم).

(٧٤) فِي كَوْكَبِ الرُّوضَةِ: (الهِوَاءِ).

(٧٥) فِي كَوْكَبِ الرُّوضَةِ: (السَّمَاءِ).

(٧٦) فِي كَوْكَبِ الرُّوضَةِ: (فَلَمَّا).

(٧٧) سَيْدُوكُ: اسْمُ مَلِكِ الْجِنِّ. وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَلْقَبُ بِ(سَيْدُوكِ): عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ حَامِدِ
الْوَاسِطِيِّ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصْرِيُّ: «أَخْبَرَنِي سَيْدُوكُ الشَّاعِرُ: قَالَ لِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَهَلَّبِيُّ،
وَقَدْ امْتَدَحْتَهُ لِمَا وَزَّرَ، لِمَ تَسْمِيَتُ بِسَيْدُوكِ؟ فَقُلْتُ: لِأَنَّهُ اسْمُ رَئِيسِ الْجِنِّ، وَأَنَا رَئِيسُ
الشُّعْرَاءِ. فَقَالَ: أَفْتَدْرِي لِمَ سَمِّيَ سَيْدُوكُ رَئِيسَ الْجِنِّ بِهَذَا الْاسْمِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: بَلَّغَنِي
أَنَّهُ إِنَّمَا سَمِّيَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ فِي الْجِنِّ قَبِيلَةَ يُقَالُ لَهَا: هَلُوكُ، وَهُوَ سَيْدُهَا، فَاسْتَقْبَلُوا أَنْ
يَقُولُوا: سَيْدُ هَلُوكُ، فَخَفَّفُوهَا، فَقَالُوا: سَيْدُوكُ». نشوار المحاضرة ٨: ١٧٥.

وقوله: «نزلنا إلى السيدوك»: يعني نزلنا إلى القاع.

(٧٨) الْجَنَانُ: الْقَلْبُ. يُقَالُ: مَا يَسْتَقَرُّ جَنَانُهُ مِنَ الْفَرَجِ، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّ الصَّدْرَ أَجَنَّهُ.

(٧٩) فِي كَوْكَبِ الرُّوضَةِ: (وَكَأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا أَنْمُودَجٍ لِمَا وَعَدَ بِهِ الْعِبَادُ مِنَ الْجَنَانِ).

فَبِنْنَا وَالشُّرُورُ لَنَا سَمِيرٌ وَمَاءَ عَيْونِهِ الصَّافِي مُدَامٌ
يُساورُهُ النَّسِيمُ إِذَا تَغَنَّتْ حَمَائِمُهُ وَيَسْقِيهِ الغَمَامُ^(٨٠)

وَلَمَّا طَلَعَ الصَّبَاحُ عَلَيْنَا طَلَعْنَا، وَدَعَا دَاعِي الشُّرُورِ^(٨١) فَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا،
وَتَعَلَّقْنَا بِذَيْلِ الجَبَلِ^(٨٢)، [وَدَرَجْنَا فِيهِ مَدْرَجَ الدَّرَارِيحِ وَالْحَجَلِ^(٨٣)] ^(٨٤)، وَشَقَقْنَا
فُرُوجَ المَسَاهِبِ^(٨٥)، وَعَلَوْنَا عَاتِقَهُ حَتَّى كِدْنَا نَلْمَسُ عَلَيْهِ عُقُودَ الكَوَاكِبِ، وَلَمَّا
طَرْنَا إِلَيْهِ طَيْرَانَ البُرَاةِ إِلَى الأَوْكَارِ، وَصَعَدْنَا عَلَيْهِ صُعودَ السُّرَاةِ عَلَى الأَكْوَارِ^(٨٦)،
تَكَشَّفَ للعينِ وَتَكَسَّفَ، فَقَلَّتْ لَهَا مُجَاوِبًا وَمُنْصَفًا: [المتقارب]

إِذَا كُنْتَ فِي اللَّيْلِ تَخْشَى الرَّقِيبَ بَ لِإِنَّكَ كَالْقَمَرِ المُشْرِقِ^(٨٧)
وَكَانَ النَّهَارُ لَنَا فَاضِحًا فَبِاللَّهِ قُلْ لِي: مَتَى نَلْتَقِي؟

فَقَالَتْ: إِذَا جَنَحَتْ شَمْسِي لِلْمَغِيبِ، فَيَاكَ أَنْ يَرَى طَيْفِي مِنَ النُّجُومِ رَقِيبَ،

(٨٠) البيتان في شعر بني قرناص، التتفة الشعرية رقم (٧٩).
(٨١) في كوكب الروضة: (الرحلة).
(٨٢) في كوكب الروضة: (الحبل).
(٨٣) الدُّرَّاج: طائرٌ شبيهٌ بالْحَجَلِ وَأَكْبَرُ مِنْهُ، أَرْقَطٌ بَسَودَ وَبَيَاضٍ، قَصِيرُ المِنْقَارِ، يُطَلَّقُ عَلَى
الدَّكْرِ وَالْأُنْثَى، وَالجَمْعُ (دَرَارِيحُ)، وَاحِدُهُ (دَرَّاجَةٌ). الحَجَلُ: طائرٌ فِي حِجْمِ الحَمَامِ.
حياة الحيوان الكبرى ١: ٤٦٦، والتاج (درج، حجل).
(٨٤) زيادة عن كوكب الروضة. هنا ينتهي النص المشترك مما أورده السيوطي بقية المقامة، والبقية
- من رسالة ابن قرناص - التي أوردها السيوطي في (كوكب الروضة)، إنما هي الجزء الأخير
من رسالة ابن عبد الظاهر، وقد أوردها الصَّفْدي في: الوافي بالوفيات ١٧: ١٤٠-١٤١.
(٨٥) الشُّهُوبُ: الواسِعَةُ مِنَ الأَرْضِ. وَالمُسْهَبَةُ: العميقة التي لَا يُدْرِكُ قَعْرَهَا.
(٨٦) بُرَاةٌ: جمع البازي. السُّرَاةُ: جَمْعُ السَّارِي، وَهُمُ الَّذِينَ يَسْرُونَ بِاللَّيْلِ. الكُورُ: الرَّحْلُ، أَيْ
رَحْلُ البَعِيرِ، أَوْ هُوَ الرَّحْلُ بِأَدَاتِهِ، كَالسَّرَجِ وَآلَتِهِ لِلْفَرَسِ؛ وَالجَمْعُ: أَكْوَارٌ وَأَكُورٌ.
(٨٧) البيتان لداود بن مقدم بن ظفر المحلي في: خريدة القصر ٢: ٤٦، (قسم شعراء مصر)
وفيه: (إِذْ أَنْتَ كَالْقَمَرِ).

أَوْ يَشُوبُ شَبَابَ ذَلِكَ اللَّيْلِ مِنْ أَضْوَائِهَا مَشِيبٌ، وَعَلَيْكَ بِسَوَادِ الْجَفُونِ فَكَوْنِ مِنْهُ
لَيْلًا، وَسُوْدِيَاءِ الْقُلُوبِ فَاسْدُلْ مِنْهُ ذِيلاً، وَانْتَظِرْ^(٨٨) زِيَارَةَ الطَّيْفِ، وَلَا تَجْعَلْ غَيْرَ
رُوحِكَ قِرَى ذَلِكَ الضَّيْفِ، فَأُبْتُ إِلَى فَهْمِي^(٨٩)، وَرَاجِعِي حِلْمِي، وَأَهْدِيْتُ إِلَيْهَا
لَيْلًا مِنَ الْمَدَادِ اسْتِزِيرُ فِي جَنَحِهِ طَيْفَ خِيَالِهَا، وَأَسْتَطْلِعُ فِي غَسَقِهِ بَدْرَ كَمَالِهَا،
وَجَعَلْتَهُ كَخَافِيَةِ الْعُرَابِ، وَكشِعَارِ الشَّعْرِ أَيَّامَ الشَّبَابِ. [السريع]

كَأَنَّمَا قَدْ ذَابَ فِيهِ اللَّمَى أَوْ حَلَّ فِيهِ الْحَجْرُ الْأَسْوَدُ^(٩٠)
تَعْدُو جَفُونِ الْأَقْلَامِ كَحِيلَةٍ بِإِثْمِهِ^(٩١)، وَوَجُوهِ السُّودِ مَبِيضَةً بِأَسْوَدِهِ:

[السريع]

يَقُولُ مَنْ أَبْصَرَهُ حَالِكًا هَذَا لَعْمَرِي هُوَ مِنْ حَالِكَا
أَوْ ذَاكَ مِنْ حَظِّكَ بَيْنَ الْوَرَى قُلْتُ: صَدَقْتُمْ إِنَّهُ ذَلِكَا^(٩٢)

وَقَدْ خَدَمَ بِهِ أَمَلًا أَنْ يَسْتَنْشِقَ لَعْبِيرَهُ نَشْرًا عَطْرًا، وَيَرَى لِلِيلِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ
صُبْحًا مُسْفِرًا، وَيَشَاهِدُ بَدْرَ الْفَضَائِلِ كَيْفَ يَرِقُّ فِي حِلْلِهِ، وَالبَلَاغَةَ كَيْفَ
تَعْدُو مِنْ تَحْيِيلِهِ وَخَوْلِ، فَحِينِيذٍ يُنْشِدُ^(٩٣):

[السريع]

(٨٨) في الأصل: (وانتظار)، ولا تتفق مع السياق.

(٨٩) تضمين لقول تأبط شرًا في شعره: ٨٩:

فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدْتُ آيًّا وَكَمْ مِثْلَهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفِرُ

(٩٠) اللَّمَى: سُمْرَةٌ فِي الشَّفَةِ تُسْتَحْسَنُ. والبيت لابن قادوس في وصف كتاب، وهو مع بيت

آخر في: فوات الوفيات ٤: ١٠١، وعيون الروضتين ١: ٣٣٠، وفيه:

مِدَادُهُ فِي الطَّرْسِ لَمَّا بَدَا قَبْلَهُ الصَّبُّ وَمَنْ يَزْهَدُ

(٩١) الإِثْمِدُ: حَجْرُ الْكُحْلِ، وَهُوَ أَسْوَدٌ إِلَى حُمْرَةٍ.

(٩٢) البيتان لمحبي الدين بن قرناص في: الوافي بالوفيات ١٧: ١٤٧. وهما في شعر بني

قرناص، التنفة الشعرية رقم (٦٦).

(٩٣) البيتان لأحمد بن إسماعيل نطاحة في: أدب الكتاب ١: ٤٧، ومن غير عزو في:

المنتحل: ١٠، ومحاضرات الأدباء ١: ١٣١.

أَصْلَحَتْ قَرْطَاسَكَ عَنْ حُسْنِهِ^(٩٤) أَشْجَارُهُ مِنْ حِكْمٍ مُثْمِرَةٍ
مُسْوَدَّةٌ نَقْشًا وَمُيَبَّضَةٌ طَرَسًا^(٩٥) كَمَثَلِ اللَّيْلَةِ الْمُقْمِرَةِ
والرأي أعلى في إجابة ما التمسه^(٩٦).

- ٢ -

ومن نثره قوله^(٩٧):

«وسارَ في فُرسانٍ كالأُسُودِ، إِلَّا أَنَّ بَرَاثِنَهَا السَّلَاحَ، وَجُنُودٍ^(٩٨) كَالطَّيُورِ، إِلَّا
أَنَّهَا تَسْبِقُ الرِّيَّاحَ^(٩٩)، حَتَّى أَتَى فُلَانَتَهُ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا نَوْبَ (الْيَزِكِ)^(١٠٠)، لِلْمُخَايَلَةِ لَا
لِلْمُخَاتَلَةِ، وَانْتَظَرَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِ صَاحِبُهَا مُتَضَرِّعًا، أَوْ يَقْصِدَ إِلَيْهِ مُتَخَضِّعًا، لِأَنَّهُ
إِنَّمَا قَصَدَهُ غَضَبًا لِلَّهِ^(١٠١)، لِمَا انْتَهَكَهُ مِنْ مَحَارِمِهِ، وَإِقَامَةً لِمَنَارِ الْعَدْلِ^(١٠٢) الَّذِي
شَرَعَ فِي هَدْمِ مَعَالِمِهِ؛ وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ الَّذِينَ بَسَطَ عَلَيْهِمْ مِنْذُ^(١٠٣) وَلِيهِمْ

(٩٤) في أدب الكتاب والمنتحل ومحاضرات الأدباء: (عن جنّة).

(٩٥) في أدب الكتاب: (سطحاً ومبيضة أيضاً)، والمنتحل: (سطحاً ومبيضة أرضاً).

(٩٦) أقول: هنا ينتهي نص رسالة محيي الدين بن قرناص كما أورده الصّفدي.

(٩٧) لمحيي الدين بن قرناص في: مسالك الأبصار ١٢: ٣٤٦-٣٤٧. وهي لنصر الله بن بزاقة في مفرج الكروب ٥: ٢٠، ضمن رسالة طويلة ذكرها ابن واصل. مفرج الكروب ٥: ١٩ وما بعدها.

(٩٨) في مفرج الكروب: (وخيول).

(٩٩) في مفرج الكروب: (تسبق الرياح بلا جناح). وبعدها: (برائتها السلاح، وخيول كالطيور إلا أنها تسبق الرياح بلا جناح، وأنهم أحاطوا بها إحاطة الخواتم بالخنصر والمناطق بالخصور، وأظهروا بما أبدوه من قدرتهم ما في خصمهم من العجز والقصور. وأنه رتب عليها نوب اليزك).

(١٠٠) اليزك: طلائع الجند. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦٤.

(١٠١) في مفرج الكروب: (وانتظر من صاحبها أن يخرج إليه خاضعاً ومتضرعاً، وأن يفد إليه تائباً عما ارتكبه من قبح السيرة ومقلعاً، لأنه - أعز الله أنصاره - لم يقصده إلا غضباً لله).

(١٠٢) في مسالك الأبصار: (وأقامه لما رأى العدل).

(١٠٣) في مفرج الكروب: (لما).

أيدي مَظالمِهِ؛ فَلَمَّا أبى إِلَّا الطُّغْيَانَ، وَالتَّمَادِي فِي مَهَالِكِ العَصِيَانِ، وَاغْتَرَّ بِأَصْحَابِهِ^(١٠٤) الَّذِينَ هُم مَعَهُ بِأَجْسَامِهِمْ وَعَلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَوَثِقَ بِرَعَايَاهِ الَّذِينَ كَانُوا أَوْقَعُوا^(١٠٥) مَعَهُ بِذُنُوبِهِمْ، فَلَصِقَ الْجَيْشُ الْمَنْصُورُ بِالسُّورِ الْمَقْهُورِ، فَذَنَا وَتَدَلَّى، وَرَأَى الْخِصْمَ عَيْنَ الْقِصْمِ، فَعَبَسَ وَتَوَلَّى^(١٠٦)، فَكُشِفَتِ السُّتُورُ^(١٠٧)، وَهْتِكَتْ حُجْبَةُ، وَتَبَرَّجَ كُلُّ بَرَجٍ^(١٠٨) فَحَسَرَ الزَّرَاقُونَ^(١٠٩) لثَامَهُ، وَأَمَاطَ النِّقَابُونَ نِقَابَهُ، وَطَلَعَتْ^(١١٠) عَلَى الْأَسْوَارِ الْمَنِيفَةِ مِنَ الْأَعْلَامِ الشَّرِيفَةِ كُلِّ رَايَةٍ صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ، وَأَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

- ٣ -

وكتب رسالة إلى القاضي تاج الدين بن الأثير، يقول فيها^(١١١):
«وَإِذَا سَطَرَهَا مُتَهَجِّمًا، كَانَ وَجْهَ الْأَفْقِ بِالْغَيْمِ مُتَّجِهًا، وَتَغْرُ (حَمَاة)

(١٠٤) في مفرج الكروب: (فلما أبى إلا التماذي في الطغيان والإيغال في مهالك العصيان، وظن أن الثلوج تنجده، وأن الشيطان يفي له بوعدته وطالما أخلف من بعده، واغتر بأصحابه).

(١٠٥) في مسالك الأبصار: (وقعوا).

(١٠٦) اقتباس من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عَبَسَ ٨٠: ١].

(١٠٧) في مفرج الكروب: (فعبس وتولى، وأطلق الجاليس عقائل التراكيش، فكشفت...).

التراكيش: جمع تركاش، وهو لفظ فارسي، معناه الجعبة أو الكنانة التي توضع فيها

النشاب. [نقلاً عن حاشية مفرج الكروب ٥: ٢١].

(١٠٨) (وتبرج كل برج): ليست في مفرج الكروب.

(١٠٩) في مفرج الكروب: (وأماط الزراقون). الزراقون: جمع زراق وهو رامي النفط من

الزرافة. [نقلاً عن حاشية مفرج الكروب ٥: ٢١].

(١١٠) في مفرج الكروب: (وسفر النقبون نقابه، وأرسلت عليهم الجنايا رسل المنايا،

وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح الشرع مشارع الحتوف،

وتفرقت منهم الصفوف لما صلت عليهم السيوف، وطلعت...).

(١١١) كوكب الروضة: ٣٦٤، ونصرة الثائر: ٢١٦، وبعضها في: مسالك الأبصار ١٢: ٣٤٧.

بالتلج مُبَسِّمًا، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهَا السُّكُونُ، حَيْثُ شَابَتْ مِنْهَا الْقُرُونُ، وَكَانَ (١١٢)
 الْمَمْلُوكُ مُشْرِفًا عَلَى مَكَانٍ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ (١١٣)، وَالذَّوْحُ يُقَلَّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ
 مِنْ عُمْرِهِ، وَقَدْ تَزَهَّدَ فَتَجَرَّدَ مِنْ حَرِيرِ أَوْرَاقِهِ (١١٤)، وَلَبَسَ قُطْنَ زَهْرِهِ، فَلَا تَرَى إِلَّا
 أَشْجَارًا (١١٥) قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا، وَكُزُومًا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، وَسَقِيطَ ثَلَجٍ
 كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (١١٦)، وَجِبَالٍ غَيُومٍ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، وَالْأَرْضُ هَامِدَةٌ
 خَاشِعَةٌ، وَالْأَغْصَانُ وَالْحَيْطَانُ بِالْغَيْطَانِ لِرَبِّهَا سَاجِدَةٌ وَرَاكِعَةٌ، وَكَانَ قَدَمَ عَلَيْهَا
 وَالرَّبِيعُ فِي إِقْبَالِ شَبَابِهِ، وَالذَّوْحُ قَدْ تَلَبَّسَ مِنَ السُّنْدُسِ حِلَلَ ثِيَابِهِ، وَقَدْ تَوَشَّحَتْ
 قَامَاتُ غُصُونِهِ بِعُقُودِ سَحَابِهِ، وَالتَّهْرُ يُنْسَمُ إِلَيْهَا مِنْ سُرُورِهِ، وَيَلَاطِفُهَا بِعِتَابِ
 عُبَابِهِ وَخَرِيرِهِ، وَلَا يَكَادُ يُخْفِي عَنْهَا مَا فِي ضَمِيرِهِ، وَهِيَ تَطُولُ عَلَيْهِ بَدَلَالِهَا،
 وَتَمِيلُ عَنْهُ بِوَصَالِهَا، وَهُوَ رَاضٍ بِتَحِيَّاتِ نَسِيمِهَا، قَانَعٌ بِطَيْفِ خِيَالِهَا. [الخفيف]
 حَسَنٌ مَا رَأَيْتُ مِنْ فِعْلِ نَهْرٍ إِذْ هَوَاهُ الْغُصُونُ يَجْرِي إِلَيْهَا
 فَهَوَ مِنْ فَرْطٍ وَجَدَهُ إِذْ يَرَاهَا شَامِحَاتٍ يَخْرُ بَيْنَ يَدَيْهَا (١١٧)

فَتَمَشَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ النَّسِيمِ حَتَّى اسْتَعَطَفَهَا عَلَيْهِ، وَمَا بَرَحَ بِهَا إِلَى أَنْ
 مَيَّلَهَا بَعْدَ الْمِيلِ عَنْهُ إِلَيْهِ، وَبَلَغَ فِي اجْتِهَادِهِ حَتَّى عَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَتَى الرَّوْضَ
 وَقَدْ طَافَتْ بِهِ كُؤُوسٌ نَدَاهُ، فَشَرِبَ حَتَّى سَقَطَ فِي النَّهْرِ، وَابْتَلَّ رِدَاهُ، ثُمَّ قَامَ مِنْ
 سُكْرِهِ يَبُوحُ بِسَرِّهِ الْمَصُونِ، وَكَلَّمَا تَعَثَّرَ بِأَذْيَالِهِ تَمَسَّكَ بِأَكْمَامِ الْغُصُونِ.

(١١٢) من هنا يبدأ النص في كوكب الروضة، وما قبله من نصرة الناثر.

(١١٣) في نصرة الناثر: (بثمر).

(١١٤) في كوكب الروضة: (وقد تزهّد من حرائر أوراقه).

(١١٥) في مسالك الأبصار: (فلم تر إلا شجرة). ومن هنا إلى (كالعهن المنفوش) ما ذكره في مسالك الأبصار.

(١١٦) في مسالك الأبصار: (وسقيط البلح المبتوث)، وفي كوكب الروضة: (وسقيط مطر).

(١١٧) البيتان لمحبي الدين بن قنّاص في شعر بني قنّاص، التفتة الشعرية رقم (٩٨).

فَحيثُ أجالَ المَمْلوكُ في هَذا الدَّوحِ فِكْرا، ورَأى به ما رَأى مِنْ آياتِ رَبِّه
الكُبْرى، آثَرُ أن يُتَحَفَ الحَاطِرَ الكَريمَ، بما أَعْجَبَهُ مِنْ هَذهِ العَجائبِ، ويُقَابِلَ
رَغائبَ إِحسانِهِ بما يُهْدى إِلَيهِ في هَذهِ الغَرائبِ، وَيَسْتَهْدِي طَرائِفَ مِنْ بحارِ
عُلومِهِ، وَيَسْتَجدي ما يروِيهِ مِنْ سَحائبِ مَثورِهِ البَديعِ الصَّنيعِ وَمَنْظومِهِ: [الكامل]
هُوَ مالِكٌ قَدْ أَصْبَحَتْ أَلْفاظُهُ حَلِيًّا على جِيدِ الزَّمانِ العاطِلِ
عَمَرَ الوَرى بِفَضائِلٍ وَفَواضِلِ حَتى أَعادَ لَهُمَ زَمانَ الفاضِلِ
وَكَانَ أَسطَرُهُ خِلالَ دُرُوجِهِ ظِلُّ الغُصونِ يُلُوحُ بَينَ جَدائِلِ»^(١١٨)

تقي الدين بن قرناص

- ٤ -

كَتَبَ القَاضِي تَقِيُّ الدِّينِ أبو بَكرِ بنِ قُرْناصٍ بَكتابَةَ سِرِّ حَماةِ
المَحروسَةِ دِيباجَةً قالَ فِيها:

«الحمد لله الذي مَتَّعَ بالدخولِ إلى الجَنَّةِ مَنْ كانَ تَقِيًّا، وَخَصَّ أبا بَكرٍ بِالتقديمِ
وَرَفَعَهُ مَكانًا عَلِيًّا، وَجَعَلَهُ خَليفَةَ مُحَمَّدٍ في مَدينَتِهِ لِيخِرَّ عاصِيها طائِعًا وَيُمسي قَلْبُهُ
بِالفرحِ مَليًّا. نَحْمَدُهُ على وَضَعِ الأَشياءِ في مَحلِّها، وَنَشكُرُهُ على الإِرشادِ في رَدِّ
الأَمانَةِ إلى أَهلِها. وَنَشهَدُ أنَّ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، شَهادَةً تُحسِنُ لَنا
العاقِبَةَ عَندَ عُقبى الدَّارِ. وَنَشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرِسالُهُ الَّذي هُوَ نِعمَ الدَّلِيلُ إلى
جَناتِ تَجرى مِنْ تَحتِها الأَنهارُ. صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تُرِينا
عاصِي المُحَمَّدِيَّةِ، وَقَدْ هَبَّتْ عَلَيهِ نَسَماتُ الطَّاعَةِ وَالقَبولِ في مَسراهِ، وَجَرَتْ بِهِ
سُفُنُ النِّجاةِ وَمِشاهُ النُّجْحِ على الشَّرِيعَةِ وَحَماهِ، وَسَلَّمَتِ سَليمًا»^(١١٩).

(١١٨) الأبيات في شعر بني قرناص، التنفة الشعرية رقم (٧٣).

(١١٩) قهوة الإنشاء: ٥٨.

- ٥ -

وَمِنْ إِنْشَائِهِ صَدْرُ تَوْقِيعٍ لِلْمُقَرَّرِ التَّاجِي فَضَّلَ اللَّهُ نَاطِرَ الدَّوْلَةِ (١٢٠) بِاسْتِيفَاءِ أَوْقَافِ الْمَقَامِ الشَّهِيدِ النَّاصِرِ حَسَنَ (١٢١) - سَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ - وَهُوَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَيْقَظُ لِدَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةَ نَاطِرًا عُرِفَ بِهِ فَضْلُ اللَّهِ، أَدَبُهُ فِي اسْتِيفَاءِ مَا دُوِّنَ فَظْفَرَ بِخِلَاصَتِهِ وَأَمْلَاهُ، وَأَطْلَقَ حُمْرَ أَقْلَامِهِ فِي مِيَادِينِ الْوَقْفِ الْحُسَيْنِيِّ فَحَوَى قَصَبَاتِ السَّبْقِ وَأَبْعَدَ مَدَاهُ» (١٢٢).

- ٦ -

وَمِنْهُ صَدْرُ مَسْمُوحِ الْخَوَاجَا إِبْرَاهِيمِ الْأَسْعَرْدِيِّ (١٢٣)، وَهُوَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ الْمُسَامِحِ، الْمُتَفَضِّلِ الَّذِي مَا بَرَحَ بُرْهَانَ فَضْلِهِ يُرْشِدُنَا إِلَى الدَّلِيلِ الْوَاضِحِ، الْوَاهِبِ الَّذِي رَفَعَ لِلْسَّمَاحِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ مَقَامًا مَنْ شَدَّ إِلَيْهِ الرَّحَالَ فَازَ بِالْمَتَجَرِّ الرَّابِحِ. نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَكُونُ لَنَا يَوْمَ الْعَرْضِ نِعْمَ التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا يَقُومُ لَنَا إِذَا تَحْتَمَّ الْوَاجِبُ بِالْمُسَامِحَةِ.

(١٢٠) تاج الدين فضل الله الرملي القبطي، ناظر الدولة. نشأ بالقاهرة وتقل في الخدم حتى ولي نظر الدولة حتى مات سنة ٨٢٦هـ وقد زاد على الثمانين، قال المقرئ: كَانَ مِنْ ظَلَمَةِ الْأَقْبَاطِ وَفَسَاقِهِمْ. انظر: النجوم الزاهرة ١٥: ١١٦، والضوء اللامع ٦: ١٧٣-١٧٤.

(١٢١) الناصر بن الناصر، حسن بن محمد قلاوون، الملك الناصر، ناصر الدين بن السلطان الملك المنصور قلاوون، ولد نحو ٧٣٠هـ، وولي السلطنة بعد خلع أخيه الملك المظفر سيف الدين حاجي سنة ٧٤٨هـ. مات مقتولاً سنة ٧٦٢هـ. ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٢: ١٦٦، والمنهل الصافي ٥: ١٢٥ وما بعدها.

(١٢٢) فهوة الإنشاء: ٥٨.

(١٢٣) إبراهيم بن مبارك شاه الأسعردى الخوارجا التاجر الشهير صاحب المدرسة الأسعردية بالجسر الأبيض بدمشق. كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ وَاسِعَ الْعَطَاءِ كَثِيرَ الْبَدَلِ. مَاتَ مَطْعُونًا فِي رَجَبِ سَنَةِ ٨٢٦هـ وَلَمْ يَكْمَلِ السُّتَيْنِ، وَدُفِنَ فِي مَدْرَسَتِهِ. ترجمته في الضوء اللامع ١: ١١٨. وانظر: الدارس في تاريخ المدارس ١: ١١٣.

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً تُقْبَلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَقِّ الْوَاجِبَةِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي
 يُسَامِحُ مَنْ شَدَّ الرَّحَالَ إِلَيْهِ وَيُظْهِرُ الْحَقَّ فِي مَتَجَرِهِ مَكَاسِبَهُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً هِيَ تُرْبِحُ الْمَتَّجِرَ فِي سَوْقِ الْمُسَامَحَةِ وَالْكَرَامَةِ،
 عِنْدَ مَنْ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي دَارِ
 الْمَقَامَةِ (١٢٤)، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا (١٢٥).

* * *

المصادر والمراجع

المطبوعة:

- أدب الكتاب، أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، نسخه وعني به: محمد بهجة الأثري، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٤١هـ.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس (ت ٩٣٠هـ)، تحقيق: محمد مصطفى، ط ١، دار فرانز شتاين للنشر، فيسبادن، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي

(١٢٤) اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة ٩: ١١١].

(١٢٥) قهوة الإنشاء: ٥٨-٥٩.

- (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: د. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، محمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ.
- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الكاتب الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ)، (قسم شعراء مصر)، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ديوان ابن خفاجة الأندلسي (ت ٥٥٣هـ)، تحقيق: د. السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.
- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي (ت ١٣٦٣هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن الشتريني (ت ٥٤٢هـ)، قسم شعراء الشام، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨١م.
- شعر بني قرناص في حماة وأخبار شعرائهم: جمع وتوثيق وتحقيق د. وليد السراقبي ود. محمد السراقبي، مؤسسة عبد العزيز البابطين، الكويت، ٢٠١٦م.
- شعر تأبط شرًا، تحقيق: سلمان داود القره غولي وجبار شعبان جاسم، النجف، ١٩٧٣م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة
الدمشقي (ت ٦٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الزييق، مؤسسة الرسالة،
بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- فوات الوفيات، ابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس،
دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٤م.
- قهوة الإنشاء، ابن حجة الحَمَوِيّ (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق: رودولف
فيسيلي، مطبعة درغام، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، جلال الدين السيوطي
(ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة،
ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت،
ط ٣، ١٤١٤هـ.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني
(ت ٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- المخصص، ابن سيده (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار
إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري
(ت ٧٤٩هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي
الحَمَوِيّ (ت نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
- معجم البلدان، ياقوت الحَمَوِيّ (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت،
ط ٢، ١٩٩٥م.
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث البلادي

- الحربي (ت ١٤٣١هـ)، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧هـ)، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٢م.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المقفّى الكبير، تقي الدّين المقرّيزي (ت ٨٥٤هـ)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- المتحل، الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، شرح: أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣٢١هـ/١٩٠٣م.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، جمال الدّين بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، حققه ووضع حواشيه: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدّين بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بلا تاريخ.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، أبو علي التنوخي البصري (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
- نُصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدّين الصّفديّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧١م.

- الوافي بالوفيات، صلاح الدّين الصّفديّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدّين السمهودي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

المخطوطة:

- دُرّة الأسلاك في دولة الأتراك، ابن حبيب الحلبي (ت ٧٧٩هـ)، نسخة مكتبة جامعة لايبزك، ألمانيا، رقم: ٦٦١.
- المرج النضر والأرج العطر، جلال الدّين السيوطي (ت ٩١١هـ)، نسخة مكتبة يعقوب نعوم شركيس، رقم ف ٢٦٨٣. ونسخة أخرى: مكتبة الحكمة، الدار العراقية، بغداد، برقم: ٦٢٠٧.

* * *

العربية واقع وآمال

د. محمد بسناسي (*)

توطئة:

ليست اللغة مجرد لسان ينطق به أهله بغية التواصل، ولكنها أيضاً الوعاء الذي يحتوي فكرهم، وفلسفتهم في الحياة. واللغة منظومة متكاملة تمنح أنساقاً للتعبير والتواصل، حسب الحال والسياس؛ فيدور المرء في فلك هذه المنظومة وهو متقيّد وفق نواميسها. «على الفرد أن يستجيب في النهاية للغة وقوانينها وسلطانها، فهو يوجد داخل اللغة، يتلفظ بها ويفكر بها»^(١). ويعتري اللغات ما يعتريها من حوادث تتصل بمصائر البشر، وتاريخهم المتقلّب دائماً؛ فلا ضير أن تشهد اللغة في صيرورتها محطات متباينة، إذ قد تبلغ الغاية من الألق والذويوع، فتصيب إذ ذاك قسطاً وافراً من الهيمنة والانتشار، كما قد يخبو وهجها، فيمسّها جانب من الفتور والخفوت.

وإنّ مسارات اللغات لا تتنظم على نسق واحد، ولا تؤوّل بالضرورة إلى المأل ذاته؛ فهناك لغات انبعثت من جديد بعد مواتها، وانقلبت حيّة ترزق كما هو شأن العبريّة، ولغات انقطع التواصل بها، ودخلت سجّل المحفوظات

(*) دكتور في الترجمة والمصطلحيّة - الجزائر.

(١) سامي أدهم، فلسفة اللغة - تفكيك العقلي اللغوي - بحث أبستمولوجي أنطولوجي، ص ١٥٣.

(الأرشيف) كالاتينية والإغريقية القديمة، ولغات حُلّت شفرتها، بفضل الترجمة، بعدما كانت ردحاً من الزمن جملة رموز مبهمّة، لا يفقه الدارس فيها معنى أو مبنى، وهذا ما يقال عن الهيروغليفيّة، ولغات سافرت في الزمان والمكان مسيرة تاريخيّة باهرة، وصمدت وبقيت متداولة كالعربيّة. وهناك بالمقابل لهجات ولغات تموت في صمت مطبق، وتندثر بالكلّيّة، لاسيّما تلك التي قناتها التواصلية الوحيدة لا تربو على المشافهة، وهناك لغات تتفرد بانتشار كوني، وتتصدر أخواتها مثلما تعرفه الإنجليزية من شأو في عصرنا الحاضر. «واللغات، كظواهر اجتماعيّة تنمو وتزدهر، وتضعف وتضمحل، يعترها ما يعترى الأحياء»^(٢).

ومسألة اللغة حيويّة، لما استعملت عبر التاريخ في نفتيت البلد الواحد، بتجزئته إلى أقاليم عديدة، وهذا شأن خريطة العالم السياسيّة منذ أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها إلى يومنا هذا، في حين أنّ بلدانا قويّة، على اختلاف ألسنتها، تزداد تكتلاً، وتعقد أحلافاً للبقاء في الرّيادة، حتّى يتسنى لها قيادة زمام الشعوب والأمم. وفي خضمّ العولمة التي مسّت أيضاً الأطلس اللغوي، خليق بنا التساؤل عن واقع العربيّة اليوم، وما هو مأمول تحقيقه للرقيّ بها لغةً فاعلة وعالميّة.

١- واقع العربيّة بين التعريب والتعليم:

لم يستتب للغة العربية ما هو مأمول من تعميم استعمالها قناة تواصل فاعلة ومؤثرة في جميع المجالات والاختصاصات، هذا ولئن قطعت مسألة التعليم في مختلف الأقطار العربيّة أشواطاً لا بأس بها، إنّ واقع الممارسة اللغويّة يُعرب عن محاولات تحاشي العربيّة في بعض الحقول المعرفيّة، كأنّ العرب

(٢) محيي الدين صابر، المجلة العربيّة للدراسات اللغويّة، ص ١٠.

أصبحوا يعانون انفصاماً زمنياً، في مسألة الهوية، وبالخصوص الهوية اللغوية. هذا مع كون «اللغة تمثل أقنوماً أساسياً في الوحدة الثقافية للعالم العربي»^(٣). فبعد استقلال البلدان العربية، تأرجحت قضايا التعريب من بلد لآخر، وكانت مبادرات التعريب تحت الوصاية السياسية في الغالب الأعم؛ أي طغى الجانب العقدي (الأيديولوجي) على الجانب المعرفي والمنهجي؛ فوقع تسرع أحياناً، وتباطؤ أحياناً أخرى، وانتهى المطاف إلى ترسيخ كل من الثنائية اللغوية (bilinguisme) والازدواجية اللغوية (diglossie)^(٤).

ونحن نعلم ما لأثر التاريخ من تراكمات إزاء «ترسيخ» هاتين الثنائيتين اللسانيتين، بل وتغلغلها في الواقع اللغوي العربي واستوطانها الوثيق، كما لا يمكن التغافل عن الدور السياسي الحاسم في تشكل تمثيلات الحالة اللغوية، إذ في سياقات كثيرة هو الذي قرّر التعريب، الذي يُقصد به ههنا إحلال العربية لغة تعليم في الأطوار التربوية المختلفة، واستعمالها كذلك في إدارات الدولة، ومؤسساتها، والسياسي هو الذي رسم حدوداً لهذه العملية، بحيث لا يمكن تجاوزها، وينطبق هذا الضرب من التعاطي مع التعريب في صورة مجلّوة على الحالة الجزائرية.

تلقف المثقفون والعلماء، والحال هذه، قرارات السياسي، كبقية أفراد الشعب، ولم تنشأ حركة فاعلة ومؤثرة، للمضي قدماً فيما يتصل بإشاعة استعمال العربية على نطاق أشمل وأوسع. وحتى جهود بعض الجماعات والأفراد والجمعيات المناضلة لتعميم العربية والدفاع عنها، لم تبلغ من

(٣) Gilbert Grandguillaume, Arabisation et politique linguistique au Maghreb, p. 12

(٤) الثنائية اللغوية كاستعمال الإنجليزية والفرنسية في كندا، والازدواجية اللغوية كاستعمال الفصحى والدارجة في الوطن العربي.

القوة ما من شأنه ممارسة ضغط إيجابي على السياسي، كما يسارع لتحقيق رغائب المثقفين والباحثين، وتطلعاتهم. واللافت أنه حتى تسميات وشعارات من قبيل «الدفاع عن العربية»، له من الدلالة ما هو غني عن البيان، إذ كيف يُحمى عرينها، ويُصرّح بذلك جهاراً نهاراً، وهي في ديارها، وبنص الدستور والقانون. إنّ هذا النوع من ردّات الفعل يَنمُّ على دوائر الضيق والغبن التي تلقاها العربية بين ذويها وأهلها.

لقد كانت مخلفات الحقبة الاستعمارية بادية في الأوساط العربية، إذ غداة استقلال أوطان البلاد العربية، بلغت مستويات الأمية والجهالة نسباً مرتفعة؛ فلا يعزب عن البال مثلاً أنّ «قانوناً في سنة ١٩٣٨ أعلنت بموجبه صراحة العربية لغة أجنبية في الجزائر»^(٥). لذلك انطلق مسار التنمية والبناء انطلاقاً عسيرة. يضاف إلى هذا تركة المستعمر الثقيلة، وتداعياتها المتوارثة من امتدادات لغوية وثقافية؛ فالفرنسية ما زالت تنعم باحتفاء مميز في بلدان المغرب العربي، مثلما تنبوا الإنجليزية مرتبة سامقة في بلدان المشرق العربي. كلّ هذه التركة لم تُصَفَّ بعد، بل هي محفوظة ومصونة، وآية ذلك ما نراه في الجامعات والمدارس العليا من طغيان للغات الأجنبية فيما يتصل بتدريس اختصاصات وحقول معرفية عديدة بها؛ فنابت بذلك عن العربية في عملية الاتصال والتلقين.

إنّ الانفتاح على اللغات الأجنبية هو دأب اعتمده الكثير من الأمم والدول، بغية الاستفادة من المعارف الحاصلة لشعوب أخرى في الفنون والعلوم والآداب، لكن هذا الانفتاح مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمركزية اللغة الوطنية الرسمية. فلو نأخذ على سبيل المثال معهد اللغات الشرقية بباريس (INALCO)، لوجدنا تنوعاً

(٥) Gilbert Grandguillaume, Op.Cit., p. 96

عجيباً في اللغات المدرّسة فيه (١٠٠ لغة)، بيد أن ذلك كلّه يصبّ في خدمة البحث العلميّ في فرنسا بالدرجة الأولى؛ أي إنه انفتاح لإغناء الدرس اللساني واللغة الفرنسيّة. لا جرم أنّ هذا الضرب من الانفتاح على اللغات فيه ما فيه من ثقاف معرفي، وتلاقح فكريّ، وهو يعطي القيمة المضافة المحمودة؛ ذلك أنّ هذا الانفتاح اللغوي لا يحجب مركزيّة اللغة الرسميّة، ولا يزحزح من مكانتها قيّد أنملة. ومن تُسوّل لهم أنفسهم احتقار العربيّة، ينعنونها بعجز متوهّم في مسaire مستجدّات المعرفة وكشوفاتها، ويرمونها بأنّها ليست لسان علم وحضارة.

وأكثر من ذلك، يبلغ تداول المحكيّات القطريّة في الأرجاء العربيّة، مبلغاً متعاضماً، ورواجاً طاغياً، ولم ينفع إيجاباً هذا الرّواج المستحكم للهجّات في بسط الذبوع اللّازم للعربيّة، وتفشيها، إذ ما زالت الفصحى تقتصر على جملة مراسيم معدودات، وهذا ما يحول دون قلبها للكفّة لمصلحتها، بل إنّها ما تزال تشهد انحصاراً ونكوصاً. إنّ هيمنة التواصل اللهجيّ، قللت لا محالة دائرة استعمال الفصحى، ودفعتها دفعا إلى التضاؤل والتراجع. خذ مثلاً لغة المسلسلات المدبلجة، التي كانت إلى وقت ليس بالبعيد تُعرض بالفصحى، إلى أن غدت الآن تلهج بالعاميّة، وتنطق بها. هذا ما يُبرز بصورة مجلّوة اتّساع نطاقات تداول العاميّة، وحجم زحفها المطرّد.

لا ريب أنّ اللغة تحيا بحياة الناس متى أبدعوا بها الآداب والفنون، ومتى كانت لسان فتوحاتهم العلميّة، ومتى كان ديدنهم الإقبال المطرد على ضروب العلم والمعارف، العلميّة منها والتقنيّة، لكن بالمقابل تخبو جذوة اللغة إذا ما قلّ نشاط الإنسان الفكريّ بها، ومتى استبدل بها غيرها من اللغات. ولقد خاض ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في جوهرية اللسان البشري، ودوره في تشييد المشروع الحضاري للمجتمع؛ لأنّ عصب العلوم هو اللغة. «ولا شكّ أنّ ابن خلدون إذ

يؤكد قيمة التواصل في اللغات والألسن، إنما يصدر عن وعي بقيمة اللسان في تأسيس العمران والتعاون على تحقيقه»^(٦). وما هو واقع الآن هو أن الفصحى حلت في الأوساط العربية بين مطرقة اللغات الأجنبية، المتغلغلة التداول في مستويات التعليم العالي والبحث العلمي، وبين سندان الدارجة الطاغية الرواج في الشارع والمنازل، وفي كل مكان تقريباً. وفي سياق كهذا، لا غرو أن تتقلص استعمال العربية، ولكأني بها استحالت لغة أقلية في عقر دارها.

٣- في مفهوم المركزية اللغوية:

إنّ العربية التي احتضنت نصّ الإسلام المؤسس، والتي كانت لسان حضارة إنسانية عالمية، أنارت الآفاق مشرقاً ومغرباً، شمالاً وجنوباً، تعاني أكثر من أيّ وقت مضى، وتنادي من جحود أهلها وخاصتهم. وإنّ اللغة لترجمان صادق لواقع الناطقين بها؛ لذا قد يبدو الوضع العربي غريباً، ذلك أنّ اللغة مكوّن رئيس من مكوّنات الشخصية القومية، بل تعدّ اللغة امتداداً طبيعياً لتاريخ الأمة وحضارتها، لكنّها تعرف غنباً، وأحياناً استهتاراً سافراً بمكانتها التي هي خليفة بها، وجديرة أن تتبوأها.

ومع هذا، يُروّج بعض أبناء العربية نظرية أنّها أصبحت لغة غير قابلة لاستيعاب العلوم والمعارف الحديثة الوافدة. وهذه النظرة تنكئ على نفعيّة التحصيل المباشر من اللغة الأجنبية، وهو تصوّر ينمّ على عجز فكري رهيب، وعلى كسل معرفي أكيد، وسماتهما القفز إلى الجاهز من المعارف بلغاتها الأصليّة، دون المرور بدرّب الإبداع بالعربيّة، ولا حتّى بانتهاج مسالك الترجمة، وما تمثله من نشاط حيويّ، تمارسه حتّى المجتمعات المتقدمة، وتعكف عليه بنهم وانتظام.

(٦) مجدي بن عيسى، اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون، ص ٦١.

لا غرو أنّ الواقع اللغوي العربي يتسم بتنوع ثقافي ولساني هام، وبدل أن يكون هذا الزخم عامل ثراء وإثراء، يتحوّل في البلاد العربيّة إلى عامل صراع، بين متصرّ لغلبة العاميّة، ومنافعٍ عن الفصحى، ومائلٍ لغلبة اللغة الأجنبيّة وتمكّنها. ومن نواتج حلبة الصراع هذه، ضياع الجهد والطاقة، وتمديد عمر تشاكس لسانيّ عبثيّ. فبدل أن يكون مخزون المحكيّات رافداً ثراً للتغذية الفصحى وتطعيمها بالأحسن والأجود، وبدل أن تتبوأ الترجمة أولوية عليا لإغناء العربية الفصحى، وتزويدها بما يستحدث في عالم المعرفة والعلوم والآداب، نلّفي أنّ العربيّة تقاوم من أجل البقاء، وتصارع على جبهتين، إحداهما داخلية (المحكيّات العاميّة) والثانية خارجيّة (اللغات الأجنبيّة).

والأصل أن اللغة المركزيّة «المهيمنة» تستقي موارد لغويّة متعددة حتّى تنتفع وتستفيد، وتؤكد مكانتها التي لا نزاع بشأنها. وهذا ما هو حاصل للفرنسيّة، إذ هي المهيمنة في القطر الفرنسيّ، وفي الوقت نفسه تنعم بما تدرّه عليها المحكيّات المحليّة من مفردات وعبارات، بل ويمتد الانتفاع حتّى من بلدان النطاق الفرنكوفوني (سويسرا، بلجيكا، كندا...)، ولذا يحفل القاموس الفرنسيّ الأحادي اللغة بمفردات مستقاة من مختلف الموارد المتاحة له (لهجات محليّة، استعمالات خاصة بدول فرنكوفونية، مقترضات من سياقات لسانيّة أخرى). والمأمول فيما يخصّ العربيّة أن تحتل حَقّاً وحقيقتاً مركز الاهتمام والاستعمال؛ أي أن تصير فعلاً قطب رحى التواصل اللسانيّ، لتدور حولها اللهجات القطريّة، واللغات الأجنبيّة، حتّى تُغنيها بالمدد المعجمي، وتثريها إن اقتضى الأمر. وهذا ما يقول به مثلاً الفاسي الفهري: «الموقف الموضوعي والعلمي يجعل من اللغة الفصيحة لغة المركز في هذا المحيط

المتعدد الألسن، ويجعل اللغات الأخرى في أرباض هذا المركز، إن نحن ابتغينا التموّج الحضاري والثقافي والفكري»^(٧).

إنّ هذه المركزية اللغوية ليست ترفاً من القول، أو بدعة من الرأي، وإنما هي عنصر من عناصر تقوية وشائج الانتماء القومي، وتدعيم اللحمة الوطنية في سياق صعب، وحساس يمرّ به الوطن العربي، من تسابق في إعلاء صوت الانتماء الضيق، سواء كان طائفيّاً أو عرقيّاً أو لسانيّاً، وما جوهره سوى تفتيت لأواصر البلد الواحد، وتمزيق كيانه الجامع. وعليه، فالحاجة إلى الالتحام حول الثوابت - واللغة منها - ضرورة وجوديّة؛ فالشعب اليهودي وجد له في اللغة عاملاً من عوامل جمع شيعه وأطيافه. إنّ نظرة متأنية إلى التاريخ الحديث، تثبت أنّ الاستهتار بمركزية اللغة، قد تكون عواقبه وخيمة على الجماعة اللغوية المتمتية للبلد الواحد. وهيمنة اللغات الأجنبية في بعض البلاد العربيّة، كانت بمثابة قميص عثمان، لوّح ويلوّح به الغلاة من المتطرفين، الذين تشوّفوها تغريباً صريحاً، يحتاج المجتمع تبعاً له إلى إعادة أسلمة (réislamisation)، وما يترتّب على ذلك من اقتراف عنف، وإحداث دمار، وإرهاب وتخريب^(٨). كلّ هذا يدعو إلى ضرورة أخذ المسألة اللغويّة بجِدٍّ بغية تلافي الاستلاب الناجم عن تداعيات العولمة من جهة، ولسحب البساط أمام تهوّر الغلاة واندفاعهم من جهة أخرى.

(٧) عبد القادر الفاسي الفهري، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، ص ١٥٣.

(٨) كانت الجماعات المسلّحة في تسعينيات القرن الماضي تناهض حتى تعليميّة اللغات الأجنبية في الجزائر، انظر عيّنة من ذلك ما وقع لمدرس الفرنسيّة الجزائري من تهديد بالقتل، إن لم يغيّر مهنته، بحيث اضطر إلى ترك منصبه ومغادرة البلد، وردت الرواية في الصفحتين ٢٠٨ و ٢٠٩ من كتاب: (Christophe Dubois et Marie-Christine

٣- تعزيز مكانة العربية:

بعد استعراض قطاعات من واقع العربية، سنتطرق الآن إلى جملة محاور، نخالها مفصليّة في تطوير مكانتها اللغويّة، ونشوّفها ذات أولويّة بحيث تكون مساهمة في حمل الناشئة على إيلاء مرتبة خاصّة للغة الضاد؛ فالآمال معقودة على الأجيال الصاعدة لتعزيز شأن لغتهم بين لغات العالم، وما هذا على أبنائها البتّة بالمطلب العسير.

٣-١ - تشجيع القراءة لدى الناشئة:

صحيح أنّ القرار السياسيّ يبقى ذا تأثير مباشر في إعلاء مكانة العربية الفصحى في ربوع الوطن العربيّ، غير أنّ تمكين العربية الفصحى، لن تقوم له قائمة ما لم تزد نسبة المقرئية وتتضاعف، وتنتشر ثقافة مطالعة منتظمة في أذهان أهل العربية؛ أي أن تصير قراءة الكتب والمجالات والجرائد ممارسة متأصلة، وعادة يُقبل عليها الصغير قبل الكبير. ولن يتحقق هذا المأمول ما لم تُحبّب القراءة إلى الفرد منذ صغره؛ فكما يقال: «من شبّ على شيء شاب عليه». والحق، إنّ ارتفاع كتلة القراء، لن تتأتى بدون ترسيخ لثقافة اقتناء الكتاب وشرائه لدى الناشئة. وقبل ذلك توفير الكتاب، ودعم نشره، وحسن توزيعه. وها هي ذي وسائل الاتصال الحديثة تأتي لتوفر الكتب في صيغتها الرقمية، فيسهّل اقتناؤها، وتخزينها. وقد أعدت لويحات قراءة (liseuses) - خفيفة الوزن وسهلة الحمل - مهداة خصيصاً لقراءة الكتب الرقمية، أينما حلّ المرء وارتحل.

٣-٢ - تكيف التعليم وروح العصر:

من أهم شروط تحقيق تعميم تعليم العربية واستعمالها على جميع

المستويات التعليميّة إجراء إعداد شامل يمسح واقع استعمالها، ومجالات غيابها، كيما تتمّ نقله سلسة باتجاه الاستعمال الفعلي والعملي للغة جامعة واحدة. وإنّ تغييب مبادئ العلوم التقيّة والعلميّة في المراحل الأولى من التعليم؛ أي باكراً، لا يدفع إلى الاهتمام بهذه الفنون من العلوم الواعدة، ولذا فإن «عدم علميّة المجتمعات العربية [يُعدّ] أحد العوائق الأساسيّة أمام إعدادها للنقل المجتمعية المرجوة، فالبيئة العلميّة شرط أساسي لتوطين [تقانة] تكنولوجيا المعلومات الوافدة في كيان مجتمعاتنا العربيّة»^(٩). في اليابان مثلاً يزور تلاميذ التعليم الابتدائي معارض ومتاحف للصناعات الميكانيكيّة، ثمّ يقومون ببعض التمارين التطبيقية السهلة لتحبيب هذا النوع من التخصصات إليهم.

ومن الملحّ أن تصدّي برامج الإصلاح التربوي لمستجدات العصر وسماته التي لا مناص منها. ومن العقيم التغيّ بجملة الأرقام والإحصاء في عدد المتمدرسين، وفي نسب الناجحين منهم، أو في المسارعة لإخضاع منظومة تربوية وفق نماذج بيئات أخرى تتباين في طبيعتها والقطر العربيّ. ومن الأجدر أن يسترعي التعليم النوعي بال التربويين (البيداغوجيين)؛ فلكلّ وقت معطياته، وواقعه الذي يجب التعامل معه، بفضة وذكاء. إنّ مسألة التكيّف هذه بالغة الأهميّة، لا سيّما في عصرنا الحالي عصر التقانات (technologies) والشابكة (Internet) الذي طغت فيه ثقافة الصورة والفيديو، وانكمش فيه الاجتهاد الشخصي لدى المتعلّم، الذي أصبح ينفق ساعات متواصلة أمام التلفاز أو الحاسوب (ordinateur)، حتّى انقلبت وسائل الاتّصال والتواصل إلى وسائط ثرثرة وتبادل صور وأشرطة وإبداء التّعليقات الشخصية.

(٩) نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، ص ٣٨٩.

في غمرة هذا الواقع الجديد، اقتصد المتعلم التحصيل الشخصي اقتصاداً مُسرفاً، تبعاً لغواية المشاهدة، والاستماع، وترفٍ كثيرٍ تمنحه الشابكة. ويستتبع هذا، لا محالة، خمول فكريّ، وسلبية في التعليم، ناجمة عن سطوة ثقافة الصورة، والمشاهدة، واللُّعب الإلكترونيّة، ومواقع الدردشة، بل وغدت أحياناً وسائل الاتصال والتواصل وسائل ضغط ومفاوضة بيد التلميذ؛ ففي امتحان الإنجليزية لتلاميذ الشهادة الثانوية (٢٠١٥) في فرنسا، جاء سؤال غامضٌ بعض الشيء؛ فأُنشئت صفحة في شبكات التواصل الاجتماعي تروج لضرورة إعادة إجراء امتحان المادة. ولا شك أن المستوى اللغوي يتأثر سلباً بسبب نقص التحصيل، والاجتهاد الشخصي لدى المتعلم. وبناءً على ما جاء ذكره، يتعيّن على القائمين بشؤون التربية والتعليم التعويل على الوسائل الحديثة التي يحبّها المتعلم لاستدراجه شيئاً فشيئاً إلى تحصيل معرفي تفاعليّ، حتّى تغدو آليات التلقين موائمة لتطلّعات المتعلم، ومنسجمة مع ميوله إلى استعمال مُبتدعات التقانة المستجدّة، التي هي أصلاً وسائل جاءت من رحم عصره.

٣-٢-١ - إيلاء الجانب التطبيقي أهمية في تعليم العربية:

نادراً ما تُستعمل أجهزة خاصة لتعليم العربية في البلدان العربية، كأنّ مسألة إتقان اللغة الأمّ هي أمر مفروغ منه، لكنّ الواقع يؤكد فجوات في طرائق التعليم، وبخاصة تلك التي تعوّل على الجوانب النظرية المحضّة، ومن ثمّ بات لزاماً «الاهتمام بالمهارات اللغوية، وتأكيد الجانب التطبيقي، واستعمال الوسائل السمعية والبصرية في تدريس العربية في التعليم العام، والتعليم الجامعي»^(١٠).

(١٠) طارق عبد عون الجنابي، لغة الضاد، ص ٧٠.

وهذا حال اللغات الحيّة التي يُتوخى تدريسها بإتقانٍ عالٍ، وبطرائق تجتذب عقول وقلوب المتعلّمين؛ فهي تولي الجانب التطبيقي الحي قسطاً وافراً من الاهتمام، لا سيّما بالإفادة من الوسائط الرقمية المتاحة اليوم.

يتضح مما سبق، إذن، أنّ إتقان أيّ لغة لا يتيسّر لطلابه ما لم يتمرس على استعمالها، في سياقات اتصاليّة حقيقية، أو في سياقات مصطنعة أثناء الدرس، لكي تضارع حالات محادثة حقيقية؛ «فاللغة تُتوارث وتُعلّم بالتلقين والسماع والممارسة أكثر منها بالتعمق في أصولها وقواعدها»^(١١). ولا غرو أنّ فاعليّة الجانب التطبيقي توتّي حتماً أكلها، وتُنجز ما هو مأمول من تعليم العربيّة للناشئة، إذ الغاية القصوى جعل المتعلم يتذوق حلاوة العربيّة، ويقف على جمالها من طريق ممارستها، ليصل إلى مرحلة الإتقان والبراعة في استعمالها. إنّ الشقّ التطبيقي العمليّ يساهم في تعليم العربيّة تعليماً تفاعلياً إيجابياً، ويسمح بتطوير كفاءات المتعلّم، ويخوّله تنمية قدراته في تفقّه اللسان، لهذا احتيج إلى الدربة والمران في درس العربيّة، بعيداً عن الاسترسال في تنظير عقيم، لا يرسخ إلّا الصعوبة، ولا يزيد المتلقّن إلّا نفوراً.

٣-٣- الاعتناء بالقواميس:

تهتمُّ الأمم المتقدمة بتحيين^(*) (mise à jour) قواميسها، بإحلال ما استجدّ من كلمات، ويحذف ما خبا استعماله من مفردات موات. وهي لا تكتفي بطبع هذا النوع من المصنّفات في أحسن حلّة فحسب، وإنّما تروّج لها بوسائل الإعلام، وتُسوّق لها الدعاية اللازمة. كلّ هذا الاعتناء بالإنتاج المعجميّ، يَنمُّ على حياة خصبة، تنعم بها اللغة، وعلى حيويّتها في مسارها الطبيعيّ العام، وفي

(١١) عبد الكريم اليافي، مجلة التعريب، ص ٢٣.

(*) التّحيين: التحديث. [المجلة].

مجاراتها لما يمور في العالم. وإذا كانت العربية من اللغات التي عرفت الصناعة القاموسية منذ بداية عصر التدوين، وتفنتت في مسالك الجمع والوضع، فإنّ مسائل التحيين الدوري والمنتظم لا تكاد تعرف لها شأنًا والتفاتًا. لا نعني بمفهوم التحيين هنا تواتر عدد الطبقات، ولكن معالجة القاموس الشاملة لكل ما يطرأ من دلالات مُستحدثة، أو مفردات مولدة؛ فيتبعها القاموسيّ بالوصف، والشرح والتسجيل، مستفيداً من زبدة نشاطات المجامع اللغوية، ومراكز التعريب. ولا يعزب عن البال أهمية تطوير المعالجة المعجمية بالتوسل بالحاسوب والشابكة، كما يسهل تصفّح القواميس الرقمية؛ فيشبع المستعمل فضوله، ويُجيب سؤاله، وهو غانم بزيادة قيم، ووافر.

ومن دلائل النقص في الوضع المعجمي افتقار العربية لقاموس تاريخي جامع. ومع كونها لغة سافرت في الزمان والمكان، وما زال تداولها قائماً؛ فإنّ غناها وثراءها المعجمي، لم يُتوج بعد بموسوعة تقتفي تاريخ المفردات، وتطوّر المعاني، ونشوء الدلالات، ورصد ما توارى استعماله منها. وغير خاف لما لهذا الغياب المعرفي من أثر بالغ، وبخاصة فيما اتصل بالدراسة والبحث العلميين. ويفرز هذا الغياب الرأى والتخمين بدل الحق واليقين، لا سيما في مبحث التأثيل (l'étymologie). ولا بأس أن نضرب مثلاً على نواتج غياب قاموس تاريخي للعربية؛ ففي دراسة حديثة، حاول باحثٌ تتبع ترجمة (avocat) وتطوّر مقابلاتها في العربية، ليصل بالقول: «لأول مرّة في تاريخ المصطلح القانوني العربي، اقترح [جرجي زيدان] مصطلح محامي»^(١٢)، ويواصل الباحث تأكيد هذا الرأى: «منذ ظهوره عام (١٨٩٣)، بدأ توليد مصطلح (محامي)، الذي اقترحه جرجي زيدان، توليداً إيجابياً، وتقنياً بما فيه الكفاية،

(١٢) Nejmeddine Khalfallah, L'arabe moderne : péripéties et enjeux, p. 62

ليدلّ على مهنة مقنّنة»^(١٣)، لكن في الحقيقة، يُعدّ المصطلح أقدم من التاريخ المذكور آنفاً، أضف إلى أنّ صاحب التسمية ليس جرجي زيدان. والحجّة أننا نجد في قاموس «بقطر» الفرنسي العربي مصطلح (محامي) مقابلاً لنظيره الفرنسي (avocat)^(١٤)، وقد نُشر قاموسه سنة (١٨٢٨). هذا إن لم يكن هذا المصطلح قد استعمل أصلاً من قبل. إنّ ما أزعجنا من تدليل، يفصح عمّا قد يترتب من عواقب، وغلط بسبب غياب مرجع تاريخي لغويّ شامل للعربيّة. وإضافة إلى القواميس الأحاديّة اللغة، والموسوعيّة، لا ينبغي إغفال أهميّة القواميس الثنائيّة اللغة، لما لها من دور محوريّ في توفير السند الصّلد للمترجمين، وكذا للمشتغلين بتعلّم اللغات الأجنبيّة^(١٥).

٣-٤ - الالتفات إلى تعليم العربية لغير أهلها:

إنّ انتشار رقعة الدين الإسلامي، نجم عنه توسع آفاق تعليم العربية، وازدياد عدد طالبيها، وتبعاً لتطوّر وسائل الاتصال والتواصل، وهجرات المسلمين إلى دول غير إسلاميّة، أقبل الناس على اعتناق الإسلام، وهذا ما أفرز متعلّمين جدداً للعربيّة؛ ذلك أنّ معتنقي الدين الإسلامي، يجدون حاجة ماسة لفهم النصوص، وتلاوتها بعربيّة سليمة. «وبوصف العربية لغة تعبّد الدين الإسلامي، فهي تهتمّ نحو ربع البشرية اليوم»^(١٦). وهذه الحال ليست بالشّيء الجديد، إذ لمّا توسعت ربوع الدولة الإسلامية، أقبل الأعاجم على

.Idem., p. 67 (١٣)

.Ellious Bothor, Dictionnaire français-arabe, p.67 (١٤)

(١٥) كُنّا قد قمنا بدراسة وافية للقواميس الثنائيّة اللغة تم نشرها في كتاب سنة ٢٠١٤ أوفت الموضوع حقّه من مختلف الجوانب. انظر محمد بسناسي (La contextualisation dans la lexicographie bilingue)

.Djamel Eddine Kouloughli, L'arabe, p. 4 (١٦)

تعلم العربية، ومنهم من برع فيها؛ فدوّن بلسانها مصنفات ومدونات مرجعية، في شتى ضروب العلم والمعرفة. وكان إقبالهم على العربية ملحوظاً نظراً للمركزية الدينية والسلطوية التي تمتعت بهما. ولمّا كانت العربية لسان أمة فاتحة وغالبة، كان المغلوب أميل إلى قبول العربية، ومولعاً باعتمادها لتغدو إذ ذاك لسان حاله، إذ «المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب»^(١٧)؛ ويفسر ابن خلدون هذا المنحى الإنساني قائلاً: «النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه»^(١٨). وولتمس صدق هذا الرأي لما نرى من توسل المثقفين والعلماء العرب اليوم باللسانين الإنجليزي والفرنسي، تبعاً لما يتسمان به من انتشار كونيّ ثابت.

إذن، ارتبط انتشار العربية بالفتوحات وبامتداد رقعة الإسلام، وما انطوى عليه هذا الدين من حثّ على طلب العلوم، وتعليمها. ولقد استفادت العربية من الترجمات الآتية من اللغات الأخرى؛ فوسعت رصيدها المعجمي، واغتنت إذ ذاك بمصطلحات مختلفة في شتى العلوم والفنون، من طريق الترجمات الوافدة إليها، فضلاً على كونها لغة دين جامعة، ولغة آداب راقية، ولغة فكر وفلسفة، تبعاً لما ساهم به العرب وغير العرب من التدوين بلسانها. فهذا ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) يصف العربية باللغة الشريفة، الكريمة، اللطيفة في الآن ذاته ويتحدث عنها بكلّ رقة وإجلال فيما نصّه: «وذلك أنني إذا تأملتُ حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة، اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقّة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتّى يكاد يطمح ما به أمام غلوة السحر»^(١٩). ومخالطة شعوب

(١٧) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٦.

(١٨) عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر نفسه.

(١٩) ابن جنّي، الخصائص، ص ٩٩.

وثقافات وحضارات عديدات، ساهم في إخصاب العربيّة، وفي امتداد آفاقها، حتّى غدت لغة عالمية وعالميّة، يُطلب العلم بها مباشرة، أو ترجمة منها إلى اللغات الأخرى. «واللغة العربية تنفرد بين اللغات جميعاً، بأنّها اللغة التي خلقت لتكون لغة عالميّة، وأنّها اللغة التي خرجت على النّاس، في صورتها الحضاريّة، وهي تحمل في ذاتها حجة انتشارها، ووثيقة بقائها»^(٢٠).

إنّ مسألة الاهتمام بالعربية لا يجوز أن تنحصر فيما يتصل بمكانتها في الأقاليم العربيّة فحسب، بل ينبغي أن يتعدّى ذلك إلى الأقطار الإسلاميّة غير العربيّة والبلاد غير الإسلاميّة. فعلى سبيل المثال، توجد في البلاد الغربية جاليات عربيّة ومسلمة هامّة، لا تهتدي عادة إلى من يأخذ بيدها في اكتساب ناصية العربيّة الفصحى. ونحن نعلم قوّة رابطة اللغة ومحوريّتها في تقريب أبناء الجاليات من أوطانهم الأصليّة، وفي تمتين وشائج انتماءاتهم الأصليّة؛ لذا تتبدّى مسألة فتح مدارس للعربيّة ودعمها شأناً مُلقى بالدرجة الأولى على عاتق البلدان العربيّة. وفي ظل غياب سافر لدعم مادي رسميّ ومنتظم من لدن الدول المعنيّة، تقدّم مدارس خاصّة منتشرة هنا وهناك في البلدان الغربيّة خدمات بقدر إمكاناتها المتاحة، إذ غالباً ما تطلب التمويل من مرتادي المساجد، لمواصلة إعطاء الدروس بالعربيّة، والإنفاق على ألوان الأعباء المترتبة على خدماتها.

إنّ تعليم العربيّة لغير أهلها يحتاج إلى إعداد برامج خاصّة، ومراجع تأخذ في الحسبان الخصائص المنهجية للتعامل الأمثل مع آمال غير الناطقين بالعربيّة. وينبغي تخصيص ملتقيات دوريّة، تنظر في شؤون

(٢٠) محيي الدين صابر، المجلة العربيّة للدراسات اللغويّة، ص ١٤.

المناهج التربوية (البيداغوجية) الموجهة لفئة تُقبل على العربية في غير بلادها؛ فطرائق التعليم، ومحتويات المضامين التعليمية، يجب أن تتوافق والبيئة المستهدفة، وكل بيئة تختلف عن الأخرى اجتماعياً وثقافياً وجغرافياً... ومع وجود مراجع تعليمية لغير الناطقين بالعربية، فإنها تبقى غير كافية كمّاً وكيفاً، وهي لا تنظر بميزان التدرج في مستويات التعليم؛ فمن غير الممكن أن نخترل ضرب التعليم هذا في مؤلف جامع واحد، أو اثنين أو ثلاثة. إن المحتوى التعليمي للمراجع ينبغي أن يُقدّم بتسلسل منطقي، وأن يُبسّط أيّما تبسيط، وأن يتوزع المرجع على أجزاء عديدة.

٣-٥ - ثقل مسؤولية وسائل الإعلام:

تكتسح وسائل الإعلام اليوم حياتنا اكتساحاً جارفاً؛ فالإقبال عليها يبلغ حدّ الإدمان، وتتبع ما تديعه أصبح جزءاً من عوائدنا في تلقف المعلومة، وفي التزوّد بالخبر. ولذا، فإن لغة الصحافة هي لغة مؤثرة، وذات وزن لا يُستهان به. وبغية تقديم كمّ جمّ من المعلومات بسلامة، يجب الاعتناء بطبيعة اللغة، وبأسلوب العرض. ولا يمكن للصحفيّ الاكتفاء بما يتمتع به من مهارات لغوية، ولو كان ذا قدم راسخة في اللسان العربيّ، إذ لا مفرّ من ميسس الحاجة إلى مصححين لغويين في وسائل الإعلام الثقيلة والجرائد، قصد تلافي الأخطاء اللغوية. وبذا، بات من الملحّ توظيف مصححين لغويين لقراءة وتصحيح المقالات الصحفية، كيما تُقدّم إلى القارئ بلغة سليمة، خالية من اللحن، نائية عن الغلط؛ ذلك أن الصحف والجرائد تنقل الأحداث والأخبار بسرعة، وهي في الآن نفسه واسعة الانتشار، محظية بتتبع الكثير من القراء. ولا يخفى لما تستقطبه القنوات التلفزيونية كذلك من متابعة ومشاهدة؛ فخليق بهذه المحطات أن تراجع نصوص صحفيّتها

مراجعة لغوية، تصحح بها الخطأ، فتدراً إذ ذاك الخلل وتصلحه، حينما يكون اللحن في مرحلته الجينية حرفاً مسطوراً قبل أن يصبح لفظاً ملفوظاً. إنَّ الاعتناء بالجانب اللغوي في نقل المعلومة، يشكّل جانباً لا يليق إغفاله بأيّ حال من الأحوال؛ ففي عالم اليوم لا يعزب عن البال أمر حساسية أجهزة الإعلام ووسائلها في مخاطبة المتلقي، وفي تأثيرها الهائل فيه، ومن ثمَّ يجب مرافقة إزجاء المعلومة بتدقيق لغوي وأسلوب، حتى يكون التأثير سليماً لا سلبياً. ولذا تحمل وسائل الإعلام على عاتقها مسؤولية ثقيلة، ليس فقط فيما يتعلق بمحتوى المعلومة، ولكن أيضاً فيما يمس سلامتها اللغوية، ولا تحصل السلامة هذه إلا من طريق المراجعة الفاحصة. ويمكن القول في هذا السياق إنَّ الآمال مشدودة كذلك على وسائل الإعلام للارتقاء بمكانة العربية، وذلك بتخيّر المفردات الدالة، وبالاعتناء بالأسلوب، وبانتهاج طريقة إلقاء مميّزة؛ لأنَّ الخطاب الصحفي بالغ التأثير في النفوس والأذهان، وهو خطاب موجه لجمهور عريضة. «وكلّما كان الفكر خصباً ثرياً كان الإلقاء حسناً، وكان صاحبه مرتاحاً، كما يساعد الخيال الواسع على تهذيب وترتيب الأفكار»^(٢١).

٣-٦ - قضية المصطلح وتبعاتها:

تقوم المجتمعات على المعرفة، التي هي عصب التقدم الحضاري، والرقىّ البشري. وعصرنا الحالي هو عصر تدفق المعرفة والعلوم بتميّز؛ فالعالم أصبح قرية صغيرة، وتقاربت التجارب البشرية أكثر، واستيسر الاتصال والتواصل، وتشاركت القارات كلّها في صناعة المعرفة وتطويرها

(٢١) سعاد بسناسي، السّمعيّات العربيّة في الأصوات اللّغويّة، ص ٨٣.

وإشاعتها، وإن بدرجات متفاوتة، و«مجتمع المعرفة يقوم أساساً على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها وتثمينها، في مختلف مجالات النشاط المجتمعي»^(٢٢). وأساس العلوم المصطلحات، إذ بواسطتها تنعقد عمدة الخطاب العلمي، وبها تتساقق دقة التحليل والتعليل، وهي ترجمانٌ كشافٌ لما استجدّ من مستحدثات، ومؤشرٌ يُبرز ما ابتدع من مفاهيم.

ولئن شارك العرب كغيرهم في صناعة المفاهيم، وفي الدفع قدماً بالنتاج المعرفي، إن ذلك يجري الآن غالباً في المخابر الأجنبية، وتبقى، إذن، لغات الابتكار والاختراع في عمومها اللغات الأجنبية. ويترتب على هذا الواقع ضرورة مواكبة العربية لما يستجد معرفياً بالاتكال على التوليد المصطلحي (la néonymie)، وللتصدّي لهذا الميدان أنشئت المجامع العربية، ومراكز التعريب، لتزويد العربية بالزاد المصطلحي الملائم، بغية الدفع بالخطاب العلمي دفعاً عملياً متتداً؛ فالتاريخ يؤكد دائماً أنّ التأخر العلمي والتقني، تنجم عنه نواتج سلبية، من شاكلة الجمود والتحجّر، وعليه فإنّ «دعوة التعريب [...] امتداد لحركة التحرر السياسي وتعبير عن السيادة الوطنيّة والاستقلال في الرأي والعمل»^(٢٣). لا مناص من كون التعريب - في مفهومه الترجمة ونقل المصطلحات إلى العربية - يمثل أساساً لا غنى عنه في سبيل الارتقاء بالفكر العلمي، وكذا في إخصاب حيوي للغة البلاد العربية.

ولا يمكن إنكار الصعوبات الموضوعية التي قد تعترض مهمة التصدي للمصطلحات الوافدة إلى العربية صناعة وقولبة، بحيث تتسق مع سمات العربية الصرفية والصوتية، ومن دلائل مشقّة النقل هروغ المترجم أحياناً إلى

(٢٢) عبد القادر الفاسي الفهري، تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ص ٣.

(٢٣) محمد سويس، نماذج من التراث العلمي العربي، ص ١٩٩.

الاقتراض (l'emprunt) من اللغة المنقول منها، بوصف هذا النوع من التعاطي آخر حلّ تَرَجَمِيٍّ، لا طائل من بعده. وعلى كلِّ، «فاللغة الحية مجبرة على الانفتاح على اللغات الأخرى بوساطة الترجمة»^(٢٤). وجدير بالذكر أن اللغات الأجنبية تقتضي كذلك أسلوب الاقتراض حين يتعذر إيجاد مقابل يفي بالغرض. واللافت أن «اختلاط الشعوب وتمازجها كان دائماً زاداً عظيماً للمعجم، وأن اللغات كانت تعيش على الاقتراض المتبادل»^(٢٥). ولقد عرف العرب الأقدمون المفردات الأعجمية الأصل، التي سار استعمالها على منوال اللسان العربيّ، حتّى إنّ هناك من نفى موردها الأعجمي، وبخاصّة تلك التي وردت في القرآن الكريم، وقد كان الجواليقي (ت ٥٣٩هـ) من أولئك الذين انتهجوا نظرة توافقيّة إزاء طبيعة الكلمات الأعجميات الأصل، فقال: «هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال أولئك على الأصل، ثمّ لفظت بها العرب بألستها، فعربته، فصار عربياً بتعريبها إياه فهي عربية في هذه الحال، أعجمية الأصل»^(٢٦)، وذهب أبعد من هذا عندما أضاف مفضلاً، أنّ منها «ما لا يعتدّ بعجمته، وهو ما أدخل عليه لام التعريف نحو «الدياج» و«الديوان». والثاني ما يعتدّ بعجمته، وهو ما لم يدخلوا عليه لام التعريف كـ«موسى»»^(٢٧).

وفضلاً على مبدأ موأمة المفردات الأعجمية الوافدة إلى الرصيد المعجمي العربيّ، لما اعتمده واستساغته العرب، فإنّ العربية تزخر أيضاً بقدرة

Mohammed Besnaci, La contextualisation dans la lexicographie (٢٤) bilingue, p. 332

(٢٥) جان لويس كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ٣٥٨.

(٢٦) الجواليقي (ت ٥٣٩هـ)، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، ص ٦.

(٢٧) الجواليقي (ت ٥٣٩هـ)، المصدر نفسه.

كبيرة على استيعاب نظائر المصطلحات الأجنبية الحديثة، واصطناع ما يقابلها، من خلال خلق مصطلحيّ، يولد من رحم كلمات عربيّة أخرى، وتقوم قائمة هذا الإجراء على مبدأ الاشتقاق، وجوهره «انتزاع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون بينهما تناسب في اللفظ والمعنى، والاشتقاق من خصائص العربيّة الرئيسية ويتيح توليد الكلم وتكاثره الخلاق»^(٢٨). إذن، تنطوي العربيّة على أدوات وآليات الخلق المصطلحيّ، التي تثرى بها رصيدها المعجمي، وتُسَدُّ حاجتها في تسمية الأشياء والمفاهيم. وحتى توليد المصطلحات هو جهد واجتهاد لا يمكن للمصطلحي أن يضطلع به وحده؛ فقد «يحتاج المصطلحي المبدع إلى مدقق لسانيّ خبير يكون بمقدوره تقييم الكفاية الإبداعية»^(٢٩).

ولا يُلتفت لمن يتوهم عجز لسانٍ ما عن استيعاب حقول معرفيّة ما، خصوصاً إذا كانت العربيّة هي المقصودة بهذا العجز. وآية ذلك أن تعريب الطّب مثلاً في سورية حقيقة ملموسة. ولا غرو أن التصديّ لمصطلحات معرفيّة غارقة في الاختصاص، تستدعي جهوداً متضافرة، واجتهادات متواصلة، فكما يقول المثل الفرنسي: «لم تُشيد روما في يوم واحد»، فكذلك الحال في مقاربة تعريب العلوم، وما يقتضيه الأمر من صبر، ووقت وأناة؛ أي أن ينجم جهد التعريب عن برنامج عمل متكامل، وعن تخطيط لغوي واضح المعالم، مجلو الآفاق، لذلك كلّ «تخطيط لغويّ (planification linguistique) هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ؛ فاتخاذ قرار بفعل كذا وكذا يشكّل خياراً في السياسة اللغوية كقرار تعريب التعليم على

(٢٨) شحادة الخوري، مجلة التعريب، ص ٣٧.

(٢٩) عبد القادر الفاسي الفهري، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، ص ١٤٢.

سبيل المثال»^(٣٠). أمّا «مدار الحديث عن قدرة أيّ لسان من الألسنة على صياغة المصطلح العلميّ أو قصوره عنها فإنّما هو من القضايا الزائفة، لأنّه إشكال غير ذي موضوع. فما من لغة من لغات البشر إلّا وهي في ذاتها مهياة بالطبع والجبلة لاستيعاب الصّوغ الدلالي الجديد عن طريق التوليد الاصطلاحي المستحدث وإنّما القدرة أو القصور في أهل اللغة لا في اللغة ذاتها»^(٣١).

٤- أنموذج للتخطيط اللغوي:

ومن أبرز أنماط التخطيط اللغوي وتجلياته، ما يسعى إليه الفرنسيون من زحف لسانهم في مختلف مناطق العالم، ضمن إطار الفرنكوفونية العالمية، إذ مع تفوّق الإنجليزية في الانتشار والاستعمال، بوصفها لغة لها اليد الطولى على سائر اللغات^(٣٢)، فإنّ الفرنسية تكسب ناطقين جددًا، ومناطق استيطان وتوسع، بفضل سياسة لغوية رصينة، وتخطيط محكم. ويتوسل المدافعون عن الفرنسية بكل الوسائل لنشر لغتهم، وإشاعتها في العالم، متكئين على وسائل الإعلام الثقيلة، ودور النشر، وتكوين الطلاب الوافدين من مختلف بلدان العالم، وإنشاء مراكز تعليم الفرنسية خارج فرنسا، حتّى إنّ مؤلّف (حرب اللغات) أقرّ ما نصّه: «لم يسبق للفرنسية في تاريخها أن تحدّث بها النّاس في العالم كما يتحدثون بها اليوم»^(٣٣).

من هذا الأنموذج المترجم لكيفية التخطيط اللساني والتدبير اللغوي، تتبلور ضرورة رسم استراتيجية تفكير واضحة المعالم، تنطوي على تصور مستقبلي

(٣٠) جان لويس كالفي، المصدر نفسه، ص ٣٩٥.

(٣١) عبد السلام المسدي، تأسيس القضية الاصطلاحية، ص ٢٣.

(٣٢) هذا إذا أخذنا في الحسبان أنّ اللغة الصينية مثلاً محدودة القطر مع كثرة ناطقيها.

(٣٣) جان لويس كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ٣٦٣.

استشرافي للثقل الذي يُراد للغة أن تحتلّه في عالم يعجّ بمتغيّرات جمّة؛ فعالم اليوم لا يقيم وزناً إلا لمن أخذ بأسباب القوّة والمنعة. ومن ههنا ينبغي أن ينطلق التخطيط اللغوي للعربيّة من قطريّتها، ليصل إلى أبعاد كويّة؛ ذلك أن التدبير اللغوي هو الأساس «كل سياسة لغوية وليدة مشروع مجتمعي، ووليدة الكيفية التي يحدّد المجتمع بها مستقبله، ارتكازاً على المؤسسات التي تتوفر له، ولا بد أن تستند هذه السياسة إلى مبادئ الهوية الثقافيّة الوطنيّة الشموليّة، والتنوّع الإثني المحليّ أو الجهويّ، وعالميّة التقدم والمعرفة»^(٣٤).

الخاتمة:

إنّ دعوات الاغتراب المعرفي واللغوي، والتي مؤداها ترسيم قطيعة مع التراث، مثلها في تبعاتها مثل دعوات الانكماش على الذات؛ فالخطر كلّ الخطر يهدّد الأمم، إن وأدت صلاتها بماضيها، وإن انعزلت عن غيرها واكتفت بما بين يديها؛ ففي الحالتين، هي كالذي يسير إلى حتفه بظلفه. إنّ اللغة مكوّن جامع، تثوي عليه هوية الجماعة البشريّة، لذا يجب أخذها مبلغ الجدّ، باستنطاق واقعها، واستشراف مستقبلها. والعربيّة لغة عالميّة بوجودها في المؤسسات الدوليّة، وبتعداد ناطقيها، وبوصفها لغة النّص المؤسّس للإسلام؛ فهي تهّم أيضاً معتنقي الدين الإسلامي من جانب التعبّد. ولئن انفردت بهذه الخاصيّة العالميّة، لا يُغنيها هذا من ضبط استراتيجية التخطيط والتدبير في سياق عولمة، جاءت بمعطيات جديدة، لا مناص من التعامل معها، بكثير من الإعداد الجاد، وبالتسلّح بهمة مستنيرة. ومن الضروري إيلاء ضروب العلوم حصّة الأسد من الدّرس والبحث، إذ

(٣٤) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة، ص ١١.

بها تتقوى اللغة وثبت؛ «فاللغة لا تعجز، إذن، عن التعبير إذا كان أصحابها ذوي شأن ومساهمة»^(٣٥).

إنّ قضية تعميم استعمال العربيّة والرفع من شأنها مسألة تخصّ أولاً كلّ الناطقين بها؛ «فلا بدّ من تضافر الجهود، و [لا مناص من أن] يتحوّل هدف الرقيّ هاجساً، ينطلق ذاتياً، من داخل الفرد المعاصر»^(٣٦). ثمّ هي قضية مجمل البلدان العربيّة؛ لأنّها رابطتهم المشتركة، وهمزة الوصل والتواصل بينهم. ولا مندوحة عن أنّ بيدّ السياسي زمام الأمر، وسلطة القرار؛ فالآمال عليه معقودة لتدعيم الثقافة العربيّة، ولانتهاج إصلاحات تربويّة فعّالة في تعليم العربيّة، إذ السياسي هو من يقدر على دعم نشر الكتاب، وتيسير توزيعه، وتمويل طبع المخطوطات وتحقيقها، وتشجيع حركة ترجمة حقيقية تشمل صنوف المعارف والعلوم المختلفة. إنّ مساهمة السياسي لا مناص منها في تأمين المسألة اللغوية في الوطن الواحد، لما لها من ثقل استراتيجي غير خاف؛ ذلك أنّ الأمن اللغوي للبلاد لا يقل شأناً عن الأمن القومي أو الأمن الغذائي.

وللسانين العرب مسؤولية التصدي لنقل المصطلحات التقنيّة والعلميّة، ووضع القواميس المختصّة، وتعهدا بالتحيين الدوري، وبتكييف القواميس حسب حوائج المستويات التعليميّة وأطوارها المتباينة. وبخلق تكوين ينظر في مسائل التدقيق اللغوي، وجعله مبحثاً قائماً بذاته، يتفرّع إلى تخصصات تنتهي إلى ميادين معالجته المختلفة (في الصحافة، وفي السياسة، وفي الإشهار، إلخ). وتفكير اللسانين بمناهج تعليميّة العربيّة، لا

(٣٥) عصام نور الدين، مقالات ونقاشات في اللغة، ص ١٣٣.

(٣٦) رياض عثمان، العربية بين السليقة والتعقيد - دراسة لسانيّة -، ص ١٥٨.

ينبغي أن يتجاهل شقّ تدريسيها لغير الناطقين بها. ثم إنّ مسؤوليّة توفير التعليم لهذه الفئة ملقى كذلك على عاتق القنصليات العربيّة المنتشرة في الدول الأجنبيّة، والمطالبّة بفتح مراكز ثقافيّة، تعطي دروساً بالعربيّة للأجانب ولأبناء الجاليات العربيّة.

وللصحافة أن تُحسّن استعمال وسيلة اللغة؛ لأنّها أساس تواصلها مع متتبعيها، وعليها أن تولي مسائل التدقيق اللغوي جانباً هاماً من العناية والنظر، ليجيء الخطاب الصحفي خلوّاً من الغلط، وسليماً في أسلوبه، معبراً عن مضمون المعلومة تعبيراً صحيحاً؛ فجماليّة اللغة تؤثر في سامعها، أو قارئها، أو مُشاهدتها. وتغليب الفصحى في القنوات التلفزية من شأنه تعزيز مركزيتها في التداول، وتقوية حضورها في التواصل، حتّى تستهوي العربية قلوب وعقول الناشئة؛ فيحبونها إذ ذاك حبّاً جمّاً.

* * *

المصادر والمراجع

بالعربية:

- حرب اللغات والسياسات اللغويّة، جان لويس كالفي، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م.
- الخصائص، ابن جني أبي الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق عبد الحميد هندراوي، مج ١، منشورات محمّد بيضون، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- السّميّات العربيّة في الأصوات اللّغويّة، بسناسي سعاد، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم (الجزائر)، ط ١، ٢٠١٢م.

- «صيانة المصطلح وأسسها النظرية»، تأسيس القضية الاصطلاحية، عبد السلام المسدي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق، بيت الحكمة، تونس، ص ص (٩-٦٤)، ١٩٨٩م.
- العرب وعصر المعلومات، نبيل علي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ١٩٩٤م.
- العربية بين السليقة والتفعيد - دراسة لسانية -، رياض عثمان، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م.
- فلسفة اللغة - تفكيك العقلي اللغوي - أدهم سامي، بحث أستمولوجي أنطولوجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- «في الوعي اللغوي»، لغة الضاد وقائع ندوة، الجنابي طارق عبد عون، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ص ص (٥١-٧٣)، ١٩٩٧م.
- «قضايا نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في الخارج»، صابر محيي الدين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الخرطوم، ص ص (١٠-٣٢)، ١٩٨٢م.
- اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون، مجدي بن عيسى، الرافد، الشارقة، ط ١، ٢٠١٠م.
- اللغة العربية والبحث العلمي في تقرير التنمية الإنسانية العربية، عبد القادر الفاسي الفهري عبد القادر، تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط ١، ٢٠٠٥م.

- اللغة والبيئة، عبد القادر الفاسي الفهري عبد القادر، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- «اللغة العربية والتقدم العلمي والثقافي في الوطن العربي»، شهادة الخوري، مجلة التعريب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دمشق ع ١٤، ص ص (٢٩-٤٢)، ١٩٩١ م.
- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (ت ٥٣٩هـ)، تحقيق خليل عمران المنصور، منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٨ م.
- مقالات ونقاشات في اللغة، عصام نور الدين، دار الصداقة الغربية، بيروت، ج ١، ١٩٩٥ م.
- المقدمة، ابن خلدون عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ)، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط ١، (دون تاريخ).
- «مكانة اللغة العربية ومشكلات الترجمة والتعريب والتأليف الذاتية»، عبد الكريم اليافي، مجلة التعريب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دمشق، ع ١٤، ص ص (١٧-٢٨)، ١٩٩١ م.
- نماذج من التراث العلمي العربي، محمد سويسبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.

بالفرنسيّة:

- BESNACI Mohammed, La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe, Editions Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014.
- BOCTHOR Ellious: Dictionnaire français-arabe, revu et corrigé par Gaussin De Perceval, vol 1, éditions Firmin Didot, Paris, 1828.
- DUBOIS Christophe et TABET Marie-Christine, Paris Alger : une histoire passionnelle, éditions Stock, Paris, 2015.
- GRANDGUILLAUME Gilbert, Arabisation et politique linguistique au Maghreb, Maisonneuve & Larose, collection: «Islam d'hier et d'aujourd'hui», Paris, 1983.
- KHALFALLAH Nejmeddine, «Avocats et néologues: les péripéties d'un néologisme», in: N. Khalfallah (dir.) L'arabe moderne: péripéties et enjeux, pp. (53-75), l'Harmattan, Paris, 2014.
- KOULOUGHLI Djamel Eddine, L'arabe, PUF, collection: «Que sais-je?», Paris, 2007.

المصطلح البلاغي في كتاب البديع لابن المعتز^(١)

د. ناصر الجباعي (*)

كان حديث العلماء القدماء عن مسائل البلاغة العربية أو القضايا البلاغية يرد في معرض ما يقع لهم من تفسير أو شرح آيات من القرآن الكريم أو أشعار أو أقوال. وكانت للبلاغة العربية وما يتصل بها من البيان، والفصاحة، والخطابة، والبديع تسميات متقاربة المدلول في أذهان القدماء ومجالسهم ومباحثهم ومصنفاتهم.

(١) قال ابن خلكان: هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد... أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب وغيرهما، كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدرًا على الشعر..... مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم.... وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض، وكتاب البديع، وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب السرقات، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب الآداب، وكتاب حلى الأخبار، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الجامع في الغناء، وكتاب فيه أرجوزة في ذم الصبوح.

ينظر في ترجمته: وفيات الأعيان: ٣/٧٦. أشعار أولاد الخلفاء: ٣/١١٤. معاهد

التنصيب: ٢/٢٠٧.

(*) دكتور في النقد الأدبي القديم.

ولعلَّ أوَّل العلماء الذين وصلت مصنفاًتهم إلى الأجيال اللاحقة هم: أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١هـ) الذي وضع كتاب المجاز، وتوحي تسميته بأنَّه كتاب بلاغة، وكان أبو عبيدة^(٢) وضعه بعد استقدامه إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد ليُبينَ بعضَ الأساليب البلاغية التي وردت في القرآن الكريم.

ثم وضع الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) كتابيه البيان والتبيين، وكتاب الحيوان. ووضع ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) كتاب تأويل مشكل القرآن. وصنّف المبرد (ت ٢٨٥هـ) كتاب الكامل في اللغة والأدب. ووضع الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز كتابه هذا وأرخ له بقوله: وألفته سنة أربع وسبعين ومئتين للهجرة^(٣) وأشار فيه إلى أمرين: أولهما: سَبُّه في هذا التصنيف.

ثانيهما: أنَّ العلماء باللغة والشعر القديم لا يدرون مدلول هذا المصطلح (البديع)، وأنَّ الذين يدركونه هم نقاد المتأدبين. ومع تقدم الزمن وُضعت مصنفات تتناول البلاغة العربية. وصولاً إلى السكاكي (ت ٦٢٦هـ) في مصنّفه مفتاح العلوم الذي بيّن فيه أقسام البلاغة الثلاثة المعروفة (البيان، المعاني، البديع) بعد أن كانت متداخلة في أذهان البلاغيين والنقاد في القرون التي سبقتة.

(٢) ينظر: معجم الأدباء: ١٥٨/١١.

(٣) ينظر ابن المعتز البديع: ٥٨.

إسهام ابن المعتز في المصطلح البلاغي

الباب الأول من البديع وهو الاستعارة^(٤):

جعل ابن المعتز الباب الأول من أبواب البديع باب الاستعارة، التي عرّفها بقوله^(٥): «وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يُعرَف بها من شيء قد عُرفَ بها» وقد أطل الحديث عنها وأكثر من شواهدا مما يدل على درايته بمكانتها في بلاغة كلام العرب، ومن الأمثلة التي أوردها:

قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

[آل عمران: ٧].

وقوله: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

وأتبع ذلك بجملة من الشواهد وأحاديث النبي ﷺ وكلام الصحابة وغيرهم من الكلام المشور،

وذكر من المنظوم قول امرئ القيس^(٦):

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ مُرَخٍ سُدُولُهُ عَلِيٍّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقَلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضَلْبِهِ وَأَزْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّكَلٍ

(٤) ينظر البديع: ٣ وما بعدها.

(٥) البديع: ٢.

(٦) ديوانه: ١٨.

وقال: هذا كله من الاستعارة لأنَّ الليلَ لا صُلبَ له ولا عَجُز.

وقول زهير^(٧):

[من الطويل]

إِذَا لَقِحتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهَرُّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عَصَلٌ

وقول النابغة^(٨):

[من الطويل]

وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

أراد قوله أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ هذا مستعار من إراحة الراعي الإبل إلى مباءتها؛ أي موضع تأوي إليه.

وقول أوس بن حجر^(٩):

[من الطويل]

وَأِنِّي أَمْرٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا

وقول الحطيئة^(١٠):

[من الطويل]

أَلَا مَنْ لِقَلْبِ عَارِمِ النَّظَرَاتِ يُقَطِّعُ طُولَ اللَّيْلِ بِالزَّرَقَاتِ

وقول لبيد^(١١):

[من الكامل]

فِي تِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللُّوَامِعُ بِالضُّحَى وَاجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

وأتبع ذلك بشواهد من كلام المحدثين وأشعارهم منها^(١٢) قول

مسلم^(١٣):

[من الطويل]

(٧) شرح ديوانه: ١٠٣. لَقِحتْ: اشتدت. عَوَانٌ: ليست بأولى، قد قُوتل فيها مرةً بعد مرة.

ضَرُوسٌ: عَضُوسٌ سِيئَةُ الخَلْقِ. تُهَرُّ النَّاسَ: أي تصيرهم يهرونها أي يكرهونها.

(٨) ديوان النابغة الذبياني: ٤١.

(٩) ديوان أوس بن حجر: ٨٣.

(١٠) ديوان الحطيئة: ١١٢.

(١١) شرح ديوان لبيد: ٣١٢. أي بمثل: تلك الناقة. اجتاب: لبس. أي لبست المرتفعات

ثياباً من السراب.

(١٢) ينظر: البديع: ١٢ وما بعدها.

(١٣) شرح ديوان مسلم: ٢٧٣. ورواية صدر البيت الثاني: فَعَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثَمَارَ نُحُورِهَا، وهي أوفق للمعنى.

فَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّاعِيَاتِ إِلَى الصَّبَا وقد فَاجَأَتْهَا العَيْنُ والسُّتْرُ وَاقِعُ
قَطَفْتُ بِأَيْدِيهَا ثَمَارَ نُحُورِهَا كأَيْدِي الأَسَارَى أَنْقَلَتْهَا الجَوَامِعُ
وقال أشجع^(١٤):

وَجَارِيَةٍ لَمْ تَسْرِقِ الشَّمْسُ نَظْرَةَ إِلَيْهَا وَلَمْ يَعْثُ بِأَيَّامِهَا الدَّهْرُ
وجعل فقرة لما عَيَّبَ من الاستعارة من الشعر والكلام^(١٥) من أمثلتها:
قول عبيد الله بن زياد يوماً - وكانت فيه لُكنة - : افتحوا سيفي، يريد
سُلُوهُ فقال يزيد بن مفرغ^(١٦):

وَيَوْمَ فَتَحْتَ سَيْفَكَ مِنْ بَعِيدٍ أَضَعْتَ وَكُلَّ أَمْرِكَ لِلضَّيَاعِ
وقد جعل أبو هلال العسكري^(١٧) الباب التاسع من كتابه الصناعتين في
شرح البديع، وهو خمسة وثلاثون فصلاً؛ أولها في الاستعارة والمجاز.
وخصَّها ابن رشيقي في باب قال فيه^(١٨):

«الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر
أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها»،
فقد وضعها ابن رشيقي أول ألوان البديع، ونعت جمالها، وجعلها ابن أبي
الأصبع^(١٩) في باب مستقل.

(١٤) المحب والمحبوب: ١ / ٢٩٥.

(١٥) ينظر: البديع: ٢٣ وما بعدها.

(١٦) ديوان يزيد بن مفرغ: ١٥٥.

(١٧) ينظر: الصناعتين: ٢٧٢ وما بعدها.

(١٨) العمدة: ٤٦٠.

(١٩) ينظر: تحرير التحبير: ٩٧ وما بعدها.

الباب الثاني من البديع وهو التجنيس:

قال ابن المعتز^(٢٠): «وهو أن تجيء الكلمة تُجانسُ أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها».

ذكر ابن المعتز حدود التجنيس، وأنه يكون في المنظوم والمنثور من الكلام، وصرح أنه قد سبق إلى التأليف في هذا الفن البلاغي، وجعل التجنيس على نوعين، أولهما^(٢١):

أن تُجانس الكلمة كلمةً أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها مثل قول الشاعر^(٢٢):
[من الكامل]

يَوْمٌ خَلَجْتَ عَلَى الْخَلِيجِ نَفوسَهُمْ

ثانيهما: أن تُجانس الكلمة كلمةً أخرى في تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر^(٢٣):
[من البسيط]

إِنَّ لَوْمَ الْعَاشِقِ اللُّومُ

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقاله سبحانه: ﴿فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

(٢٠) البديع: ٢٥. وكتاب الأصمعي هذا مفقود فلم أعثر له على ذكر في فهارس المخطوطات، ولعل ابن المعتز قد أفاد منه في تصنيف كتاب البديع.

(٢١) ينظر: البديع: ٢٥.

(٢٢) الصناعتين: ٣٣٠. وتمام البيت: غصباً وأنت لمثلها مستهام.

(٢٣) البديع: ٣٢. نسب البيت لمسلم بن الوليد، وتماه:

يا صاح إن أخاك الصب مهموم
فارقق به إن لوم.

وقال رسول ﷺ (٢٤): «عَصِيَّةٌ عَصَتْ اللَّهَ، وَغَفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ». وقال (٢٥):
«الظُّلْمُ ظُلْمَاتٌ».

وأورد من المنظوم قول أبي تمام (٢٦):
[من الطويل]
جَلَا ظُلْمَاتِ الظُّلْمِ عَنْ وَجْهِ أُمَّةٍ أَضَاءَ لَهَا مِنْ كَوْكَبِ الْحَقِّ أَفْلَهُ
وقال ذو الرُّمَّة (٢٧):
[من الطويل]

كَأَنَّ الْبُرَى وَالْعَاجَ عِجَجَتْ مُتُونُهُ عَلَى عَشْرِ يَرْمِي بِهِ السَّيْلَ أَبْطُحُ
وقول القطامي (٢٨):
[من الوافر]

وَلَمَّا رَدَّهَا فِي الشَّوْلِ شَالَتْ بِذِيَالٍ يَكُونُ لَهَا لِفَاعَا
وقول زهير بن أبي سلمى (٢٩):
[من البسيط]

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَدْ سَالَ السَّلِيلُ بِهِمْ وَجِيرَةٌ مَا هُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أُمَّمُ
وختم ابن المعتز هذا الباب بقوله (٣٠): «ومن التجنيس المعيب في الكلام والشعر» ذاكراً أمثلة من أشعار المحدثين منها قول منصور بن الفرج (٣١):
[من المتقارب]

(٢٤) صحيح مسلم: ١/٤٦٨، و ٤/١٩٥٢. الصناعتين: ٣٣٢، وفيهما: غفر الله لها.

(٢٥) صحيح مسلم: ٤/١٩٩٦.

(٢٦) ديوانه: ٣/٢٦.

(٢٧) ديوانه: ٢/١٢٠٠. ورواية عجز البيت فيه: على عَشْرِ نَهَى السَّيْلَ أَبْطُحُ.

البرى: الخلاخيل. عيجت: عطف. العشر: شجر ناعم لين. شبه ساعديها وساقها بشجر الشعر في استوائه ولينه.

(٢٨) ديوانه: ٢٦٨.

(٢٩) شرح ديوانه: ١٤٨. ورواية عجز البيت فيه: وَعَبْرَةٌ مَا هُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أُمَّمُ.

السليل: واد. الأمام: بين القريب والبعيد.

(٣٠) البديع: ٣٤. وما بعدها.

(٣١) الصناعتين: ٣٤٥. وقال أنشده ابن المعتز، ولم ينسب البيت كما وردت نسبته في البديع.

أَكَابِدُ مِنْكَ أَلِيمَ الْأَلَمِ فَقَدْ أَنْحَلَ الْجِسْمَ بَعْدَ الْجَسَمِ
وقول آخر (٣٢): [من البسيط]

كَمْ رَأْسٍ رَأْسٍ بَكَى مِنْ غَيْرِ مُقْلَتِهِ دَمًا وَتَحَسَّبُهُ بِالْقَاعِ مُبْتَسِمًا
وقول أبي تمام (٣٣): [من الكامل]

ذَهَبَتْ بِمَذْهِبِهِ السَّمَاحَةُ فَالتَوْتُ فِيهِ الظُّنُونُ أَمْذَهَبُ أَمْ مَذْهَبُ
فقد أدرج ابن المعتز الأمثلة السابقة وغيرها من التجنيس المعيب وردت في أشعار المحدثين، ولم يُبين أسباب هذه المآخذ، ولم يذكر أمثلة من التجنيس المعيب في النثر كما تعهد في أول الفقرة. ونجد هذا الباب عند من جاء بعده ومنهم (٣٤): أبو هلال العسكري، وابن رشيق، وابن أبي الأصبع.

الباب الثالث من البديع وهو المطابقة:

قال ابن المعتز (٣٥): «قال الخليل رحمه الله يقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد، وكذلك قال أبو سعيد (٣٦) فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان، قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب».

ثم أتبع قوله بأمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى

الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٣٢) الصناعتين: ٣٤٥. بلا نسبة. ورواية صدر البيت فيه: كَمْ رَأْسٍ رَأْسٍ بَكَى مِنْ غَيْرِ مُقْلَتِهِ.

(٣٣) ديوان أبي تمام: ١/ ١٢٩.

(٣٤) الصناعتين: ٣٣٠. العمدة: ١/ ٥٤٩. تحرير التحرير: ١٠٢.

(٣٥) البديع: ٣٦ وما بعدها.

(٣٦) لعلّه يقصد الأصمعي.

وقول الرسول ﷺ لِلْأَنْصَارِ^(٣٧): «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرْعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمْعِ».

وذكر ابن المعتز أن هذا اللون من البديع يأتي في النثر والشعر، وجعل من أمثلة المطابقة في الشعر قول زهير^(٣٨): [من البسيط]

لَيْثٌ بَعَثَرَ يَضْطَادُ الرَّجَالَ إِذَا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَن أَفْرَانِهِ صَدَقًا

وقول الحسين بن مطير^(٣٩): [من الطويل]

مُبْتَلَّةُ الْأَرْدَافِ زَانَتْ عُقُودَهَا بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُهَا

وقول طفيل الغنوي^(٤٠): [من البسيط]

بَسَاهِمِ الْوَجْهِ لَمْ يُقْطِعْ أَبَاجِلُهُ يُصَانُ وَهُوَ لِيَوْمِ الرَّوْعِ مَبْدُولُ

وقول الفرزدق^(٤١): [من الكامل]

قَبَحَ الْإِلَهُ بَنِي كَلِيبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يُفُونَ لِجَارِ

ثم ذكر بعض أقوال المحدثين، ومن أمثلة منظومهم قول أبي تمام^(٤٢):

[من الطويل]

لَهُمْ مَنْزَلٌ قَدْ كَانَ بِالْبَيْضِ كَالْمَهَا فَصَيِّحَ الْمَعَانِي ثُمَّ أَصْبَحَ أَعْجَمَا

(٣٧) الكامل في اللغة والأدب: المبرد: ١/٧. الفائق في غريب الحديث والأثر:

الزمخشري: ٣/١١٥.

(٣٨) شرح ديوانه: ٥٤.

(٣٩) شعر الحسين بن مطير: ١٥٨. ورواية صدر البيت فيه: مخرصة الأوساط زانت عقودها.

- وفي ديوان مجنون ليلي: ٧٤. ورواية صدر البيت فيه:

مُبْتَلَّةُ الْأَعْجَازِ زَانَتْ عُقُودَهَا

(٤٠) ديوان الطفيل الغنوي: ٨١. ساهم الوجه: قليل لحم الوجه لطول غزوه، يقطع أباجله:

لم يصبه داء يقطع أباجله. الأبجل: عرق في الرجل.

(٤١) شرح ديوانه: ١/٥٨١.

(٤٢) ديوانه: ٣/٢٣٢.

وردَّ عِيُونَ النَّاطِرِينَ مُهَانَةً وقد كَانَ مما يُرْجَعُ الطرفَ مُكْرَمًا
ثم ذكر المعبى من المطابقة، والعجيب منه في الشعر^(٤٣)، ومثل له
بقول الأخطل^(٤٤):
[من الكامل]

قُلْتُ الْمُقَامَ وَنَاعِبٌ قَالَ النَّوَى فَعَصَيْتُ أَمْرِي وَالْمُطَاعُ غُرَابٌ
ونعت هذا البيت بأنه من غث الكلام وبارده. ولعله يقصد بالغثاثة ما ضمَّ
البيت من ألفاظ تثير التشاؤم في عرف العرب، وهي النعيب، والنوى، والغراب.
وأما البرودة فلعله يقصد خلو البيت من عاطفة حقيقية تدل على تأثر الشاعر.
وقال أيضاً^(٤٥):
[من الكامل]

كَمْ جَحْفَلٍ طَارَتْ قُدَامَى خَيْلِهِ خَلَفْتَهُ يَوْمَ الرَّدَى مَتَوَفَا
أَعْلَمْتَ بَابَكَ وَهُوَ رَأْسٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكَ حَافِرًا وَوِظِيفَا
واكتفى ابن المعتز بإدراج هذه الأمثلة؛ ولم يبين المآخذ عليها أو وجه
العيب فيها.

وقد أفرد أبو هلال العسكري^(٤٦) فصلاً مستقلاً للمطابقة، بين حدها
وإجماع الناس عليه، وذكر مخالفة قدامة بن جعفر لهم، وكذلك فعل ابن
رشيق إذ أدرجها في باب مستقل.

(٤٣) انظر: البديع: ٤٦ و٤٧.

(٤٤) الصناعتين: ٣٢٨. نسب البيت إلى الأخطل.

(٤٥) الصناعتين: ٣٢٨. بلا نسبة. ورواية صدر البيت الثاني: أَعْلَمْتَ نَابَكَ وَهُوَ رَأْسٌ أَنَّهُ.

والوظيفة: هو مستدق الذراع والساق من الخيل ومن الإبل وغيرها.

(٤٦) ينظر: الصناعتين: ٣١٦. العمدة: ١ / ٥٧٦. تحرير التحبير: ١١١.

الباب الرابع من البديع: رد أعجاز الكلام على ما تقدمها:

قال ابن المعتز^(٤٧): «وهو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها وهذا الباب ينقسم على ثلاثة أقسام:

فمن هذا الباب ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأول مثل قول الشاعر^(٤٨):

تَلَقَى إِذَا مَا الْأَمْرُ كَانَ عَرْمَرَمًا فِي جَيْشٍ رَأَى لَا يُفْلُ عَرْمَرَمٍ
ومنه ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول كقوله^(٤٩):

[من الطويل]

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَشْتَمُ عَرَضَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعٍ
ومنه ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر^(٥٠): [من الوافر]
عَمِيدُ بَنِي سُلَيْمٍ أَفْصَدَتْهُ سِهَامُ الْمَوْتِ وَهِيَ لَهُ سِهَامُ
وقال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. وقال عز وجل: ﴿لَا تَنْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَئِي﴾ [طه: ٦١].

وفي الحديث: «مَنْ مَقَّتْ نَفْسَهُ فَقَدْ آمَنَهُ اللَّهُ مِنْ مَقَّتِهِ».

وذكر من أمثلة هذا الباب شعراً قول طُفَيْلٍ^(٥١):

مَحَارِمَكَ امْنَعَهَا مِنَ الْقَوْمِ إِنَّنِي أَرَى حِقْبَةً قَدْ ضَاعَ فِيهَا الْمَحَارِمُ

(٤٧) البديع: ٤٧ و ٤٨.

(٤٨) البيت بلا نسبة في: الصناعتين: ٤٠٠. العمدة: ١/ ٥٧٢. تحرير التخبير: ١١٦.

(٤٩) ديوان الأفيشر الأسدي: ٩٢. والرواية فيه: سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطَمُ وَجْهَهُ.

(٥٠) العمدة: ١/ ٥٧٢. ورواية صدر البيت فيه: عزيز بني سليم أفصدته.

(٥١) ديوانه: ١٤٠. ورواية عجز البيت فيه: أَرَى جَفْنَةً قَدْ ضَاعَ فِيهَا الْمَحَارِمُ.

وقول الأَعشى ميمون بن قيس^(٥٢): [من المتقارب]
 كَثُومِ الرُّغَاءِ إِذَا هَجَّجَتْ وَكَانَتْ بَقِيَّةَ ذَوْدِ كُثْمِ
 ومن شعر المحدثين قول مسلم^(٥٣): [من الطويل]
 تَبَسَّمَ عَن مِثْلِ الْأَقَاحِيِّ تَبَسَّمَتْ لَهُ مُرْنَةٌ صَافِيَةٌ فَتَبَسَّامًا
 وختم ابن المعتز هذا الباب بذكر مثالين من المعيب فيه^(٥٤)، أحدهما
 قول ذي نواس البَجَلِي^(٥٥): [من الطويل]
 يُتِيْمُنِي بَرْقُ الْمَبَاسِمِ بِالْحِمَى وَلَا بَارِقُ إِلَّا الْكَرِيمُ يُتِيْمُهُ
 ونجد هذا الباب وأقسامه الثلاثة عند أبي هلال العسكري^(٥٦)، أمَّا ابن
 رشيق فقد أسماه التصدير ناقلاً تقسيم ابن المعتز وأمثله^(٥٧)، وفصل ابن أبي
 الأصبغ^(٥٨) القول فيها.

الباب الخامس من البديع المذهب الكلامي:

قال ابن المعتز: «وهو مذهب سمّاه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي. وهذا باب ما أعلم أنّي وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»^(٥٩).

(٥٢) ديوانه: ٣٧. يريد أنّها مهذبة إذا ركبت. الذود: ما بين الثلاث إلى عشر من الإبل.

(٥٣) شرح ديوان صريع الغواني: ٣٤٠.

(٥٤) ينظر: البديع: ٥٣.

(٥٥) الصناعتين: ٤٠٣. ورواية صدر البيت فيه: يُتِيْمُنِي بَرْقُ الْمَبَاسِمِ بِالضْحَى.

(٥٦) الصناعتين: ٤٠٠.

(٥٧) العملة: ١ / ٥٧١ و ٥٧٢.

(٥٨) تحرير التحرير: ١٦٦.

(٥٩) البديع: ٥٣.

ذكر ابن المعتز أنَّ الجاحظ قد سبقه إلى تسمية هذا المذهب من البديع، وهو مذهب يخلو منه كتاب الله، وجعل من أمثله في أشعار المتقدمين قول الفرزدق^(٦٠):

لِكُلِّ امْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَأُخْرَى يُعَاصِيهَا الْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

وفي أشعار المحدثين قول إبراهيم بن العباس^(٦١):

وَعَلَّمْتَنِي كَيْفَ الْهَوَى وَجَهْلُهُ وَعَلَّمْتُمْ صَبْرِي عَلَى ظُلْمِكُمْ ظُلْمِي
وَأَعْلَمُ مَا لِي عِنْدَكُمْ فَيَمِيلُ بِي هَوَايَ إِلَى جَهْلِي فَأُعْرِضُ عَنْ حِلْمِي

وختم هذا الباب بذكر أمثلة مما عيب فيه قال^(٦٢): «وممن أساء في هذا

المعنى العلوي الكوفي حيث يقول^(٦٣):

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ قَلْبًا لَوْ كَحَلَّتْ بِهِ عَيْنُكَ لَأَكْتَحَلْتُ مِنْ حَرِّهِ بِدَمٍ

ويظهر من الأمثلة التي أوردها ابن المعتز في هذا الباب أنه يقوم على

الجدل والسؤال والحجج العقلية التي شُهرَ بها أصحابُ الملل والمناظرات الفكرية.

وقد أخذ أبو هلال العسكري^(٦٤) هذا الباب بتسميته وجُلَّ ما ساقه ابن

المعتز من شواهد عليه.

(٦٠) شرح ديوانه: ٢ / ٦٣.

(٦١) ديوان إبراهيم بن العباس الصولي في (الطرائف الأدبية): ١٥٠. العمدة: ٢ / ٦٩٢.

معاهد التنصيص: ٣ / ٤٩.

(٦٢) ينظر: البديع: ٥٦ و ٥٧.

(٦٣) الزهرة: ١ / ٨٣.

(٦٤) الصناعتين: ٤٢٦.

وأدرج ابن رشيق^(٦٥) ما جاء به ابن المعتز في باب سمّاه باب التكرار، وبعده بقرنين من الزمن نجد ابن أبي الأصبغ قد أفرد المذهب الكلامي في باب مستقل.

ثم أتبع ابن المعتز الأبواب الخمسة السابقة بما أسماه محاسن الكلام، وهي الأبواب الآتية:

باب الالتفات:

قال ابن المعتز^(٦٦): «وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر».

وجعل من أمثله قول الله جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِرِجْمِ رَبِّيعِ طَبِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ١٩ - ٢١].

وذكر من المنظوم قول جرير^(٦٧):

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سُقِيَتِ الْغَيْثَ أَتَيْتُهَا الْخِيَامُ
أَتَنَسَى يَوْمَ تَضَقُّلُ عَارِضِيهَا بَعُودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ

وقول الطائي^(٦٨):

وَأَنْجَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِنْهَامِ دَارِكُمْ فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ

(٦٥) العمدة: ٢ / ٦٩٢ و٦٩٣.

(٦٦) ينظر: البديع: ٥٨ و٥٩.

(٦٧) ديوان جرير: ١ / ٢٧٨ و٢٧٩.

(٦٨) ديوان أبي تمام: ٢ / ١١٠.

وقول جرير^(٦٩):
 [من الكامل]
 طَرَبَ الْحَمَامُ بِذِي الْأَرَاكِ فَشَاقِنِي لَا زَلَّتْ فِي غَلَلٍ وَأَيْكَ نَاصِرِ
 وظهر أن ابن المعتز قد جعل الالتفات قسامين، أولهما: لفظي،
 وثانيهما: معنوي كما في بيت جرير إذ ترك الشاعر الحديث عن أشواقه التي
 هيَّجها الحمامُ مُنصرِفاً للدَّعاء له بأن يبقى بمثل تلك الدوحة.
 وقد جعل أبو هلال العسكري^(٧٠) الالتفات على ضربين، وهو بذات
 الاسم عند ابن رشيق^(٧١) الذي أشار إلى الاختلاف في تسميته.

باب الاعتراض:

قال ابن المعتز^(٧٢): «ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر اعتراض كلام
 في كلام لم يُتَمِّمْ معناه ثم يعود إليه فيُتَمِّمُهُ في بيت واحد».
 ومن أمثله قول كثير^(٧٣):
 [من الوافر]
 لو انَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمَطَالَ
 وقول النابغة الجعدي^(٧٤):
 [من الوافر]
 أَلَا زَعَمَتْ بَنُو سَعْدٍ بَأَنِّي أَلَا كَذَبُوا كَبِيرُ السِّنِّ فَإِنْ
 ويظهرُ تَبُّهُ ابن المعتز إلى وحدة معنى البيت في نظم الشعر، وتماسك

(٦٩) ديوان جرير: ٢ / ٣٠٧.

(٧٠) الصناعتين: ٤٠٧.

(٧١) العمدة: ١ / ٦٣٦ وما بعدها.

(٧٢) ينظر: البديع: ٥٩ و٦٠ و٧٧.

(٧٣) ديوان كثير: ٥٠٧.

(٧٤) نُسب له في: كتاب المعمرين: ٦٤. خزانة الأدب: البغدادي: ٣ / ١٦٨. وهو في ديوان

النابغة الذبياني: ٢٣٣.

أجزائه، والابتعاد عن تعلق معناه بالبيت الذي يليه، إذ يعدُّ هذا التعلق عيباً من عيوب النظم^(٧٥) عند النقاد، ويُسمَّى التضمين، وجعل ابن المعتز حسن التضمين في باب مفرد.

وهذا الباب عند أبي هلال العسكري بتسميته^(٧٦) وحده، أمّا ابن رشيق^(٧٧) فقد سمّاه التميم أو التمام وأطال القول فيه، وسمّاه ابن أبي الأصبغ^(٧٨) باب التمام.

باب الرجوع:

وهو أن يقول شيئاً ويرجع عنه^(٧٩):

[من الكامل]

وجعل من أمثله قول بشار^(٨٠):

عِنْدَ الْأَمِيرِ وَهَلْ عَلَيْهِ أَمِيرٌ

تُبْتُ فَاصِحَ أُمَّهِ يَغْتَابِنِي

[من الرجز]

وقول أبي نواس^(٨١):

إِلَّا النَّبِيُّ الطَّاهِرُ الْأَمِينُ

يَا خَيْرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بَلَى هَارُونَ

إِمَامٌ عَدْلٍ مَالَهُ قَرِينُ

[من الطويل]

وقول آخر^(٨٢):

(٧٥) ينظر: الزهرة: ٢ / ٨٢٥. العقد الفريد: ٦ / ٣٥٥. الموشح: ٢٤. الصناعتين: ٤٢.

العمدة: ١ / ٣٢٢.

(٧٦) الصناعتين: ٤١٠.

(٧٧) العمدة: ١ / ٦٤٥.

(٧٨) ينظر: تحرير التحبير: ١٢٧.

(٧٩) ينظر: البديع: ٦٠.

(٨٠) العمدة: ١ / ٦٤١.

(٨١) نقد الشعر: قدامة بن جعفر: ١٧٢. الموشح: ٢٤١ و ٢٤٧.

(٨٢) شعر يزيد بن الطثرية: ٨٨.

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَيْكَ وَكَأَنَّ لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلٌ
وقد نقل أبو هلال العسكري^(٨٣) التسمية وبعض شواهد ابن المعتز؛
وأدرجها في فصل مستقل.

باب حسن الخروج من معنى إلى معنى^(٨٤):

ومن أمثله قول بشار^(٨٥):
[من الطويل]
خَلِيلِي مِنْ جَرَمٍ أَعِينَا أَخَاكَمَا عَلَى دَهْرِهِ إِنَّ الْكَرِيمَ مَعِينُ
وَلَا تَبْخَلَا بُحْلَ ابْنِ قَزَعَةَ إِنَّهُ مَخَافَةَ أَنْ يُرَجَى نَدَاهُ حَزِينُ
إِذَا جِئْتَهُ فِي الْحَقِّ أَغْلَقَ بَابَهُ فَلَمْ تُلْفِهِ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ
وقول زهير^(٨٦):
[من البسيط]

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَ لَ كَنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمُ
وقد سمى أبو هلال العسكري^(٨٧) هذا الباب باب الاستطراد؛ ونقل ما
أورده ابن المعتز من شواهد، وكذلك الأمر عند ابن رشيق^(٨٨)، ومن بعده
ابن أبي الأصبع.

(٨٣) ينظر: الصناعتين: ٤١١.

(٨٤) ينظر: البديع: ٦٠ و٦١.

(٨٥) ديوان بشار: ٤ / ٢١١. ورواية صدر البيت الأول فيه: خَلِيلِي مِنْ جَرَمٍ أَعِينَا أَخَاكَمَا.

ورواية البيت الثالث:

إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تُلْفِهِ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ

(٨٦) شرح ديوان زهير: ١٥٢.

(٨٧) ينظر: الصناعتين: ٤١٤.

(٨٨) ينظر: العمدة: ١ / ٦٢٨. تحرير التحبير: ١٣٠.

باب تأكيد المدم بما يشبه الذم^(٨٩):

ومن أمثله قول الذبياني^(٩٠): (من الطويل):
 وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
 وقول النابغة الجعدي^(٩١): (من الطويل):
 فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَافُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
 وهذا الباب وشواهدة عند أبي هلال العسكري^(٩٢) باسم الاستثناء،
 وكذلك تسميته عند ابن رشيق^(٩٣)، وقد فصل القول فيه.
 أمّا ابن أبي الأصعب^(٩٤) فقد نقل التسمية والشواهد كما أوردها ابن المعتز.

باب تجاهل العارف^(٩٥):

ومثّل له بقول زهير بن أبي سلمى^(٩٦): [من الوافر]
 وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءُ
 وقول ابن أبي أمية^(٩٧): [من الطويل]
 فَدَيْتِكَ لَمْ تَشْعَ وَلَمْ تَرَوْ مِنْ هَجْرِي أَتَّحَسِّنُ الْهَجْرَانَ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ

(٨٩) ينظر: البديع: ٦٢.

(٩٠) ديوان النابغة الذبياني: ٤٤.

(٩١) العملة: ١ / ٦٤٣. تحرير التحرير: ١٣٣.

(٩٢) الصناعتين: ٤١٤.

(٩٣) العملة: ١ / ٦٤٢.

(٩٤) ينظر: تحرير التحرير: ١٣٣.

(٩٥) ينظر: البديع: ٦٢.

(٩٦) شرح ديوان زهير: ٧٣.

(٩٧) العملة: ١ / ٢٧٣.

أَرَانِي سَأَسْأَلُو عَنْكَ إِنْ دَامَ مَا تَرَى بِلَا ثِقَّةٍ لَكِنْ أَظُنُّ وَلَا أَدْرِي
وقد سمى أبو هلال العسكري^(٩٨) هذا الباب: باب تجاهل العارف
ومزج الشك باليقين.

أمَّا ابن رشيق^(٩٩) فقد سمّاه باب التَّشْكُّك، ونقل شواهد ابن المعتز غير
شاهد واحد منها، وهذا الباب بتسميته عند ابن أبي الأصعب^(١٠٠).

باب الهزل يُراد به الجد^(١٠١):

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن المعتز قول أبي العتاهية^(١٠٢): [من البسيط]
أُرْزِقُكَ أُرْزِقُكَ بِسْمِ اللَّهِ أُرْزِقُكَ مِنْ بُخْلِ نَفْسٍ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيكَ
مَا سَلِمَ نَفْسِكَ إِلَّا مَنْ يُتَارِكُهَا وَمَا عَدُوُّكَ إِلَّا مَنْ يُرْجِيكَ
وقول أبي نواس^(١٠٣): [من الطويل]

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ عَدَّ عَن ذَا كَيْفَ أَكَلُكَ لِلضَّبِّ
وقد أدرج ابن رشيق هذا الباب في باب الاقتضاء والاستنجاز قال^(١٠٤):
«وابن المعتز يسمي هذا النوع مزحاً يراد به الجد»، وذكره ابن أبي
الأصعب^(١٠٥) بتسميته.

(٩٨) الصناعتين: ٤١٢.

(٩٩) العمدة: ١/٦٧٠.

(١٠٠) ينظر: تحرير التحبير: ١٣٥.

(١٠١) ينظر: البديع: ٦٣.

(١٠٢) تحرير التحبير: ١٣٩. معاهد التنصيص: ٣/١٥٨.

(١٠٣) تحرير التحبير: ١٣٩. الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٨٥.

(١٠٤) العمدة: ٢/٨٢٧.

(١٠٥) تحرير التحبير: ١٣٨.

باب حسن التضمين^(١٠٦):

ومن أمثله قول الأخيطل^(١٠٧):
ولقد سَمَا لِلخُرْمِيِّ فلم يُقْلُ بعدَ الوغَى (لكنْ تَضَائِقَ مُقْدَمِي)
[من الكامل]
وقول آخر^(١٠٨):
[من السريع]

عَوَّذَ لَمَّابِتُّ ضَيْفًا لَهُ أَقْرَاصُهُ بُخْلًا بِيَّاسِينَ
فَبِتُّ وَالْأَرْضُ فِرَاشِي وَقَدْ غَنَّتْ (قِفَا نَبِك) مَصَارِينِي
وظهر التضمين في المثالين حيث ضمن الأخيطل جزءاً من بيت
عترة^(١٠٩)، وضمن الآخر أول لفظين من مطلع معلقة امرئ القيس^(١١٠).
ونقل أبو هلال العسكري^(١١١) ما وضعه ابن المعتز في هذا الباب، وقد سمّاه
ابن رشيق^(١١٢): باب التضمين والإجازة، وهو بتسميته عند ابن أبي الأصبغ^(١١٣).

باب التعريض والكناية^(١١٤):

جعل ابن المعتز من أمثلة هذا الباب قول بعض ولد العباس بن محمد
لابنه يابن الزانية فقال: الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك.

(١٠٦) ينظر: البديع: ٦٤.

(١٠٧) الصناعتين: ٤٢ بلا نسبة.

(١٠٨) الصناعتين: ٤٢ بلا نسبة.

(١٠٩) شرح ديوانه: ١٨١.

(١١٠) ديوانه: ٨.

(١١١) ينظر: الصناعتين: ٤٢.

(١١٢) العمدة: ٢ / ٧٠٢.

(١١٣) تحرير التحبير: ١٤٠.

(١١٤) ينظر: البديع: ٦٤.

وقول آخر في حجام^(١١٥): [من الطويل]

أَبُوكَ أَبٌ مَا زَالَ لِلنَّاسِ مُوجِعاً لَأَعْنَاقِهِمْ نَقْرًا كَمَا يَنْقُرُ الصَّقْرُ
إِذَا عَوَّجَ الكُتَابُ يَوْمًا سَطُورَهُمْ فَلَيْسَ بِمُعَوِّجٍ لَهُ أَبَدًا سَطْرُ

فقد ورد هذان المصطلحان متلازمان عند ابن المعتز، ولم يُبين حدَّهما، أو يُعرفهما، واكتفى بذكر مجموعة من الشواهد التي تحمل دلالة التعريض، ولعلَّ في هذا ما يدلُّ على وحدة دلالتها عنده.

أمَّا أبو هلال العسكري^(١١٦) فقد قدّم في تسمية هذا الباب لفظ الكناية على التعريض، وأدرج أمثلة ابن المعتز في مصنّفه، وتحدّث ابن رشيق^(١١٧) على التعريض في باب الإشارة، وأفرد ابن أبي الأصبغ باباً للكناية^(١١٨).

باب الإفراط في الصفة^(١١٩):

فَمِمَّنْ مَلَّحَ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيَّ فِي قَوْلِهِ^(١٢٠):

[من المديد]

يَا أَخَالَمْ أَرَّ فِي النَّاسِ خِلاً مِثْلَهُ أَسْرَعُ هَجْراً وَوَصْلاً
كُنْتُ لِي فِي صَدْرِ يَوْمِي صَدِيقاً فَعَلَى عَهْدِكَ أَمْسَيْتَ أَمْ لَا

[من السريع]

وقال آخر يهجو رجلاً^(١٢١):

(١١٥) البيت بلا نسبة في: كتاب التشبيهات: ابن أبي عون: ٢٧٢. الصناعتين: ٢٨٧.

(١١٦) الصناعتين: ٣٨١ وما بعدها.

(١١٧) ينظر: العمدة: ١ / ٥١٣ وما بعدها.

(١١٨) ينظر: تحرير التحيير: ١٤٢.

(١١٩) ينظر: البديع: ٦٥ وما بعدها.

(١٢٠) ديوان الصولي: ١٦٤. الصناعتين: ٣٧٥.

(١٢١) الصناعتين: ٣٧٣. بلا نسبة.

تَبْكِي السَّمَاوَاتُ إِذَا مَا دَعَاهُ وَتَسْتَعِيدُ الْأَرْضُ مِنْ سَجْدَتِهِ
 إِذَا اشْتَهَى يَوْمًا لُحُومَ الْقَطَا صَرَعَهَا فِي الْجَوِّ مِنْ نَكْهَتِهِ
 وقال عباس الخياط يهجو إماماً بطيء القراءة^(١٢٢): [من المنسرح]
 إِنَّ قَرَأَ (العَادِيَاتِ فِي رَجَبٍ) لَمْ يَقْرَأْ آيَاتَهَا إِلَى رَجَبٍ
 بَلْ هُوَ لَا يَسْتَطِيعُ فِي سَنَةٍ يُخْتَمُّ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ)
 ونجد أبا هلال العسكري^(١٢٣) قد أفرد باباً سمّاه: باب الغلو، وأبان
 حدّه، وأدرج شواهد فيها شواهد ابن المعتز. وكذلك سمّاه ابن رشيق^(١٢٤)،
 وتبع ابن أبي الأصعب^(١٢٥) ابن المعتز في تسمية هذا الباب.

باب حسن التشبيه^(١٢٦):

وقف ابن المعتز عند هذا الباب وقفة مُطَوَّلَةٌ مفاضلاً بين جمال أبياته، بين
 تشبيه حسن، وتشبيه عجيب، وتشبيه مُستحسن عند قدماء الشعراء ومحدثيهم.
 وبدأ أمثله بقول امرئ القيس^(١٢٧): [من المتقارب]
 وَمَسْرُودَةَ السَّكِّ مَوْضُونَةٌ تَضَاعَلُ فِي الطِّيِّ كَالْمِبْرِدِ
 تَفِيضٌ عَلَى الْمَرِّ أَرْدَانُهَا كَفَيْضِ الْأَتِيِّ عَلَى الْجَدِّ

(١٢٢) الصناعتين: ٣٧٥. بلا نسبة.، وذَكَرَ عباس الخياط في الموشح: ٢٩٢. خزانة الأدب:
 البغدادي: ٤ / ٢٩٢.

(١٢٣) ينظر: الصناعتين: ٣٦٩ وما بعدها.

(١٢٤) ينظر: العمدة: ١ / ٦٦١ وما بعدها.

(١٢٥) ينظر: تحرير التحبير: ١٤٧.

(١٢٦) ينظر: البديع: ٦٨ وما بعدها.

(١٢٧) ديوانه: ١٨٧ و ١٨٨. ورواية الشطر الأول: ومشدودة السكِّ مَوْضُونَةٌ، يريد: درعاً.
 الموضوعية: المنسوجة كالوضيين. تضاعل في الطي: تلطف وتصغر. أردانها: أكمامها.
 تفيض: سابعة تامة. الأتي: السيل الذي يأتي من كلِّ جانب. الجدجد: الأملس من الأرض.

وقوله (١٢٨): [من الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وقول النابغة الذبياني (١٢٩): [من الطويل]

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ زُورًا عُيُونُهَا جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي مُسُوكِ الْأَرَانِبِ

وأفرد فقرة للتشبيهاة العجيبة، وجعل من أمثلتها قول ابن مقبل (١٣٠):

[من البسيط]

وَلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَبْهَرِهِ لَدَمَ الْغَلَامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ

وقول الأعمش (١٣١): [من الطويل]

وَعُرِّيَتْ مِنْ مُلْكٍ وَخَيْرٍ جَمَعَتْهُ كَمَا عُرِّيَتْ مِنْ مِمَّا تَمُرُّ الْمَغَازِلُ

وقول عترة بن شداد في الغراب (١٣٢): [من الكامل]

حَرِقَ الْجَنَاحُ كَأَنَّ لِحْيِي رَأْسَهُ جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعُ

إِنَّ الَّذِينَ نَعَبْتَ لِي بِفِرَاقِهِمْ هُمْ أَشْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ وَأَوْجَعُوا

وأتبع ذلك بأشعار المحدثين جاعلاً من أحسن التشبيه قول بشار (١٣٣):

[من الوافر]

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُورَةٌ تَنْزَى حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ

(١٢٨) ديوانه: ٣٨.

(١٢٩) ديوانه: ٤٣. والرّواية فيه:

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خِزْرًا عُيُونُهَا جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ

(١٣٠) ديوانه: ٨٤. ورؤية عجز البيت فيه: لَدَمُ الْوَلِيدِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ.

(١٣١) ديوانه: ١٨٥.

(١٣٢) ديوانه: ٩٤.

(١٣٣) ديوانه: ٢٤٨ / ٣. والرّواية فيه:

كَأَنَّ فُؤَادَهُ يَنْزَى حِذَارًا حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ

وقول منصور بن الفرّج^(١٣٤): [من الكامل]
 إِنَّ تَأْتِيهِ يَكُ مِنْهُ رَبْعُكَ مُخْصِبًا والأَرْضُ مُجْدِبَةٌ كَحَدِّ الْأَمْرِدِ
 طَلَبَ الْمَحَامِدَ جَاهِدًا وَهِيَ الَّتِي لَا يَحْتَوِيهَا طَالِبٌ لَمْ يَجْهَدِ
 ومما يستحسن من التشبيه من أشعار المحدثين:

قول أبي نواس^(١٣٥): [من الرجز]
 لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ حِجَابِهِ كَطَلَعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ جِلْبَابِهِ
 ومن التشبيه الحسن:

قول البحترى^(١٣٦): [من الكامل]
 تُخْفِي الزَّجَاجَةَ نُورُهَا فَكَأَنَّهَا فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ بغيرِ إِنَاءِ
 وقول الأسدي^(١٣٧): [من الطويل]
 إِذَا نَحْنُ رُمْنَا هَجَرَهَا ضَمَّ حُبُّهَا صَمِيمَ الْحَشَا ضَمَّ الْجَنَاحَ الْخَوَافِيَا
 ومن عجائب التشبيه:

قول أبي نواس^(١٣٨): [من التسريع]
 تَبْكِي فَتَذْرِي الدُّرَّ مِنْ نَرَجِسٍ وَتَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَابِ
 وقد أفرد أبو هلال العسكري^(١٣٩) باباً للحديث عن التشبيه جعله في

(١٣٤) كتاب التشبيهات: ٣٦٢.

(١٣٥) شرح ديوانه: ١ / ١٦٧. ورواية القافية فيه: حجابيه.

(١٣٦) ديوانه: ١ / ٤. وفي ديوان ابن المعتز: ٢٠٧. رابع ثلاثة أبيات.

(١٣٧) الزهرة: ١٨٧. نسبه إلى الأقرع بن معاذ القشيري، ورواية عجز البيت فيه:

صَمِيرَ الْحَشَا ضَمَّ الْجَنَاحَ الْخَوَافِيَا

(١٣٨) كتاب التشبيهات: ١ / ١١٧. الزهرة: ١ / ٣٩٥.

(١٣٩) ينظر: الصناعتين: ٢٤٥ و ٢٦٣.

فصلين، أولهما في حدّ التشبيه وما يستحسن من مشور الكلام ومنظومه،
وثانيهما في البيان عن قبح التشبيه وعيوبه.

ونجد ابن رشيّق^(١٤٠) قد أفرد باباً مستقلاً للتشبيه أيضاً، وكذلك الأمر
عند ابن أبي الأصبع^(١٤١).

باب حسن الابتداءات^(١٤٢):

وقد بدأها بذكر شواهد من الشعر القديم منها:

قول النابغة الذبياني^(١٤٣): [من الطويل]

كَلِينِي لِهَمِّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

وقول الأعشى^(١٤٤): [من الطويل]

كَفَى بِالَّذِي تُؤَلِّينَهُ لَوْ تَحَبَّبَا

وأتبعها بذكر ابتداءات الشعراء المحدثين ومنها:

قول أبي تمام^(١٤٥): [من الطويل]

أَجَلٌ أَيُّهَا الرِّبْعُ الَّذِي خَفَّ أَهْلُهُ لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ التَّوَى مَا تُحَاوِلُهُ

وقول أبي حية^(١٤٦): [من الطويل]

أَلَا حَيٍّ مِنْ أَجْلِ الحَبِيبِ المَغَانِيَا لَبِسْنَ البَلَى مِمَّا لَبَسْنَ اللَّيَالِيَا

(١٤٠) ينظر: العمدة: ١ / ٤٨٨ وما بعدها.

(١٤١) ينظر: تحرير التحبير: ١٥٩.

(١٤٢) البديع: ٧٥ و٧٦.

(١٤٣) ديوانه: ٤٠.

(١٤٤) ديوانه: ١١٣. هذا صدر وعجزه: شفاء لسقمٍ بعدما كان أشيباً.

(١٤٥) ديوانه: ٣ / ٢١.

(١٤٦) شعره: ١٠٠.

لعل الحديث على ابتداءات القصائد من نافلة القول إذ كان للمطالع أثرها على الشاعر والمتلقي، وكان لها نصيب من اهتمام المصنفين في البلاغة العربية والنقد الأدبي، فقد أفرد أبو هلال العسكري^(١٤٧) فصلاً سمّاه في ذكر المبادئ، وأفرد ابن رشيق^(١٤٨) باباً سمّاه باب المبدأ والخروج والنهاية، وذكرها ابن أبي الأصبح^(١٤٩) بتسمية ابن المعتز، وقد أشار إلى ذلك.

ويتبين من استقراء هذا الكتاب:

- أن كتاب البديع يشتمل على قسمين:

أ- أبواب البديع الخمسة التي حدّدها المصنف، وهي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردُّ أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، وهي من أبواب البلاغة العربية.

ب- محاسن الكلام والشعر، وهي:

الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأکید المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، وهزلٌ يُراد به جدّ، وحسن التضمين، والكناية والتعريض، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، وحسن الابتداءات.

- أن ابن المعتز وضع في كتابه ما ارتضاه من فنون البديع.

- أن ابن المعتز قد أفاد من جهود سابقه كما أخذ عنه بعض من جاء بعده، وهو أمر حتمي تفرضه صلة الموروث الأدبي عبر الأجيال المتلاحقة، ومما أشار إلى إفادته منه:

إفادته من كتاب الأجناس للأصمعي وقد اتخذ سبيله، أو نهج نهجه.

(١٤٧) ينظر: الصنائع: ٤٥١ وما بعدها.

(١٤٨) ينظر: العمدة: ١ / ٣٨٨ وما بعدها.

(١٤٩) ينظر: تحرير التحرير: ١٦٨ وما بعدها.

واعتمد قول الخليل بن أحمد الفراهيدي في بيان حدّ المطابقة.
وفي تسمية المذهب الكلامي إذ اعتمد قول الجاحظ، ومن بعده قد
أفرد له أبو هلال العسكري باباً اتكأ فيه على ما أورده ابن المعتز^(١٥٠)،
وأسماء ابن رشيّق التكرار، وأفرد له باباً قال فيه^(١٥١):

«وقد نقلت هذا الباب نقلاً من كتاب عبد الله بن المعتز»، ذكر ابن
رشيّق أنّه وضع في مصنّفه ما كتبه ابن المعتز.

- وفي حديثه على الالتفات^(١٥٢) أورد قول جرير الذي أورده أبو علي
الحاتمي، وأورده أبو هلال العسكري، وكذلك هو عند ابن رشيّق^(١٥٣).
- أنّ نصوصاً وردت في كتاب ابن المعتز هذا نقلها المهتمون
بالتصنيف في البلاغة والنقد من بعده.

- أنّ بعض الأبواب التي ذكرها ابن المعتز يُدرج في المصطلحات
البلاغية.

- أنّ ابن المعتز قد تقدم في تأليف هذا الكتاب أو خطأ خطوة لم تكن
لمعاصريه كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد أو سابقه كأبي عبيدة معمر بن المثنى
الذين كان تأليفهم تأليفاً موسوعياً مختلطاً يشمل ضرورياً من المعارف العامة،
ولعلّ كتابه هذا أوّل مُصنّف متخصص في موضوعه عند العرب.

* * *

(١٥٠) ينظر الصناعتين: ٤٢٦.

(١٥١) العمدة: ٢ / ٦٩٤.

(١٥٢) ينظر في أولية مصطلح الالتفات (حديث الأصمعي) في: حلية المحاضرة: ٥٧،
الصناعتين: ٤٠٧.

(١٥٣) العمدة: ١ / ٦٣٩.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، نشر: ج. هيورث. دن. ط ٣، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م.
- البديع: ابن المعتز، نشر باعتناء: إغناطيوس كراتشكوفسكي، ط ٣، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- حلية المحاضرة: محمد بن الحسن الحاتمي، تحقيق: هلال ناجي، ١٩٨٨م.
- خزانة الأدب: عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، في الطرائف الأدبية، تصحيح: عبد العزيز الميمني، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٢٧م.
- ديوان الأعشى الكبير، شرح: د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز. تاريخ المقدمة ١٩٥٠م.
- ديوان الأقيشر الأسدي، صنعة: د. محمد علي دقة، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٥، دار المعارف، مصر، تاريخ الإيداع، ١٩٩٠م.
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- ديوان البحري، ضبط وتصحيح: عبد الرحمن البرقوقي، ط ١، مصر، ١٣٢٩هـ / ١٩١١م.
- ديوان بشار بن برد، نشر: محمد الطاهر ابن عاشور، راجعه: محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة.
- ديوان أبي تمام (شرح التبريزي)، تحقيق: محمد عبده عزام، ط ٣، دار المعارف، مصر.
- ديوان جرير: (بشرح محمد بن حبيب)، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط ٣، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م.
- ديوان الحطيئة (برواية وشرح ابن السكيت)، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط ١، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ديوان ذي الرُّمّة، تحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ديوان الطفيل الغنوي (شرح الأصمعي): تحقيق: حسان فلاح أوغلي، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ديوان القطامي، تحقيق: د. محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ديوان كثير عزة، جمع: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
- ديوان مجنون ليلى، قدم له: مجيد طراد، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ديوان ابن المعتز، وقف على طبعه: محيي الدين الخياط، مطبعة الإقبال، بيروت، ١٣٣٢هـ.

- ديوان ابن مقبل، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت / دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م.
- ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، جمع وتحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، ط ٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- الزهرة: أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ط ٢، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى (صنعة ثعلب)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق: د. سامي الدهان، ط ٣، دار المعارف، مصر، تاريخ الإيداع ١٩٨٥م.
- شرح ديوان عنتر بن شداد: الخطيب التبريزي، قدم له: مجيد طراد، ط، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- شرح ديوان الفرزدق: إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة، ط ١، بيروت، ١٩٨٣م.
- شرح ديوان لييد بن ربيعة العامري، تحقيق: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.
- شرح ديوان أبي نواس: إيليا الحاوي، ط ١، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م.
- شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمع وتحقيق: د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت.

- شعر أبي حية النميري، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دمشق، ١٩٧٥ م.
- شعر يزيد بن الطثرية، صنعة: حاتم الضامن، بغداد، ١٩٧٣ م.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط ٢، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
- الفائق في غريب الحديث والأثر: الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعرفة، لبنان.
- كتاب التشبيهات: ابن أبي عون، تصحيح: محمد عبد المعين خان، مطبعة جامعة كمبردج، د.ت.
- كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار الفكر العربي.
- كتاب الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد أبو العباس: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- كتاب المعمرين: أبو حاتم السجستاني، تصحيح: محمد أمين الخانجي، ط ١، مصر، ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م.
- المحب والمحبوب والمشموم والمشروب: السري بن أحمد الرفاء، تحقيق: ماجد حسن الذهبي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.

- معاهد التنقيص: عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، وقف على طبعه: محب الدين الخطيب، ط ٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د. عبد المنعم خفاجي، ط ١، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
- وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

* * *

المقالات والآراء

كاد - يكاد

أ. د. مكّي الحسني (*)

هذا الفعل كثير الاستعمال في البيان القرآني وفي كلام العرب. وقد اختلفت آراء اللغويين والنحويين في دلالاته وأسلوب استعماله، وهذا ما حداني على كتابه هذه «الصفحة» لعرض أهم ما قيل فيه، والتعليق عليه.

سننظر في الترايب: كاد يفعل - ما كاد يفعل - لا يكاد يفعل - كاد لا يفعل - يكاد لا يفعل - إن كاد ليفعل وغيرها.

(كاد) من أفعال المقاربة، وهي من أخوات (كان): اسمها مرفوع أبداً، وخبرها مضارع أبداً، مجردٌ من (أن) غالباً، نحو:
- كاد يغرق لولا أن بَصُرَ به قوم من أهل قريته. (ابن المقفّع). المعنى:
لم يغرق.

- عطشوا حتى لم يكادوا أن يُبصروا من العطش (الأصبهاني).

- قال الشاعر يرثي:

كادت النفسُ أن تفيض عليه إذ غدا حَشَوَ رَيْطَةَ وَبُرودِ

أي: كادت روح الشاعر تخرج حين رأى المَرَثِيَّ في كَفَنِهِ.

- قال رؤبة بن العجاج:

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

رَبُّعٌ عَفَاهُ الدَّهْرُ طَوَّلًا فَانْمَحَى قَد كَادَ مِنْ طَوَّلِ الْبَلَى أَنْ يَمْصَحَا
 أي: أزال الدهر معالم الرَّبِّعِ (المنزل الربيعي) زمنًا طويلاً فانمحي وكاد
 يذهب...

- قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].
 - وقال: ﴿يَكَادُ زَيْتَهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].
 - وقال: ﴿ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ [النور: ٤٠].
 ويستعمل (كاد، يكاد) مثبتًا كما رأينا، ومنفيًا بصيغة الماضي بدخول
 (ما) النافية عليه (على المنهاج) [لأن (لا) تدخل على الماضي لتفيد الدعاء
 إذا لم تكرر!] نحو: ما كِدْتُ، ما كاد، ما كادوا. ومنفيًا بصيغة المضارع،
 بدخول (لا) عليه: لا يكاد، أو بدخول (لم) عليه: لم يكد.

لا خلاف في معنى (كاد) حين يستعمل مثبتًا، وهو: هَمَّ وقَارَبَ الفعلَ
 ولم يفعل، كما رأينا في الأمثلة المذكورة آنفًا. هذا أشهر معانيه.
 أما حين يُستعمل منفيًا فقد أورد صاحب (اللسان) في مادة (ك ي د)
 الآراء الآتية:

«الفرّاء^(١) (ت ٢٠٧هـ): العرب تقول: ما كِدْتُ أَبْلُغُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ قَدْ
 بَلَغْتَ؛ قال: وهذا هو وجه العربية؛ ومن العرب من يُدخِلُ (كاد) و(يكاد) في
 اليقين وهو بمنزلة الظنّ، أصله الشكّ ثم يُجعلُ يقينًا.

وقال الأخفش (ت ١٧٧هـ) في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ حُمِلَ عَلَى
 المعنى وذلك أنه لا يراها، وذلك أنك إذا قلت كاد يفعل إنما تعني قارب
 الفعل، ولم يفعل على صحة الكلام، وهكذا معنى الآية، إلا أن اللغة قد
 أجازت لم يكد يفعل وقد فَعَلَ بعد شِدَّة، وليس هذا صحة الكلام، لأنه إذا

(١) أضفت تواريخ وفاة العلماء المذكورين هنا.

قال كاد يفعل فإنما يعني قارب الفعل، وإذا قال لم يكد يفعل لم يُقارب الفعل، إلا أن اللغة جاءت على ما فسّر، قال: وليس هو على صحة الكلمة.

وقال الفراء: إذا أخرج يده لم يكد يراها من شدة الظلمة، لأن أقل من هذه الظلمة لا ترى اليد فيه. وأما لم يكد يقوم فقد قام، هذا أكثر اللغة!

ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ): قال اللغويون: كِدْتُ أَفْعَلُ معناه عند العرب قاربتُ الفعلَ ولم أَفْعَلْ، وما كدت أَفْعَلُ معناه فعلتُ بعد إبطاء. قال: وشاهدُهُ قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ معناه فعلوا بعد إبطاء لِتَعَدَّرَ وَجَدَانِ البقرة عليهم. وقد يكون ما كدتُ أَفْعَلُ بمعنى ما فعلتُ ولا قاربتُ إذا أَكَّدَ الكلامُ بِأَكَادٍ. قال أبو بكر^(٢) في قولهم: قد كاد فلانٌ يَهْلِكُ؛ معناه قد قاربَ الهلاكَ ولم يَهْلِكْ، فإذا قلت ما كاد فلانٌ يقوم، فمعناه قام بعد إبطاء؛ وكذلك كاد يقوم معناه قارب القيام ولم يقم؛ قال: وهذا وجه الكلام، ثم قال: وتكون كاد صلةً للكلام^(٣). أجاز ذلك الأخفش وقطرب وأبو حاتم؛ واحتجَّ قطرب بقول الشاعر:

سريعٌ إلى الهَيْجَاءِ، شاكٍ سِلاحُهُ فما إن يكادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ
معناه ما يتنفسُ قِرْنُهُ. [أقول: إن زائدة بعد ما النافية، يكاد صلة، قِرْنُهُ: مثله في الشجاعة، شاكٍ سِلاحُهُ: سلاحُهُ كامل. م ح].

وقال حسان:

وتكاد تكسلُ أن تجيء فراشها في جسم خَرَعَبَةٍ وحُسنِ قِوامِ
معناه وتكسلُ [أقول: تكاد زائدة، والمعنى: تكسلُ الشابة البيضاء الحسنة القوام أن تجيء فراشها لدلالها].

(٢) يريد الأنباري.

(٣) صلة: زائدة للتوكيد.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾؛ معناه لم يرَها ولم يقارب ذلك. وقال بعضهم: «رأها من بُعدٍ أن لم يكد يراها من شدة الظلمة». (انتهى الاقتباس من اللسان).
نرى فيما سبق تعليلاً للقول الذي اشتهر بين النحاة وهو أن (كاد إثباتها نفي، ونفيها إثبات).

لكن الإمام الأشموني (ت قرابة ٩٠٠هـ) لم يقبل هذا القول!
وقد عالج المجمع المصري الأستاذ أحمد العوامري^(٤) مسألة تسليط النفي على كاد، وجواز تحويله إلى خبرها، بعد أن وجد في كتب الصناعة التي اطلع عليها أن النفي مسلط على كاد نفسها. وأورد في مقاله عبارة الأشموني في شرح الكافية:

«قد اشتهر القول بأن كاد إثباتها نفي ونفيها إثبات... ومن زعم هذا فليس بمصيب. بل حكم «كاد» حكم سائر الأفعال، وأن معناها منفي، إذا صحبها حرف نفي، وثابت إذا لم يصحبها. فإذا قال قائل: كاد زيد يبكي، فمعناه: قارب زيد البكاء. فمقاربة البكاء ثابتة، والبكاء مُنتفٍ. وإذا قال: لم يكديبكي، فمعناه: لم يقارب البكاء. فمقاربة البكاء منتفية، والبكاء منتفٍ انتفاءً أبعد من انتفائه عند ثبوت المقاربة. ولهذا كان قول ذي الرُّمّة:

إذا غيّر النأي المحبين لم يكدي رسيس^(٥) الهوى من حُبِّ مَيَّةٍ ييرح
صحيحاً بليغاً، لأن معناه: إذا تغير حُبُّ كل محبِّ، لم يقارب حُبِّي التغير.
وإذا لم يقاربه، فهو بعيد منه. فهذا أبلغ من أن يقول: لم ييرح، لأنه قد يكون غير بارح، وهو قريب من البراح. بخلاف المخبر عنه بنفي مقاربة البراح» اهـ.
نلاحظ أن كلام الأشموني يتفق تماماً مع المقولة: «نفي مُقاربة الفعل

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، العدد الأول، ص ١٤٠، صدر سنة ١٩٣٤.

(٥) الرسيس: الشيء الثابت - القاموس.

أشدُّ من نفيه». ويبدو أن اجتهاد الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) جاء مماثلاً لاجتهاد الأشموني، إذ قال في الكشف في تفسير الآية: ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ مبالغة في (لم يرها)، أي لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها! يبدو أن الإمام الخضري (ت ١٢٨٧ هـ) أخذ برأي الأشموني، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]: «الذبح لا يناقضه ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ الدالُّ على انتفاء الذبح بانتفاء مقاربتة، وذلك لعدم اتحاد زمنهما، الذي هو شرط التناقض، إذ المعنى فذبحوها بعد أن امتنعوا حتى لا يقربوا منه، ولا تناقض في ذلك» اهـ.

وقد وردت في سورة البقرة تفاصيل هذه القصة: فقد لَجَّ بنو إسرائيل لجاجاً طويلاً في الاستفسار والمماحكة عن صفات البقرة التي أمرُوا بذبحها، ممتنعين بذلك عن الإذعان لأمر الله، إلى أن عجزوا عن إيجاد عذرٍ يُسَوِّغُ امتناعهم، حينئذ ذبحوها.

فالسباق الذي وردت فيه الآية وما سبقها أوضح عدم اتحاد زمن الذبح وزمن الامتناع عنه.

دخول (لا) النافية على (يكاد):

لننظر الآن في بعض الآيات التي دخل فيها النفي على يكاد. يرى بعض المفسرين مثلما رأى الأشموني أن (نفي مقارنة الفعل أشدُّ من نفيه). ويرى بعض آخر أن المعنى غالباً ما يكون صعوبة أو ندرة حدوث الفعل الذي هو خبر يكاد.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ بَيْنُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. الكلام عن سيدنا موسى. المعنى: لا يقارب كلامه أن يظهر للثغته بالجمرة التي تناولها في صغره، أي يفهم كلامه بصعوبة.

وقال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧]. الكلام عن كل متكبر عن طاعة الله. المعنى: لا يقارب إساغته وتقبُّله فكيف يتقبله؟ فهو يتلعه بصعوبة وكراهة.

وقال: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. المعنى: لا يقاربون أن يفهموا حديثًا يُلقى إليهم من فرط جهلهم (وهم يهود المدينة) فيعلموا أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

وقال: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]. المعنى: لا يقاربون أن يفهموا قولًا يُلقى إليهم إلا بعد بقاء، وبجهدٍ ومشقة (من إشارةٍ ونحوها كما يفهم البكم) وذلك بسبب اختلاف لغتهم عن لغة ذي القرنين.

لننظر الآن في كلام بعض الفصحاء:

١- قال الإمام الزمخشري في الكشاف (٢/ ٥٤٤): لا تكاد تسمعهم (يريد العرب) يستعملون (صار) ولكن (عاد): ما عدت أراه، عاد لا يكلمني. المعنى: نادرًا ما تسمعهم يستعملون (صار).

٢- وقال في الكشاف (٣/ ٤٢٠): «فِعْلٌ (استجاب) يتعدى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي باللام، فيقال: استجاب الله دعاءه، أو استجاب لفلان. ويُحذف الدعاء إذا عُدي إلى الداعي في الغالب، فلا يكاد يقال: استجاب له دعاءه!». المعنى: نادرًا ما يقال ذلك.

٣- قال الثعالبي (في فقه اللغة): «لكل لفظه أسرارها وروحها بحيث لا تكاد تجد في ألفاظٍ متقاربة المعاني لفظًا تنوب عن أختها أو تقوم مقامها». المعنى: نادرًا ما تجد...

٤- قال العباسي (في معاهد التنصيص ١/ ٢٤٤): «ورد بأن لفظ الندى لا يكاد يستعمل في بذل النفس». المعنى: نادرًا ما يستعمل...

٥- قال الإمام الجرجاني (في دلائل الإعجاز ١٣٦/):

«هذا، وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نايبًا، وإنما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه كقوله: قد أغتدي والطير لم تكلم.» يقول لا يكاد يجيء إلا قلًا غير منسجم. هذا تركيب حضر. المعنى: نادرًا ما يجيء منسجمًا غير قلق.

٦- قال علي الجارم: «... كم من كنوز دُفنت في بطون الكتب اللغوية النافعة، فلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثرًا في صفحات المعجمات.» هذا أيضًا تركيب حضر. المعنى: قليلًا ما يلمح الطرف ذلك!

٧- قال صبحي البصام (في مجلة مجمع دمشق، المجلد ٥٨ - ص ٨٣٢):
... وهي تفيض بمصطلحاتها التي لا يكاد يُحصي عددها.

المعنى: يصعب إحصاؤها.

٨- لا يكاد يُفلح النخيل إذا أبرها البخيل! مثلٌ عربي. المعنى: لا يثمر النخيل إذا لُقح شجره البخيل! وهو من باب التشاؤم!

جواز نفي خبر كاد

قلنا إن الأستاذ العوامري وجد في كتب النحو التي اطلع عليها أن النفي كان دائمًا مسلطًا على كاد نفسها، ولم يتطرق أحد إلى جواز دخوله على خبرها. لكن العوامري وجد شاهدًا لجواز نفي خبر كاد، هو قول زهير بن أبي سلمى المُرَنيّ، في مطلع قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرَنيّ:
صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسألُ وأقفر من سلمى التعانيقُ فالثقلُ
قال الشارح، وهو الأعلام النحوي الشنتمريّ (وهو إمام حجة، ت ٤٧٦هـ): «أفاق القلب عن حب سلمى، وقد كاد لا يسألُ، أي لا يفتق، لشدة التباس حُبّها به. والتعانيق والثقل موضعان.»

قال العوامري: «فهذه حجة على جواز نفي خبر كاد. وجاء الشارح، وهو الإمام الحجة، فلم ير في البيت ما يستحق التنبيه أو الاستدراك. بل هو

قد أعاد (كاد لا يسلو) في أثناء تفسيره. على أنه قد يكون في كلام العرب كثير من هذا، لم يُتَح لنا الاطلاع عليه».

أي قارب قلبُ زهير عدم نسيان حب سلمى لأنه مُتَيَّم بها، لكنه في النهاية نسيها لُبُعدها منه، وإقفار المواضع التي كان يلتقي بها. نرى أن (كاد لا يسلو) معناه قارب عدم السُّلو، ويفيد ضمناً حدوث السلو بالفعل.

وهذا التركيب (كاد لا يفعل كذا) يعني أن اسم كاد قارب ألا يفعل خلال مدة ما، ويفيد ضمناً حدوث الفعل بعد تلك المقاربة؛ كما إذا قيل: كاد الغلام لا يغرق [أي قارب عدم الغرق (قارَب النجاة)، والعبارة تفيد ضمناً حدوث الغرق]. وكذلك كاد فلان لا يجيب دعوة صديقه، فالمعنى الضمني هو أنه أجاب الدعوة في النهاية.

ولو قال زهير (ما كاد يسلو) لكان المعنى على ما مرَّ بنا من كلام الأشموني، أن مقاربة السلو منفية، والسلو نفسه منفي. ولا تناقض هنا بين (صحاح) و (ما كاد يسلو) لعدم اتحاد زمن الحداثين، كما أنه لا تناقض بين (ذبحوها) و (ما كادوا يفعلون).

الخلاصة:

إذا تأملنا العبارات الثلاث:

- ١- كاد الغلام يغرق (أي قارَب الغرق لكنه لم يغرق).
- ٢- ما كاد الغلام يغرق (أي ما قارب الغرق، ولم يغرق).
- ٣- كاد الغلام لا يغرق (أي قارَب عدم الغرق؛ (قارَب النجاة)، والعبارة تفيد ضمناً حدوث الغرق في النهاية.

نجد أن مؤدى العبارتين الأولى والثانية هو انتفاء خبر كاد، وهو الغرق.

ونلاحظ في العبارتين الثانية والثالثة اختلاف المعنى، تبعاً لنفي كاد أو نفي خبرها. ومؤدى العبارات الثلاث هو نقيض خبر كاد.

ويستوقف النظر بعد الذي مرّ بنا ما ورد في «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة» (٥٩٠) للعدناني، وهو أنه جاء في «مفردات الراغب الأصفهاني» قوله: لا فرق بين أن يكون حرف النفي متقدماً على الفعل كاد، أو متأخراً عنه!

جواز نفي خبر يكاد

- إذا قيل: (هذه أمور تكاد لا تحدث هنا) فالمعنى أنها تُقارب عدم الحدوث، وحدثها أقرب إلى العدم منه إلى الوجود (حدثها نادر).

- ومثله: (إني أكاد لا أسمعك)، أي إن سمعي أقرب إلى العدم منه إلى الوجود (أسمعك جزئياً وبصعوبة).

- ومثله: (هذا الأمر يكاد لا يأخذ من وقتي شيئاً) أي يأخذ القليل جداً من وقتي.

- ومثله: (كانت إجابات التلميذ النبيه صائبة مدهشة تكاد لا تخطر على بال معلّمه).

أي كانت إجاباته تقارب عدم وقوعها في بال معلّمه.

أي إن وقوعها في بال معلّمه أقرب إلى العدم منه إلى الوجود.

نلاحظ أن التركيب (يكاد لا يفعل) يختلف كثيراً في معناه عن التركيب (كاد لا يفعل) الذي يفيد ضمناً حدوث الفعل.

التركيب (إِنْ كَادَ لَيَفْعَلُ):

(إِنْ) هنا مُخَفَّفَةٌ من (إِنَّ) التي تفيد التوكيد، ويؤتى بعدها في الكلام وجوباً بلام تسمى: اللام الفارقة (التي تفرقها عن (إِنْ) النافية).

قال تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

أي قاربت أم موسى أن تظهر أن الطفل الذي التقطه أعوان فرعون هو ابنها!
 وقال: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].
 قال الزمخشري في الكشاف: ... حتى شارفوا - بزعمهم - أن يتركوا
 دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم.
 وقال: ﴿قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيِّنَ﴾ [الصفات: ٥٦]. أي تالله قاربت أن
 تهلكني بإغوائك.

وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾
 [الإسراء: ٧٣]. أي: قاربوا أن يستنزلك عن الذي أوحينا إليك...
 وقال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].
 أي ينظر إليك الذين كفروا نظرًا شديدًا يكاد (يقارب أن) يصرعك
 ويسقطك من مكانك.

تراكيب أخرى:

- أجاز مجمع القاهرة في دورته الثالثة والأربعين سنة ١٩٧٧ العبارة
 الآتية وأمثالها:

«لم يكد الضيف يدخل حتى عانقه صاحب الدار» والمراد به أن
 الترحيب بالضيف حدث مع أشد الشوق، فتعاقب الدخول والعناق بسرعة،
 كأنهما وقعا في آنٍ واحد.

- جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال يوم الخندق:

«ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب».

أي تعاقبت صلاته وغروب الشمس بفاصل زمني قصير.

أو: فور انتهائه من صلاة العصر كانت الشمس غائبة إلا قليلاً!

- ومثله: ما كاد زيد يرى أستاذه حتى هبَّ واقفًا. ■

المعجم التاريخي للمصطلحات الطبية

د. نشأت الحمارنة(*)

اكتمال رجب(**)

مقدمة:

بدأت المصطلحات الطبية بالظهور في زمنٍ مبكرٍ قبل عصر الترجمة، حتى إنَّ بعضها نجدُه في (كتاب العين) الذي كتبه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ق٨م)، وهذه المصطلحات الباكِرة هي حصيلة عبقرية النَّاس العاديين الناطقين بالعربيَّة الذين عرفوا كُنَه الأمراض فأطلقوا عليها أسماءً مناسبةً، وهذه هي الطريقة التي نصادفها في كُلى اللُّغات. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى جاءت بعضُ هذه المصطلحات من وحي معرفة أسماء الأمراض باللُّغات التي اختلط العربُ بالناطقين بها قبل الإسلام بزمن بعيد كالسريانية والفارسيَّة. ولكنَّ عصرَ الترجمة جاء بحصَّة الأسد من المصطلحات الطبية وذلك نتيجةً لجهود الترجمة بالدرجة الأولى. ولعلَّ أغلب هؤلاء ممن كانت لغتهم الأمُّ السريانية، وأتقنوا العربية التي تعلَّموها منذ طفولتهم الأولى. ونتيجةً لعصر الترجمة نُقلَ الطبُّ اليونانيُّ إلى السريانية وإلى العربية.

(*) باحث في طب العيون.

(**) باحثة في تاريخ طب العيون من سورية.

نستطيع أن نجمع عدداً كبيراً من المصطلحات الفنيّة - ومنها المصطلحات الطبيّة - من مؤلّفات الأطباء سواء التي ظهرت في بدايات عصر الترجمة مثل (كنّاش) عيسى بن حكّم (مسيح الدمشقي) (ق ٨-٩م) أو رسالته التي كتبها للرشيد (حكم: ٧٨٦-٨٠٩م = ١٧٠هـ-١٩٢هـ) والتي اشتهرت فيما بعد باسم (الرسالة الهارونية)، أو تلك التي ظهرت في ذروة عصر الترجمة هذا، أي أيام حنين بن إسحاق في منتصف القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري).

وأما فيما يتعلّق بمصطلحات طبّ العيون فإنّ أقدم ما وصل إلينا هو ما حفظه (الحاوي) (كتب في القرن العاشر الميلادي) على شكل مقتبسات من مؤلّفات طبيّة عربيّة أو من ترجمات لكتّاب الإغريق، وهذه كلّها ضاعت ولم تصل إلينا إلى عصرنا، وأقدم هذه الكتب هي كتب (ماسرجويه البصري) (عاش في النصف الثاني من القرن ٧م)، سواء منها ما ترجمه عن الإغريقية أو ما كتبه بنفسه، ومن المعروف أنّ (ماسرجويه) هو أقدم من ترجم نصّاً طبيّاً سريانياً إلى العربيّة - بعد الإسلام - كما أنّه أول من ألف في هذا الحقل.

وقد لاحظنا أنّ كلّ هذه المصطلحات شاعت وأصبحت موضع اعتراف جميع المؤلّفين في مدّة لا تتجاوز القرن الواحد، وبقيت بعد ذلك على حالها طيلة القرون التي تمتدّ من القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) حتى القرن السابع عشر الميلادي حيث نجدّها في معجم القوصونيّ (قاموس الأطباء وناموس الألبا) (ق ١٧م)، فحينما بحثنا عن أقدم ذكر لهذه المصطلحات وقارناها بما جاء في ذروة عصر الترجمة تبين لنا أنّ كلّ هذه المصطلحات استقرّت واعترّف بها منذ البداية وحتى عصر تأسيس طبّ العيون العربي (نهاية القرن العاشر الميلادي إلى بداية القرن الحادي

عشر) (القرن الرابع الهجري إلى بداية القرن الخامس) أي إلى أيام ظهور (قانون) ابن سينا و(تذكرة) علي بن عيسى الكحل.

فمن وجهة نظر تاريخ ظهور المصطلحات صارَ لزامًا علينا أن نعدَّ المرحلة الممتدة بين (القرن الثامن الميلادي وبداية القرن الحادي عشر الميلادي) مرحلةً واحدةً، نشأ نتيجة لها طبُّ العيون العربي وظهرت مصطلحاته الفنية كما ظهرت فيه - وهو الأهم - أمهاتُ الكُتب التي عالجت هذا الفرعَ التخصصيَّ من فروع الطبِّ.

وفي هذه الدراسة أيضاً نوردُ (تعريف المصطلح) الذي اعتمده بعضُ كبار المؤلفين، وبذلك نكونُ قد مهَّدنا الطريقَ لكتابة (المعجم التاريخي للمصطلحات الطبية).

جرب العين

أولاً: مقدِّمة:

الجَرَبُ كلمةٌ معروفةٌ في اللُّغة^(١) أطلقت على مرضٍ جلديٍّ، وقد حافظ هذا المصطلحُ على معناه في مجال (أمراض الجلد).

لكنَّ الأطباء العرب استعملوا هذه الكلمة في حقلٍ آخر من حقول الطبِّ لتعني مرضاً من الأمراض التي تصيب الجفنَ أيَّ (الملتحمة الجفنيَّة) كما نقول اليوم. ومعنى الجَرَب في حقل (أمراض العين) يختلف - بطبيعة الحال - عن معناه في حقل (أمراض الجلد) فنحن هنا أمام مصطلحين مختلفين، كلاهما في حقل الطبِّ:

(١) الخليل: كتاب العين: (٦/١١٢): «الجَرَبُ معروف . وجرَبَ البعيرُ يَجْرَبُ جَرَباً، فهو جَرَبٌ وأَجْرَبٌ».

الجَرَبُ عموماً وهو المرض الجلدي، وجَرَبُ الجفن أو جَرَبُ العين. ولم تعد هذه الكلمة - جَرَبُ العين - مستعملةً في مصطلحات الطَّبِّ الحديث. ف(جَرَبُ الجفن) هو التراخوما أو (الرَّمَدُ الحُبِّي) كما نقول اليوم. أو (الحَثْر)، بتعبير المعجم الطَّبِّي الموحد. كان الإغريق - من قبل - قد وصفوا مرضين من أمراض الجفن يتظاهران بالحِكَّة:

أحدهما سَمَّوهُ: (تراخوما^(٢) Trachoma) وترجمه العرب إلى كلمة (جَرَبُ الجفن)^(٣).

والثاني سَمَّوهُ: (بسوروفثالميا^(٤) Psorophthalmia) ويعني (الحُكَاك) أو (الحِكَّة). وهو عندهم (التهاب حافات الأجفان). وترجمه العرب إلى كلمة (السُّلاق)^(٥).

(٢) مايرهوف: ترجمة مقالات حنين: (ص ٥٩، ص ٥)، هيرشبرغ: ترجمة التذكرة: (ص ٥٨، الهامش ١). كيسي وود: ترجمة التذكرة: (ص ٨٥).

(٣) هيرشبرغ: ترجمة القانون: (ص ١١٥، الهامش ١)، هيرشبرغ: ترجمة التذكرة: (ص ٥٨، الهامش ١)، هيرشبرغ: تاريخ (القدماء)...: (ص ٣٧٦). تاريخ (العرب)...: (ص ١٧٤-١٧٦). وقد ترجم هيرشبرغ كلمة تراخوم الإغريقية إلى إحدى كلمتين بالألمانية: Rauigkeit وتعني (خشونة). أو Körnerkrankheit وتعني (المرض الحبيبي). تاريخ (القدماء)...: (ص ٣٧٦). تاريخ (العرب): (ص ١٧٤).

(٤) هيرشبرغ: ترجمة القانون: (ص ١٠١، ص ١١٥، هامش ١). هيرشبرغ: ترجمة التذكرة: (ص ٩٨، هامش ٢). كيسي وود: ترجمة التذكرة: (ص ١٠٦). - وضح هيرشبرغ (ترجمة التذكرة) أن المرض الذي سمّاه الإغريق الحِكَّة، إنما هو التهاب حافات الأجفان Lidrand Entzündung.

(٥) التذكرة: (ص ١٢٠). - لكن مايرهوف له اجتهاد آخر في هذا الموضوع. يُنظر: مايرهوف، ترجمة مقالات حنين: (ص ٥٩ - الهامش ٢).

والمُرَجَّحُ أَنَّ الْعَرَبَ اخْتَارُوا كَلِمَةَ جَرَبِ الْجَفْنِ لِيَتْرَجَمُوا بِهَا الْمِصْطَلَحَ الْإِغْرِيْقِي تَرَاخُومًا، بِسَبَبِ أَنَّ الْحِكَّةَ هِيَ الْعَرَضُ الرَّئِيسُ فِي التَّرَاخُومَا، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي الْجَرَبِ. فَوُصِفُ الْمَرِيضُ - كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْإِغْرِيْقِ - هُوَ الَّذِي أَوْحَى لِلْعَرَبِ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ.

فَالَّذِي يَمِيْزُ جَرَبَ الْجِلْدِ هُوَ الْحِكَّةُ الشَّدِيْدَةُ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْحِكَّةَ الشَّدِيْدَةَ - الَّتِي هِيَ الْعَرَضُ الطَّاعِي فِي (التَّرَاخُومَا)^(٦) - هِيَ سَبَبُ التَّسْمِيَةِ الْجَدِيْدَةِ - الْمِصْطَلَحِيَّةِ -.

لَمْ يُقَلِّ الْعَرَبُ دَائِمًا جَرَبَ الْجَفْنِ أَوْ جَرَبَ الْعَيْنِ، بَلْ اِكْتَفَوْا فِي مَعْظَمِ الْأَحْيَانِ بِقَوْلِهِمُ الْجَرَبُ وَدَلَالَةِ اسْمِ الْمَرِيضِ تُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ.

فثُمَّةُ الْجَرَبِ فِي أَمْرَاضِ الْجِلْدِ. وَثُمَّةُ الْجَرَبِ فِي أَمْرَاضِ الْعَيْنِ.

خِلَاصَةُ الْقَوْلِ إِنَّ التَّهَابَ حَافَاتِ الْأَجْفَانِ - الَّذِي وَصَفَهُ الْإِغْرِيْقُ تَحْتَ اسْمِ (بِسُورُوفْتَالْمِيَا Psorophthalmia) - تَرْجَمَهُ الْعَرَبُ إِلَى كَلِمَةِ (السَّلَاقِ)^(٧). وَكَانَ الْإِغْرِيْقُ قَدْ وَصَفُوا مَرِيضًا يَصِيْبُ الْجَفْنَ أَوْ الْمَلْتَحِمَةَ وَسَمَّوْهُ (قَنِيْسِمُوسُ Knesmos)^(٨) وَتَرْجَمَهَا الْعَرَبُ إِلَى (الْحِكَّةِ) وَهِيَ عِنْدَ الْإِغْرِيْقِ حَالَةٌ مَرِيضِيَّةٌ تَنْظَاهِرُ بِالذُّمَاعِ وَالْحِكَّةِ وَحُمْرَةِ الْأَجْفَانِ.

(٦) حَتَّى إِنَّ الرَّازِي فِي كِتَابِ (الْحَاوِي) يَكْتُبُ: «وَأَمَّا الْحِكَّةُ يَعْنِي الْجَرَبَ ...». وَكَذَلِكَ فَإِنَّ ابْنَ سِينَا يَجْعَلُ (الْجَرَبَ وَالْحِكَّةَ) عُنْوَانًا لِفَصْلِ وَاحِدٍ، وَفِي الْمَتْنِ يَصِفُ الْجَرَبَ. الْقَانُونُ: تَحْقِيقُ: وَفَائِي/ قَلْعُهُ جِي: (ص ١٢٤). الْقَانُونُ: طَبْعَةُ بُولَاقِ: (ص ١٣٥)، تَرْجَمَةُ الْقَانُونِ: (ص ١١٥).

(٧) هِيرَشْبِرْغُ: تَرْجَمَةُ الْقَانُونِ: (ص ١٠١، ١١٥، هَامِش ١). هِيرَشْبِرْغُ: تَرْجَمَةُ التَّذْكِرَةِ: (ص ٩٨، هَامِش ٢).

(٨) تَرْجَمَةُ الْمَقَالَاتِ: (ص ٥٧).

وبسبب ذلك فإنَّ الأطباء العرب عدُّوا (الحِجَّة) في بعض الأحيان عَرَضاً وفي أحيانٍ أخرى مرضاً. وصنَّفوا مرض الحِجَّة تارةً بين أمراض الجفن وتارةً بين أمراض الملتحمة.

* * *

و(الحِجَّة) - المرضُ - تتحول إلى (السُّلاق) إذا لم تحسن معالجتها. والسُّلاق يسبب أولاً ظهورَ القشور والوسوف بين الأهداب، وبعد ذلك تتساقط الأهداب وقد سمَّى الإغريق والعرب هذه المرحلة من مراحل المرض (انتثار الهدب) أو (تساقط الأهداب) أو (تساقط الأشفار)، وعدُّوها مرضاً مستقلاً في الوقت نفسه الذي عرفوا فيه أنَّها إنما هي حالةٌ متقدمةٌ من حالات (السُّلاق)، وبعدها تتقرح حافة الجفن، وهكذا ينتهي (السُّلاق) (بالسَّعفه) إذا لم تحسن معالجته.

فالقربة بين الحِجَّة والسُّلاق وانتثار الهدب والسَّعفه معروفةٌ من أيام الإغريق، وقد أكَّدها العرب، وما تزال - حتى اليوم - موضع اهتمام مصنفي كتب طبِّ العين الحديثة.

وهكذا فإنه ينبغي علينا أن نؤكد أن العرب ميزوا بين التهاب حوافِّ الأجفان (السُّلاق)، والتهاب حافات الأجفان المزمن وأعطوه اسم (السَّعفة).

* * *

ثانياً: الجَرَب في اللُّغة:

ظَلَّ مصطلحُ (الجَرَب) في اللُّغة يشير إلى المرض الجلدي المعروف، ونجد هذا المصطلح في كلِّ المعجمات، كما نجده في الحديث الشريف. وبعدها استعمل الأطباء مصطلحَ (جَرَب العين) أو (الجَرَب) للدلالة

على المرض الذي يصيب الجفن انتقل هذا المصطلح الجديد إلى معجمات اللُّغة وإلى الكتب الأخرى المعنيّة، ولذلك فإننا نجده بهذا المعنى الجديد عند ابن أبي ثابت وابن سيّدة على سبيل المثال، ونرجّح أن ما نقله ابن سيّدة عن صاحب العين نقلٌ صحيح^(٩)، وهذا يعني أن المصطلح بدلالته الجديدة كان معروفاً أيام الخليل.

اكتفى الأطباء العرب باستعمال كلمة (الجَرَب) في النصوص المتعلقة بطبّ العين، لكنّ بعضهم استعمل في أماكن متفرّقة كلمتي الخُشونة أو الحِكّة لوصف الجَرَب أو للإشارة إليه أو لتكون مرادفةً له.

أمّا كلمة الحِشْر التي تعني الخُشونة في الجفن فلم يستعملها أحدٌ من المؤلّفين في التراث الطّبيّ العربيّ كلّ في حدود ما نعلم، إلّا أن زملاءنا الذين كتبوا المعجم الطّبيّ الموحد اختاروها لكي تكون المصطلح (الموحد) الذي يقابل الكلمة الإغريقيّة (تراخوما) ولكي تحلّ محل المصطلح (الرّمّد الحبيبي).

- الخليل: كتاب العين: (٦/١١٢): «الجَرَبُ معروف. وجَرِبَ البعير يَجْرِبُ جَرَباً، فهو جَرِبٌ وأَجْرِبُ».

- ابن أبي ثابت: (خلق الإنسان: ص ١٢٢ - ١٢٣): «وفي العين الجَرَبُ، وهو كالصدأ يَزَكُبُ باطنَ الجَفْنِ فَرُبُّمَا أَلْبَسَهُ أَجْمَعُ، ورُبُّمَا كان في بَعْضِهِ، يقال صَدِيٌّ يَصْدَأُ صَدَأً وُصْدُوءاً».

(٩) نقل ابن سيّدة في (المخصّص) عن (صاحب العين) عبارة لم نجدها في كتاب العين المحقّق. ويعتقد كثيرون أنّ أجزاء من كتاب العين ضاعت. لذلك نرجّح أن مصدر عبارة ابن سيّدة هو حقّاً كتاب العين، وأن العبارة سقطت من المخطوطات التي استعملت في التحقيق. فمن غير المعقول أن ينقل ابن سيّدة عن الخليل كلاماً لم يُكتب. «الأجرب: الذي تُبْشِرُ عينه...».

- ابن سيدة: المخصص: (١/ ١٠٩): « ثابت: وفي العين الجربُ: وهو كالصدأ يركبُ الجفنَ فرِما ألبسهُ أجمع، وربما كان في بعضه. وصدتُ عينه صدأةً وصدأً.

صاحب العين: الأجرَب: الذي تبثرُ عينه يخرجُ بها بثرٌ فتضمُّ أشفارهُ ويلزم عينه الحطاطُ: وهو الحصفُ وحدثها حطاطةٌ.»

- ابن منظور: لسان العرب: (١/ ٢٦٠): «.. والجربُ كالصدأ، مقصور، يعلو باطن الجفن، ورُبما ألبسه كله، وربما ركِب بعضه.»

ثالثاً: المصطلح:

أقدم ذكرٍ لكلمة الجربِ جاء على لسان (ماسرجويه) البصريّ (اليهودي) وقد حفظها (الحاوي). هذا يعني أنّ كلمة الجربِ استعملت بوصفها المرادف العربيّ المصطلحيّ لكلمة تراخوما الإغريقيّة^(١٠).

وقد ذكر المصطلح عيسى بن حكم في (الرسالة الهاروتية) التي قدمها للرشيد. هذا يدلُّ على أنّ العرب استعملوا هذا المصطلح قبل عصر الترجمة - أيّ قبل إنشاء بيت الحكمة - فهل جاء ذلك بوحى من المصطلح الإغريقيّ؟ بمعنى أنّ الأطباء الذين كانوا يعرفون بعض النصوص الطبية اليونانية فهموا معنى المصطلح باليونانية.

وقد عرّف ابن (ماسويه) هذا المصطلح في كتاب (دغل العين): «وإذا رأيت العينَ تدمعُ، حمراء، فاقلبها، فإن رأيت في الجفن حَباً صغيراً حُمراً وبيضاً فذلك جربٌ.»

(١٠) هيرشبرغ: «إن المرض الذي سَمَّاه الإغريق تراخوما سَمَّاه العرب الجربُ (Krätze).»
ترجمة القانون: (ص ١١٥، هامش ١). ترجمة التذكرة: (ص ٥٨، هامش ١).

وفي الكُنَّاش المُشَجَّر (المخطوط): «وقد يَعْرِضُ أيضاً في باطن الأَجْفَانِ حُشُونَةٌ تَسْمَى طَرَاخوما:

فإن كثرت الحُشُونَةُ حتى تُرَى في باطن الجفن نقطاً شبيهةً بشقِّ التين يُسَمَّى: سوقوسيس.

وإن تطاولت الحُشُونَةُ والنقط وكانت مع صَلَابَةٍ وتورُّمٍ يَسْمَى: تولوسيس».

لكنَّ (الحاوي)^(١١) ينقل عن كتاب مجهول: «مجهول من كتاب مجهول... وإذا طال على العين الرمد ولم ينجح فيها العلاج فاقلب جفنها فإن فيه جرباً والجرب بثر صغار». ولعلَّ التعريف القصير - بَثْرٌ صغار - هو أقدم تعريفٍ للجرب إذا كان صاحبه قد عاش قبل ابن ماسويه.

وفي الوقت نفسه ذكره حنين في المسائل^(١٢) وفي العشر مقالات^(١٣). وبعد ذلك ذكره علي بن سهل (رَبَّن) الطبري^(١٤). وصاحب الذخيرة^(١٥) (في القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري).

في حدود ما رأينا اعتمدَ مصطلح (جَرَبُ العَيْنِ) في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي عند الأطباء والتراجمَة ليدلَّ على المرض المسمَّى تراخوما، وعن هؤلاء أخذ ابن أبي ثابت في كتابه (خلق الإنسان)^(١٦).

(١١) الحاوي (٤٢/٢).

(١٢) المسائل في العين: (مسألة: ١٣٨، ص ٥٦).

(١٣) العشر مقالات: (ص ١٣١ - ١٣٢).

(١٤) فردوس الحكمة: (ص ١٧٣ - و ١٧٥).

(١٥) الذخيرة: (ص ٣٧).

(١٦) خلق الإنسان: (ص ١٢٢ - ١٢٣).

رابعاً: في كتب الطبّ:

- المقدمة:

كان (هيرشبرغ) وزميله (ليبرت) و(متفوخ) قد ترجموا القسم المتعلّق بأمراض العين من كتاب (القانون)^(١٧) لابن سينا، وكتاب (تذكرة الكحالين)^(١٧) لعلّي بن عيسى، وكتاب (المُتَّخَب)^(١٧) لعمّار بن عليّ الموصليّ، وقارنوا المصطلحات الإغريقيّة بالمصطلحات العربيّة، كما قارنوا الوصف السريريّ لأمراض العين عند المؤلّفين الإغريق^(١٨) بالوصف السريريّ للأمراض إياها عند العرب^(١٩)، وكثيراً ما خرجوا بنتائج تشير إلى تفوّق المؤلّف العربيّ على المؤلّف الإغريقيّ في حقل الوصف السريريّ^(٢٠).

فالفضل يعود إلى (هيرشبرغ) وزميليّه الذين وضعوا - منذ مطلع القرن العشرين - بين أيدي مؤرخي الطّب كلّ هذه المصطلحات باليونانيّة والعربيّة وترجموها إلى الألمانيّة، وحقّقوا النُصوص العربيّة وترجموا بعضها إلى الألمانيّة وبحثوا عن أصولها في التراث الطّبّيّ الإغريقيّ^(٢١).

- نصوص مختارة:

- ابن ماسويه: دَغَل العين (المخطوط): « وإذا رأيتَ العينَ تدمعُ، حمراءَ، فاقلبها فإنّ رأيتَ في الجفن حَبّاً صغاراً حُمراً وبيضاً فذلك جَرَبٌ».

(١٧) ترجمة القانون: عام ١٩٠٨، ترجمة التذكرة: عام ١٩٠٤، ترجمة المُتَّخَب: عام ١٩٠٥.

(١٨) وبخاصّة عند بولص وأيتيوس.

(١٩) وبخاصّة عند عليّ بن عيسى.

(٢٠) مثلاً: يقول (هيرشبرغ): إن وصف مرض الشَّلَاق عند علي بن عيسى أحسن (besser) من وصف بولص لهذا المرض. - ترجمة التذكرة: (ص ٩٨، هامش ١). أمّا كيسي وود الذي قرأ تعليق هيرشبرغ فإنه لم يُشير إليه حينما ترجم التذكرة إلى الإنكليزية. ينظر: (ص ١٠٦) من الترجمة.

(٢١) وبخاصّة ما ورد عند بولص وأيتيوس نقلاً عن جالينوس.

- ابن ماسويه: الكُنَّاشُ المُشَجَّرُ (المخطوط): «وقد يَعْرِضُ أيضاً في باطن الأَجْفَانِ خُشُونَةٌ تُسَمَّى طَرَاخُومًا:

فإن كثرت الخُشُونَةُ حتى تَرَى في باطن الجفن نَقْطاً شَبِيهَةً بِشَقِّ التَّيْنِ يُسَمَّى: سَوْقُوسِيْسَ.

وإن تطاولت الخُشُونَةُ والنقْطُ وكانت مع صَلَابَةٍ وتورُّمٍ يُسَمَّى: تُولُوسِيْسَ».

- حنين بن إسحاق: العشر مقالات في العين: (ص ١٣١ - ١٣٢):
«أمراض الجفن: وأمَّا في باطنها فيعرض الجرب، والبَرْدُ، والتَّحْجُرُ، والالتزاق. فأما الجرب فأربعة أنواع:

النوع الأول يسمى (داسيتيس) وهو الرقيق.

والثاني (طراخيتيس) وهو الخشن.

والثالث (سوقوسيس) وهو التيني.

والرابع (تولوسيس) وهو الخشن الصُّلب.

فأما النوع الأول من الجرب فإنه يخالف الثاني بأنه أنقص منه لأن النوع الأول يعرض في ظاهر باطن الجفن.

ومعه حُمرة. [يقصد بذلك الطبقة السطحية من باطن الجفن]

وأما النوع الثاني فخشونته أكثر، ومعه وجعٌ وثقل. وكلا النوعين يُحدثان في العين رطوبةً.

وأما النوع الثالث فهو أشدُّ وأصعب من الثاني والخشونة فيه أكثر، حتى ترى في باطن الجفن شبيهاً بشقوق التين ولذلك يسمى (سوقوسيس).

وأما النوع الرابع فإنه أصعب من الثالث وأكثر خشونة وأطول مُدَّةً وخشونة مع صَلَابَةٍ شديدة».

- الرازي: المنصوري: (ص ٣٩٤): «في الجَرَبِ والسَّبَلِ: إذا كان جفنُ العين غليظاً وباطنُهُ إذا قَلَبْتُهُ خشناً مُحمراً، فإن هذا هو جَرَبُ الجفنِ».

- الرازي: التقسيم والتشجير: (ص ١١٤): «في الجرب في العين: يكون منه رقيق مبتدئ. وعلامته: أن يكون باطن الجفن فيه حمرة وخشونة يسيرة، ويحدث بعقب الرمذ والقروح.

ويكون منه مزمن غليظ. وعلامته: أن يكون باطن الجفن إذا قلبته شبيهاً بالمنشار، والجفن غليظ جداً».

- الكشكري: الكُنَّاش: (ص ٤٠): «في علاج أمراض العين وعدد أمراضها على ما قال (جالينوس) يحدث في الجفن خمسة عشر صنفاً من الأمراض وهي: الجَرَب، و...

فأما الجرب فأربعة أنواع:

أحدها: يظهر في ظاهرِ باطنِ الجفنِ ومعه حمرة، ويحدث عن مادة رديئة منبعثة متعفنة تنصب إلى باطن الجفن فيغلظ ويتجبب.

والثاني: أشد وفيه شَبَّةٌ بحب التين، ويسمى التيني وهو إذا كانت المادة أغلظ وأردأ.

والثالث: أشد منه وخشونته أكثر ومعه وجع ثقيل.

والرابع: أطول مدة، ومع الخشونة صلابة وثقل.»

- علي بن العباس المجوسي: الملكي (المخطوط): (١/٣٤٢) (التحقيق: ص ٢٦٨): «في أمراض الأجفان: فأما العلل العارضة في الأجفان خاصة دون سائر البدن فهي: الجرب: وأما الجرب فهو أربعة أنواع:

أحدها: يحدث في باطن الجفن الأعلى لخشونته.

والثاني: يكون أظهر خشونة، وأشد حمرة ودمعة، ومعه وجع وثقل.

ويعمُّهما جميعاً رطوبةٌ في العين.

وأما الثالث: فهو أقوى وأظهرُ خشونة، حتى يُرى في باطن الجفن تشقُّقٌ مثل تشقُّق التين ويكون أشدَّ حمرة ووجعاً وثقلاً وحِكةً شديدة.
وأما النوع الرابع: فهو أصعب من الثالث، وأشدُّ حمرة وأصعبُ وجعاً وحكة، وأكثر خشونة وتكون الأُجفان ثقيلة مع صلابة، وهذا النوع من العلل المتطاولَة).

- القمري: (غنى ومُنَى / المخطوط): «الجَرَب في العين أربعة أنواع:

أحدها: حُمرة تحدث في سطح الجفن الباطن مع خُشونة قليلة.

الثاني: غِلظ مع حُمرة، وخُشونته أكثر، ويكون معه وجَع وثقل.

وهذان يحدُثان في العين من رطوبة.

الثالث: أقوى من الثاني وأصعب، والخُشونة فيه أكثر، ويحدث معه في

الجفن شُقاق يشبه الأشكال المعقفة في جوف التّين، ومعه أيضاً تحبّب

ويسمى تينياً.

والرّابع: أخشن وأصعب منه».

- عمّار بن عليّ الموصلي: المُتخَب: (ص ٢٨ ← ٣٠، الترجمة:

٤٠ ← ٤٤): «أما الجَرَب فإنّه أربعة أنواع:

أما النّوع الأوّل منه: فيكون شبيهاً بالحَصَف، وهذا يكون إذا طال

بالإنسان الرّمَد، وتكوينه عن خلطٍ دموي ليس بالمفِرط، ومن التواني في

عقب الرّمَد عن المداواة.

النّوع الثاني من الجَرَب: وأما النّوع الثاني فهو أكثر خُشونة من الأوّل،

ومعه وجَع وثقل وقَطْع ودمعة، وليس بالغليظ، وهذا يكون من كثرة الأخلاط

الصفراوية والدموية، وهذا النّوع يحتاج إلى علاج غير علاج النّوع الأوّل.

وأما النوع الثالث من الجَرَب: فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأصْعَبُ مِنَ النَّوعَيْنِ الْأُولَيْنِ، وَالْحُشُونَةُ فِيهِ أَكْثَرُ، وَتَرَى فِيهِ شِبْهَ شُقُوقِ التَّيْنِ، وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْجَرَبِ يُقَالُ لَهُ التَّيْنِيُّ، وَمَعَهُ وَجَعٌ، وَثِقَلٌ، وَاسْتِرْخَاءٌ فِي الْأَجْفَانِ، وَوَحْزٌ مِثْلُ الشُّوكِ دَاخِلِ الْعَيْنِ وَحُمْرَةٌ، وَحُرْقَةٌ، وَدَمْعَةٌ غَلِيظَةٌ.

أما النوع الرابع من الجَرَب: فَإِنَّهُ أَصْعَبُ وَأَشَدُّ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهَا وَأَكْثَرُهَا حُشُونَةٌ مَعَ صَلَابَةٍ شَدِيدَةٍ، وَقَطْعٌ غَلِيظٌ وَدَمْعَةٌ مِثْلَ الْمِدَّةِ، وَأَطْوَلُهَا مِدَّةٌ، لِأَنَّهُ قَدْ جَفَّفَتْهُ وَصَلَّبَتْهُ الْأَخْلَاطُ السُّودَاوِيَّةُ».

- ابن سينا: القانون: (٢/٢٢٨ - التحقيق: ص ١٢٤، الترجمة: ١١٥

- (١١٦): «فصل في الجَرَبِ وَالْحِكَّةِ فِي الْأَجْفَانِ:

سببه مادّة مالحة بورقية(*) من دم حادّ، أو خلط آخر حادّ يحدث حَكًّا، ثمَّ يجَرَبُ. وأكثره عَقِيبُ قُرُوحِ الْعَيْنِ، وَتَبْتَدِئُ الْعِلَّةُ أَوْلًا حَكَّةً يَسِيرَةً، ثُمَّ تَصِيرُ حُشُونَةً، فَيَحْمَرُّ الْجَفْنُ، يَصِيرُ تَيْنِيًّا مَتَقَرِّحًا، ثُمَّ يَحْدُثُ الْمُحَبَّبُ الصُّلْبُ عِنْدَ اشْتِدَادِ الشُّقَاقِ فِي الْحَكَّةِ وَالتَّوَرَّمِ».

- الزهراوي: التصريف: (ص ٤٠٢): «فالجَرَبُ هُوَ حُشُونَةٌ مِنْ فَضْلِ

دَمَوِيٍّ حَارًّا تَدْفَعُهُ الطَّبِيعَةُ إِلَى بَاطِنِ الْجَفْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا يَعْضِرُ بِعَقْبِ الرَّمْدِ وَالقُرُوحِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ:

الأول علامته خشونة وحمرة وشيء من رطوبة بلا وجع ولا كثير ضرر.

الثاني علامته الخشونة والحمرة والرطوبة أكثر من الوجع والثقل في

العينين.

(*) البُورَق: كلمة عربية انتقلت إلى الغرب فصارت **borak** وهي «بورات الصوديوم

المائية: ملح حمض البور» وتعرف لدى الصيادلة اليوم باسم بوريك. [المجلة].

الثالث علامته الخشونة والحمرة والرطوبة أكثر والوجع أشدّ، فإذا قلبت الجفن رأيتَه أشبه شيءً بتينة إذا قلبتها، وكذلك يسمى هذا النوع التيني.

والرابع علامته أن يبقى أشد خشونة وحمرة وصلابة من سائر أعراض الأنواع الأوّل وأطول مدة وأبعد من البُء، بل لا يبرأ على الأكثر».

- عليّ بن عيسى: التذكرة: (ص ٧٦ ← ٨٣، الترجمة: ٥٨ ← ٦٧):
«في أصناف الجَرَب وعلاجه: كم هي أنواع الجَرَب؟ أربعة أنواع.

ما هو النَّوع الأوّل من الجَرَب؟ حُمْرة تَعْرِضُ في سطح باطن الجفن.
ما علامته؟ أنّك إذا قلبت الجفن رأيتَ فيه حَبًّا شبيهاً بالحَصَف، وهو أنقص صعوبة ووجعاً من ثلاثة أنواعه الباقية ومعه دَمعة.

ما سبب جميع أنواع الجَرَب؟

١- رطوبة مالحة بَوْرَقِيَّة.

٢- ومن مداومة^(٢٢) في الشَّمس والغبار والدُّخان.

٣- ومن فساد التدبير في علاج الرَّمَد.

ما علامة النَّوع الثاني من الجَرَب؟ أنّه أكثر خُشونة من النَّوع الأوّل ومعه وَجَع وثِقَل، وكلا النَّوعين يُحْدِثان في العين دَمعة ورُطوبة.

ما علامة النَّوع الثالث من الجَرَب؟ إنّهُ أشدُّ وأصعب من الثاني والخُشونة فيه أكثر، وتَرى في باطن الجفن شُقوقاً سوداً تشبه شُقوقَ التّين ولذلك يقال له التّيني.

فأمّا النَّوع الرَّابع من الجَرَب فإنّهُ أصعب من الثلاثة الأنواع الأوّل،

(٢٢) الكلمة (بورقية ومن مداومة) ساقطة من التحقيق . وضعناها من مخطوط دانيال بن شعيا . وقد وردت هكذا في الترجمة.

وأكثرها خُسونة وأعظمها آفة وأطولها مُدَّة، ومعه وَجَعٌ وصَلابة شديدة ولا يكاد ينقلع بسرعة لِغَلْظِهِ وخاصَّةً إذا عَتَّق. وربما حدث معه شعر زائد.
وعلامته أَنَّكَ إذا قلبت الجَفْنَ تراه أسودَ كَمِداً تعلوه (خشكريشة)».

* * *

الحِكْمَةُ

أولاً - مقدِّمة:

المعروف أَنَّ الحِكْمَةَ عَرَضٌ يظهر في أكثر من مرض، ويتظاهر في عِدَّة أماكن من الجسم، وأكثر ما يتظاهر على الجلد.
والمعروف كذلك أَنَّ أمراض العين تتظاهر بعددٍ من الأعراض الشائعة، فمن هذه الأعراض: الدُّمَاع والاحمرار والألم، وكذلك الحِكْمَةُ.
فالحِكْمَةُ إذن عَرَضٌ يظهر في أكثر من موضعٍ من البدن، ومن هذه المواضع العين.

لكنَّ الأطباء استعملوا أيضاً مصطلح الحِكْمَةَ ليدلَّ على اسم مرضٍ يصيبُ الأَجْفَانَ أو يصيبُ الملتحمة أو يصيبهما معاً.
فمصطلح الحِكْمَةَ في التراث الطَّبِّي العربي قد يعني مرضاً له أسبابه وتظاهراته وعلاجه وأدويته وسيره الخاصُّ به، وقد يقتصر على كونه عَرَضاً مستقلاً، أو عَرَضاً يرافق بعض الأمراض ويشكِّل واحداً من (دلائلها) (٢٣).

* * *

(٢٣) كثيراً ما استعمل الأطباء العرب كلمة الدلائل لتشير إلى أعراض المرض وعلاماته.

وقد عَرَفَ الأَطْبَاءُ منذ أقدم الأزمنة أَنَّ الحِجَّةَ هي العَرَضُ الرَّئِيسُ في جَرَبِ الجِلْدِ. وكذلك قال الإغريق - من قَبْلُ - إِنَّ الحِجَّةَ هي العَرَضُ الأهمُّ في مرض التراخوما الذي سَمَّاهُ الأَطْبَاءُ العَرَبُ جَرَبَ الجفن.

ولعلَّ الحِجَّةَ هي التي دفعت الأَطْبَاءَ العَرَبَ لاختيار مصطلح (جَرَبِ الجفن) أو (جَرَبِ العين) لوصف هذا المرض الذي ذكره الإغريق، والذي نسمِّيه اليوم (تراخوما)، ذلك أَنَّ مرضَ الجَرَبِ المعروفِ منذ القدم والذي يصيبُ الجِلْدَ يتظاهرُ قبل أي شيءٍ بالحِجَّةَ، وكذلك (التراخوما).

ورد مصطلح الحِجَّةَ عند مسيح الدَّمشقيِّ في (الرِّسالة الهارونِيَّة) بوصفه مرضاً يصيبُ العينَ^(٢٤)، وقد جاء هذا الاسمُ مفرداً^(٢٥) أحياناً، ومعطوفاً^(٢٦) على (جَرَبِ العين) أحياناً أخرى.

والأمر نفسه يقال عن هذا المصطلح عند ابن ماسويه في (دَغَلِ العين)^(٢٧). وقد استعمل عليُّ بن سهل (رَبَّن) الطَّبْرِيّ هذا المصطلح في (فردوس الحكمة)، والحِجَّةَ عنده من أمراض الملتحمة^(٢٨).

وقد أورد الرازي في (الحاوي) مصطلح الحِجَّةَ، كما أورد مصطلح الحُكَّاك^(٢٩).

وقد وصف بعض المؤلِّفين حالة تحوُّل (مرض الحِجَّةَ) إلى (مرض

(٢٤) الرِّسالة الهارونِيَّة: (ص ٢٧٣): «الحِجَّةَ العارضة في العين».

(٢٥) الرِّسالة الهارونِيَّة: (ص ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٥).

(٢٦) الرِّسالة الهارونِيَّة: (ص ٢٠٩، و ٤٥١): «.. وتقطر في العين تنفع من الجَرَبِ والحِجَّةَ الكائنة فيها».

(٢٧) دَغَلِ العين/ المخطوط: «للجَرَبِ والحِجَّةَ»، «الانحكاك والجَرَبِ».

(٢٨) فردوس الحكمة: (ص ١٦٢): «أمراض الملتحم.. وهو الغشاء البرَّاني.. الحِجَّةَ..».

(٢٩) الحاوي: (٢/ ٢٧٦).

الجَرَب)، وبخاصّةٍ إذا أُهْمِلَ علاجها، فالحِكَّةُ كثيراً ما تتحول إلى جَرَبِ الجفن، بأعراضه الوصفية^(٣٠).

ثانياً - الحِكَّةُ في اللُّغة:

- الفيروزآبادي: القاموس المحيط: (٣/ ٢٩٩): «الحَكُّ: إمرارُ جِزْمٍ على جِزْمٍ صَكًّا. واحْتَكَّ رأسي وحَكَّني وأحَكَّني واستَحَكَّني دَعاني إلى حَكِّهِ والاسْمُ الحِكَّةُ بالكسر.

وتحَاكَا اضْطَكَّ جِزْمَاهُمَا فَحَكَّ كُلُّ الآخَرَ. والحِكَّةُ بالكسر الجَرَبُ.

والحُكَاكُ كغرابٍ: البُورِقُ، وبهاءٍ ما حُكَّ بين حَجَرَيْنِ ثم اُكْتُحِلَ به من رَمِدٍ. وما يَسْقُطُ من الشيء عند الحَكِّ».

- ثالثاً: الحِكَّةُ في الكتب الطبية:

مقدمة:

عَدَّ بعضُ الأطباء الحِكَّةَ مرضاً من أمراض الجفن، وعَدَّها آخرون من أمراض الملتحمة، وكذلك عَدَّها بعضهم من الأمراض التي تصيب الجفن والملتحمة في آنٍ واحد.

ولاحظ بعضُ المؤلفين أنَّ مرضَ الحِكَّةِ يمتدُّ من الجفن حتى يصيب أحدَ المُؤَقِّين أو حتى يصيب المُؤَقِّين معاً، ومن الواضح أنَّهم كانوا - في ذلك الوقت - يصفون ما نسميه اليومَ (التهاب حافات الأَجْفَانِ الزاوي).

(٣٠) ابن سينا: القانون: (٢/ ٢٢٨)، خليفة: الكافي: (ص ١٤٠)، ابن النفيس: المُهَدَّب: (ص ٢٧٤).

ولاحظ بعضُ الأطباء أنَّ أعراض الحِجَّة تتوضَّع بشكلٍ أشدَّ في باطن الجفن.

وركز بعضُ المؤلفين على ضرورة الإسراع في علاج الحِجَّة، وإلاَّ فإنَّها سوف تتطوَّر إلى جَرَب الجفن.

* * *

أقدم ذكرٍ لمصطلح الحِجَّة - بوصفها عَرَضاً - نجده عند ماسرجويه البصري^(٣١).

أمَّا الحِجَّة بوصفها مرضاً فإنَّ أقدم ذكرٍ لها جاء على لسان مسيح الدمشقيّ (عيسى بن حكم)^(٣٢).

أمَّا ابن ماسويه فقد ذكرها مرَّةً بوصفها عَرَضاً^(٣٣) ومرَّةً بوصفها مَرَضاً حينما عدَّدَ أمراض العين في معرفة مِخْنَةِ الكَحَّالين (المخطوط): «أوجاع العين وعللها في حُجبها وأغشيتها: الرَّمَد والقروح... والحِجَّة...».

وكذلك فعل عليّ بن سهل (رَبَّن) الطُّبري^(٣٤) الذي استعمل المصطلح بدلالتيه في جملةٍ واحدة: «وأمَّا الحِجَّة فتكون معها دمعَةٌ مالحةٌ وحِجَّةٌ وحُمْرَةٌ في الأَجْفان»، وهو هنا يحذو حذو حنين^(٣٥).

(٣١) الحاوي: (٢/٤٣٤).

(٣٢) الرِّسالة الهارونية: (ص ٢٠٩): «مرارته [النسر] تذاب بالعسل وتقطر في العين تنفع من الجرب والحكة الكائنة فيها». (ص ٢٧٣): «.. وإذا جُعِل [حجر الزبرجد] في الكُحْل أذهب الحِجَّة العارضة في العين». (ص ٣٠٩): «قال جالينوس وممَّا ينفع من حِجَّة العين للحنون...».

(٣٣) الكُنَّاش المُشجَّر (المخطوط): «وإن كان في العين: احمرار وحِجَّة اجتنب الأدوية المملذعة». «في الجَسَا وهي صلابة تعرض في العين مع حِجَّة».

(٣٤) فردوس الحكمة: (ص ١٦٢).

(٣٥) المسائل في العين: (المسألة: ١٦١، ص ٦١)، العشر مقالات: (ص ١٢٧ - ١٣٠).

الكلمة الأولى تدلُّ على مرضٍ والكلمة الثانية تدلُّ على عَرَضٍ.
وعَدَّ حنينُ بن إسحاق^(٣٦) الحِجَّةَ واحداً من الأمراض السبعة التي تصيب
الحِجَابَ المُلْتَحِمَ. كما عدَّها واحداً من أمراض الأَجْفَانِ الخاصَّة بها^(٣٧).

- نصوص مختارة:

- حنين بن إسحاق: المسائل في العين: (المسألة: ١٦١، ص ٦١): «ما

علامة الحِجَّة؟

جواب: علامة الحِجَّة: أن يحدث في العين دمعَةٌ مالحةٌ بورقيةٌ وحِجَّةٌ شديدةٌ
وحُمْرَةٌ في الأَجْفَانِ والعين، وربما عَرَضَ من شِدَّةِ الحِجَّةِ قُرُوحٌ في الأَجْفَانِ».

- حنين بن إسحاق: العشر مقالات في العين: (ص ١٢٧، ١٣٠،

الترجمة: ص ٥٧): «فأمَّا أمراض الملتحم فهي: الطَّرْفَةُ، والظَّفَرَةُ، والرَّمَدُ،
والانتفاخ، والجَسَأُ، والحِجَّةُ، والسَّبَلُ.

وأما الحِجَّةُ فيقال لها باليونانية (قنيسموس Knesmos).

الأعراض: دمعَةٌ مالحةٌ بورقيةٌ وحِجَّةٌ وحُمْرَةٌ في الأَجْفَانِ والعين وقُرُوحٌ».

- الحاوي: (٢/ ٢٧٦): «رؤف إلى العوام: قال: الحُكَاكُ وجميع ما

يلدع العين...».

- الكشكري: الكُنَّاش: (ص ٤٠ - ٤٣): «الحِجَّةُ: وأما الحِجَّةُ فتحدث

من مِرَّةٍ صَفْرَاءٍ تنصبُّ إلى الجفن فتحدث فيه حِجَّةٌ وحرقةٌ».

[وهو يفعل هنا ما فعله حنين وعلي بن سهل (رَبَّن)].

(٣٦) المسائل في العين: (المسألة: ١٥٥، ص ٥٩): «كم هي أصناف الأمراض الحادثة في

الحجاب الملتحم؟

جواب: سبعة وهي: الطَّرْفَةُ، والظَّفَرَةُ، والرَّمَدُ، والانتفاخ، والجَسَأُ، والحِجَّةُ، والسَّبَلُ».

(٣٧) المسائل في العين: (المسألة: ١٥٩، ص ٦١): «واعلم أنَّ الانتفاخ والجَسَأَ والحِجَّةَ ليست

هي من أمراض الأَجْفَانِ خاصَّةً، ولكن من أمراض الأَجْفَانِ والحجاب الملتحم».

- علي بن العباس المجوسي: الملكي: (١ / ٣٤٠ - ٣٤١): «فأما الحِجَّة فعلاقتها دمعة مالحة بورقية تحرق العين وحِجَّةٌ وحُمرةٌ في الأَجفان والعين». [شأنه شأن الكشكري من قبله].

- الزهراوي: التصريف: (ص ٤٠٨): «الحِجَّة: تعرض في المُؤقِن كليهما، أو في أحدهما، وإمَّا في باطن الجفون. وتكون إذا ابتدأت بغير حُمرةٍ في العين، فإنَّ تمادت بها الأيام احمرَّت الأَمَاق وتولَّد السُّلاق».

- علي بن عيسى: تذكرة الكَحَّالين: (ص ١٢٢ - ١٢٣): «أما الحِجَّة فنوعٌ واحدٌ. [الحِجَّة المرض]

علامتها: أنها تُحدِثُ في العين دمعةً ويكون الجفن أحمر، وربَّما عَرَضَ من شدَّة الحِجَّة قروحٌ في الأَجفان وربَّما عَرَضَت الحِجَّة في المَاق الأكبر أو في المُؤقِن جميعاً أو في باطن الجفن. وسببها: رطوبةٌ مالحةٌ بورقيةٌ غليظةٌ تنصبُّ إلى الجفن». [شدَّة الحِجَّة: عَرَضٌ، الحِجَّة: مرضٌ].

للبحث صلة



المصادر والمراجع

- تذكرة الكحالين، علي بن عيسى (ق ١٠-١١م)، (محقق).
- التّقسيم والتشجير، الرازي (ق ٩-١٠م)، (محقق).
- التنوير في المصطلحات الطبية، أبو الحسن القمري (ق ١٠م)، (محقق).
- الحاوي في الطّب، الرازي (ق ٩-١٠م)، (محقق).
- دغل العين، ابن ماسويه (ق ٩م)، مخطوط بطرسبورغ، مخطوط القاهرة.
- الرسالة الهارونية، عيسى بن حكم (مسيح الدمشقي) (ق ٨-٩م). (محقق).
- الطّب المنصوري، الرازي (ق ٩-١٠م)، (محقق).
- العشر مقالات في العين، حنين بن إسحاق (ق ٩م)، (محقق).
- غنى ومنى، أبو الحسن القمري (ق ١٠م)، مخطوط الظاهرية، مخطوط القاهرة.
- القانون في الطب، ابن سينا (ق ١٠-١١م)، (محقق).
- كامل الصناعة الطبية (الكتاب الملكي)، علي بن العباس (ق ١٠م)، (محقق).
- الكُنَّاش المُشجَّر، ابن ماسويه (ق ٩م)، مخطوط باتنا (الهند).
- الكُنَّاش، يعقوب الكشكري (ق ٩-١٠م)، (محقق).
- المسائل في العين، حنين بن إسحاق (ق ٩م)، (محقق).
- المُشجرة في أمراض العين، الرازي (ق ٩-١٠م)، مخطوط طهران.
- المعالجات البقرائية، أبو الحسن الطبري (ق ١٠م)، (محقق).
- معرفة محنة الكحالين، ابن ماسويه (ق ٩م)، مخطوط بطرسبورغ، مخطوط القاهرة، مخطوط إستانبول.
- المقالة الثانية من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، الزهراوي (ق ١٠-١١م)، (محقق).

التعريف والنقد

نظرات في بعض قرارات مجمع اللغة العربية في الألفاظ والأساليب

د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف (*)

نشرت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠١٢ في أعدادها الثلاثة الأخيرة من المجلد السابع والثمانين [م٨٧، ج٢، ٣، ٤] قرارات مجمع اللغة العربية في الألفاظ والأساليب عامي ٢٠٠٩ - ٢٠١٠، ثم نشرت في عددها الأخير [م٨٨، ج١، ٢٠١٥] بعض قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب في عام ٢٠١١، منبّهة في هذا العدد الأخير على «أنها قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع»، وراجية «ممن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة».

وهاتان العبارتان الواردتان في مقام الاعتذار والرجاء يُطلّ من ورائهما معانٍ جليّة، منها إيمان المجمع بأنّ ما يصدر عنه من ذلك لم يؤت الكمال، فالنقص فيه محتملٌ، وهو منه ليس في حرز، ونقد ذلك واعتراضه واردة ممكنان، وأمره في ذلك لا حصانة له منهما؛ وحرص المجمع على أن تزدان صنيعته بالتمام والإحسان اللذين يغذوهما تضافر الآراء وتلاقح الأفكار والرؤى والمعارف؛ وأنّ خدمة اللغة العربية الجليّة التي نرقى بها وترقى بنا ليست حكراً على أحد فردٍ أو أفراد بأعيانهم، أو مؤسسة بذاتها، بل هي أمانةٌ

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب - جامعة دمشق.

يُنْدَب إليها كلُّ من كان ذا رأي وعلم وخبرة في العربيّة وفنونها، وأوتي من فضيلة الحرص والغيرة عليها والحب لها ما يدفعه إلى أن يكون خَدَمًا لها. وقد رأيتُ، تلبيةً لدعوة المجلّة التي سمّت بها عبارة الرجاء، وعلت علوًّا، أن أُبدِي ما بدا لي في تلك القرارات التي نُشِرت في أعداد المجلة الأربعة، مؤازرةً للمجمع في ذلك، وصيانةً لما يصدر عن المجمع من النقص والزلل.

١ - أجاز المجمع في قراره الرابع [م ٨٧، ج ٢] قول المعاصرين: «أَرَفَقَ» بمعنى أَصْحَبَ، ومشتقاته؛ وعلل لذلك ببنائه من الفعل الثلاثي المجرّد «رَفَقَ» بمعنى صحب الذي يُعَدُّ في حكم المنطوق به، وإن لم يُستعمل؛ لأنّ كلمة «رَفِيق» بمعنى صاحب المصوغة من الثلاثي على وزن «فَعِيل» مؤذنةٌ بذلك؛ ثمّ بحمله على معنى «رَافَقَ»؛ لأنّه قد يأتي «فَاعَلَ» بمعنى «أَفْعَلَ» نحو: «بَاعَدَ وَأَبْعَدَ»...

وذكر في أثناء ذلك التعليل «أنّ الذي ورد في المعجم هو البناءان المزيدان رافق وترافق»

وقد لخصّ بأخرة تعليله بقوله: «وبناءً على ما سبق يمكن إجازة الفعل «أرفق» إمّا على أنّه مزيد على الثلاثي المقدّر وجوده، وهو «رَفَقَ»، وإمّا على أنّه قياس على (أَفْعَلَ) بمعنى (فَاعَلَ)».

وفي ذلك نظرٌ من وجوه:

١ - يقتضي تفسير حَمَلِ «أرفق» على معنى «رافق» مجيء «أَفْعَلَ» بمعنى «فَاعَلَ»، لا العكس، خلافاً لما نصّ عليه المجمع في تفسيره. على أنّ ذلك الحمل غير لازم؛ لأنّ نواة الدلالة المعجميّة للجذر «رفق» الذي بُني منه الفعل «أَرَفَقَ»، وهو معنى الصحبة، وما يلزم عنه من معنى الاقتران، تغني عن معنى المشاركة الذي يصدر عن الدلالة الصرفيّة لصيغة «فَاعَلَ».

٢- لم يكن الوارد من مادة «رفق» لمعنى الاصطحاب بناءين فقط كما نصّ المجمع، لورود بناء «ارتفقوا» الذي نصّ عليه اللغويون نصّاً أيضاً^(١).

٣- لم تكن عبارة المجمع في الخلاصة محكمة؛ لأنها دلّت بـ«إمّا... وإمّا...» على أنّ إجازة الفعل «أرفق» فيما ذهب إليه المجمع وعلّله، مبنية على وجهين. والصحيح أن تلك الإجازة كانت على وجه واحد ذي طورين: الطور الأول: بناء «أرفق» من الثلاثي المجرد المقدّر وجوده «رفق». والطور الثاني: حمل ذلك الفعل المبني على معنى «رافق».

٢- منع المجمع في قراره السادس [م ٨٧، ج ٢] استعمال المعاصرين: «استضاف القوم فلاناً» بمعنى قدّموا له الضيافة، وخطأه، وصحّ استعماله بمعنى طلبوا أن يكون ضيفاً. واعتلّ لذلك بأنّ صيغة «استفعل» تدلّ على طلب الشيء، وأنّ استعمالها في قولهم بمعنى تقديم الشيء ليس صحيحاً، وأنّ العريّة عبرت عن تقديم الضيافة للضيف بقولهم: «ضيف القوم فلاناً».

ومنع ذلك وتخطّته عند النظر بما اعتلّ به فيه من تحجير الواسع ما يدلّ على أنّ المجمع لم يحسن تقليب صيغة «استفعل» على وجوهها. فلو قلبها كما يحسن وينبغي لوجد في بعض معانيها ما يستوعب مراد المعاصرين، ويدلّ عليه؛ لأنّ من معاني صيغة «استفعل» في كلام العرب كما نصّ العلماء معنى الاتّخاذ، نحو: استعبده: اتّخذه عبداً، واستأجره: اتّخذه أجيراً، واستوطن... وعرض استعمال المعاصرين على هذا المعنى يدلّ على أنّه معنى سائغ فيه مناسب له، متضمّن ما تقتضيه الاستضافة من تقديم الضيافة للضيف. فإذا قالوا: «استضاف القوم فلاناً» كان معناه اتّخذ القوم فلاناً ضيفاً، وكان تقديم ما ينبغي من ضيافة ممّا يقتضيه ذلك الاتّخاذ.

(١) انظر مثلاً: أساس البلاغة واللسان (رفق).

وفي ضوء ذلك أقترح أن يعيد المجمع النظر فيما قرره، وأن يُسيغ استعمال المعاصرين ويبيحه؛ وأرى أن ينصّ في كلامه على أن «استضاف فلاناً» بمعنى طلب منه أن يكون ضيفاً من كلام العرب الصحيح الفصح الذي نصّ عليه بعض العلماء وذكروه في معاجمهم^(٢)، خلافاً لما يوحي به بعض كلام المجمع في تفسيره وتصحيحه وتوجيهه.

٣- أجاز المجمع في قراره السابع [م٨٧، ج٢] قولهم: «استعرض القائد الجند، واستعرض الباحث أفكاره»، وخرّج الفعل فيهما على الطلب. وقد وزن المجمع في أولى الجملتين عبارة القدماء التي نصّ عليها اللغويون وفسروها في معاجمهم: «استعرضه: سأله أن يعرض عليه ما عنده..» بعبارة المحدثين: «استعرض القائد الجند، أي: سألهم أن يعرضوا عليه ما عندهم من مظاهر القوّة والعتاد»؛ وحكم عليهما بالمماثلة. ونصّ في توجيه قول المحدثين: «استعرض الباحث أفكاره على أنه لا يُقبل إلا على جهة المجاز، كأنّ الباحث طلب إراءة أفكاره الآخرين». ا. هـ. وفي ذلك عندي ما يدعو إلى التعقيب من وجهين:

١- تقتضي المماثلة الصحيحة بين عبارة القدماء والمحدثين التي استند إليها المجمع في تسويغ قولهم: «استعرض القائد الجند» أن يحكم عليه في قراره الذي اتّخذه بأنّه صحيحٌ فصيحٌ؛ لأنّ اختلاف متعلّقات الفعل في هذه العبارة، أعني الفعل والفاعل: القائد والجند، لا يُخرجها من صميم اللغة العربيّة الفصحى، ولا ينفي عنها صفة الفصاحة، إلا إذا أخرجت كلمة «السيّارة» قول الناس: «قاد السيّارة» من حدّ الصحة والفصاحة، وطردها من تلك الحضرة.

(٢) انظر: اللسان والتاج (ضيف).

٢- حمل قول المعاصرين: «استعرضَ الباحثُ أفكارَه» على الطلب المجازي على صحته، لا ينبغي أن يكون حملَ حضر لا محيد عنه؛ لجواز أن يكون «استفعل» فيه بمعنى الفعل الثلاثي المجرد «فَعَلَ»، فيكون المعنى: عرضَ الباحثُ أفكارَه.

ولا شك في أن حمل «استعرضَ» على هذا الوجه أوضح وأيسر. ولنا في العربية من الشواهد التي ورد فيها «استفعل» بمعنى «فَعَلَ» ما يُسيغ هذا القياس ويؤيده.

٤- أجاز المجمعُ في قراره التاسع [م٨٧، ج٢] استعمال المعاصرين الفعل «استقطب» وتصريفاته في مثل: «استقطب الزعيمُ الجماهيرَ» بمعنى جمع الناس أو الأشياء وجذبهم إليه، وخرجه على أن دلالة الصيغة الصرفية فيه هي الطلب، أظهر معاني «استفعل»، وهو في ذلك يقلد مجمع اللغة العربية في القاهرة.

ولعلَّ أوضح من هذا التوجيه وأبين أن يُفسَّر على أنه فعل اشتقَّ من اسم ذاتٍ «قُطِبَ» على وزن «استفعل» لمعنى التحوُّل المجازي أو التشبيه، أي إنه صار للجماهير بمنزلة القطب، أو أشبه القطب لهم في المكانة والسيادة والأثر. وهو أبلغ في التعبير عن المراد وألصق بالمقصود من معنى الطلب أو السؤال الذي يبدو قلقاً غير متمكّن.

وهذا التوجيه السائغ من حيث دلالة البنية الصرفية، وموافقة مقصود المعاصرين في استعمالهم؛ لا يناسبه نصبُ «الجماهير» ونحوه على المفعول به؛ لأنَّ «استفعل» إذا كان للتحوُّل المجازي أو التشبيه كان لازماً، وجعل المنصوب مفعولاً به يُخلُّ بالمعنى، فمن هنا كان المناسب أن يُحمَل على أنه منصوبٌ بنزع الخافض، على تقدير: استقطب الزعيمُ للجماهير.

٥- أجاز المجمعُ في قراره العاشر [م٨٧، ج٢] قولَ المعاصرين: «استقلَّ فلان السيَّارة»، وخرَّجه معلَّلاً على ثلاثة أوجه:

١- «استفعلَ» في هذه العبارة للطلب، على معنى: طلب من السيَّارة أن تُقلَّه، أي تحمله.

٢- نزع الخافض، على معنى: طلب من السيَّارة الإقلالَ !!.

٣- القلب، وهو من أساليب العربيَّة، على أن الأصل تقديرًا: استقلَّت السيَّارةُ فلانًا.

وبعض ما قاله المجمعُ هنا لا يصحُّ؛ فتوجيهُ العبارة الثاني على نزع الخافض، على معنى: طلب من السيَّارة الإقلالَ، عند التأمل غلط فادحٌ وراءه سهوٌ محض. فأين الخافضُ في قولهم: «استقلَّ فلان السيَّارة»، أم هو خلطٌ بين العبارة وتفسيرها، وهو غير جائز؟

على أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أجاز ذلك، أي نزع الخافض، في قول المحدثين: «استقل الطائرة» مقتفياً أثر الشيخ محمد علي النجار، على أن أصله: استقل في الطائرة، أي ارتفع، فحذف الحرف^(٣).

فكأن المجمع هنا في تخريجه الثاني خلط بين التعبيرين. وهذا التخريج لا ينهض في قول المحدثين: «استقلَّ فلان السيَّارة» إلا إذا كانت السيَّارة ترتفع براكبها!.

وهذا الوجه الثاني إذا حُذفت منه عبارة «نزع الخافض» التي لا وجه لها، إعادةً للوجه الأوَّل، فحذفه واجب.

على أن من تمام الأحكام أن ينصَّ المجمع على أن الطلب الذي تدلُّ عليه صيغةُ «استفعل» في الوجه الأول من قبيل الطلب المجازي.

(٣) مسعود عبد السلام حجازي، الألفاظ والأساليب، ٣/١٧٧-١٧٨.

هذا، وقد كان من المستحسن أن يضمّن المجمع قراره الذي أجاز فيه قولهم: «استقلّ فلان السيّارة» ما نصّ عليه في اقتراحه من أن الأولى: استقلّت السيّارة فلاناً أو أقلّته (*).

٦- أجاز المجمع في قراره الثاني عشر [م ٨٧، ج ٢] قول الناس: «استهدف القانون المصلحة العامّة» ونحوه؛ وقلّب تخريجه على معنى الطلب، بمعنى: طلب المصلحة العامّة؛ ومعنى جعل الشيء على هيئة، ومعنى رؤية الشيء على صفة معيّنة.

والظاهر من عبارته إيثار تخريجه على معنى الطلب واختياره. ولعلّ حمله على معنى الاتّخاذ، وهو أحد معاني صيغة «استفعل»، أنسب وأوضح وأيسر؛ ويكون قول الناس: «استهدف القانون المصلحة العامّة» بمعنى: اتّخذ القانون المصلحة العامّة هدفاً له. ومما يؤيد هذا الوجه، ويؤثره على معنى الطلب، ما في تفسير العبارة على معنى الطلب (طلب القانون المصلحة العامّة هدفاً له) من ضعف والتواء يخلو منهما تفسيرها على معنى الاتّخاذ.

٧- بدا كلام المجمع في قراره الثالث عشر [م ٨٧، ج ٢] على استعمال كلمة «المؤشّر» بمعنى الدليل أو المقياس عامّاً، لا يخصّصه مخصّص من نصّ أو إشارة أو قرينة. حتى إذا بلغ المرء آخر التعليل فاجأه المجمع بتخصيص «المؤشّر» نصّاً بدليل حركة الأسواق والأموال، دون أن يشي بذلك سياق أو يقتضيه مقتضى أو يُمهّد له بشيء. قال: «أمّا المؤشّر فهو ما يُشار به عامّة، ولكنّه خُصّص هنا بمعنى ما يُشار به إلى حركة الأسواق والأموال، فهو دليل يشير إلى سعر أو نحوه».

(*) كانت العبارة في نص القرار الذي عرض على مؤتمر المجمع، وهو الذي طلب إلغاء هذه الأولويّة. [المجلة].

وبذلك بدت هذه القطعة في تعليل المجمع قلقةً نابية عن السياق نبوءًا ظاهراً. فالواجب أن يكون الكلام عامًّا، وأن يُذكر «مؤشّر» الأسواق الماليّة، إذا كان لا بدّ أن يُذكر، على وجه التمثيل، فيقال: المؤشّر الدليل أو المقياس الذي يشار به إلى شيء معيّن، ومنه مؤشّر الأسواق والأموال الذي يشير إلى سعر أو نحوه.

٨- كان من المستحسن إذ تناول المجمع في قراره الرابع عشر [م٨٧، ج٢] قول المحدثين: «أضرب العمّال عن العمل» أن يستوعب ما ضاهى هذه العبارة، وجرى على نسقها من أقوال المحدثين، كقولهم: «أضرب عن الطعام، وعن الدراسة، وعن الكلام،.. إلخ».

وكان عليه أن يرى أنّ هذه التعبيرات من صميم اللغة العربيّة، وهي موصولةٌ بما ورد في معاجم اللغة اتّصلاً قوياً لا ينقطع؛ لأنّ نصّ اللغويين: «أضرب فلان عن الأمر، إذا كفّ...» يدلّ على إمكان أن يُعبّر بهذا التركيب عن الكفّ عن كلّ ما يُمتنع منه ويكفّ عنه. فهو تركيبٌ تتجاذبه ثنائيّة الثابت والمتحوّل، فصيغة «أضرب عن» وما يؤخذ منها ويشتقّ (ثابتٌ) يصحّ استعماله حيث كان امتناعٌ وكفٌّ، و«الأمر» (متحوّلٌ) يصحّ أن يقوم مقامه كلّ ما يُمتنع منه ويكفّ، من عمل ودراسة وطعام وكلام.... وهذه التعبيرات صورٌ مشتقةٌ من الأصل الذي نصّ عليه اللغويون «أضرب فلان عن الأمر» واستحلّه المعاصرون، وأمثلةٌ مخصّصة تناسب استعمال العرب. وهذا الأصل يحتمل اشتقاقاً أو توليد الكثير من الصور الموازية التي يتغيّر فيها الممتنع منه، أي المجرور الذي يصل إليه الفعل بحرف الجرّ «عن».

ومن ثمّ لم يكن من بأس أن يُوصف التعبير عن ذلك بأنّه قديمٌ غير محدث، أو أنّه امتدادٌ للتعبير القديم. والدلالة اللغويّة في الحالين واحدة،

والمحدّث في استعمال المعاصرين دلالة اصطلاحية أو عرفية لا أثر لها في الدلالة اللغوية، تقوم على اقتران الامتناع عن الأمر والكف عنه بمطالب أو حقوق أو موقف معيّن. وبذلك امتازت عبارة المعاصرين من استعمال العرب الأوّلين الذي نصّ عليه اللغويّون، وكان فيها شيء من التخصيص والتنوع.

٩- أجاز المجمع في قراره الخامس عشر [م ٨٧ ج ٢] قول المعاصرين: «أطاح الثوّارُ بالمستعمر» بمعنى أسقطوه، حملاً على تعديّة «طَيَّحَ» بالباء؛ إذ يقال كما في (التاج): «أين طَيَّحَ بك؟ أي أين ذُهِبَ بك؟». وقد علّل لذلك الحمل بما لا يصحّ، أو بما فيه نظرٌ وتوقّف. قال: «ولمّا كان (فَعَّل) يأتي بمعنى (أفَعَلَ) كثيراً، نحو: «غَلَقْتَ الأبواب وأغلقتها» إذ قال ابن يعيش: «وأما (فَعَّل) فإنّه يشارك (أفَعَلَ) في أكثر معانيها، إلّا أن أحدهما قد يكثر في معنى ويقلّ في الآخر «ولمّا كانت تعديّة المتعدّي مباشرة بالحرف مسموعة في العربيّة كما ورد في اللسان في مادة (غلا): «لَعَبَ بالكعاب ولعب الكعاب». فلكلّ ذلك جاز أن يستعمل «أطاح الشيء وأطاح به». انتهى التعليل.

في الشطر الأوّل من هذا التعليل ما يقتضي النظر والتوقّف من أوجه:

١- مجيء صيغتي «فَعَّل» و«أفَعَلَ» من حيث الدلالة الصرفية بمعنى واحد كثيراً كما قرّر بعض العلماء، ليس مطيئة تمطوها الحتمية والجبرية؛ لأنّ ذلك غير مطّرد، فلا يلزم من ذلك أن تُبنى من كلّ مادّة صيغتا «فَعَّل» و«أفَعَلَ» بمعنى واحد.

٢- اتّفاق صيغتي «فَعَّل» و«أفَعَلَ»، ومشاركة إحداهما الأخرى في المعنى، مداره على الدلالة الصرفية، كالتعديّة والسلب، نحو: قعدته وأفعدته، وقشّرته وأمراضته. والتعديّة في «طَيَّحَ به» مصدرها النمط

التركيبية: اتصال الفعل بحرف الجرّ الباء، لا الدلالة الصرفية للصيغة «فَعَل». ومن ثمّ لا يُعدُّ التمثيلُ أو التنظير بـ«أطاح به» و«طَيَّح به» مناسباً للفكرة التي يقوم عليها هذا الشطر من التعليل أو الاستدلال.

٣- التمثيل لاتفق «فَعَل» و«أفعل» في المعنى بـ«غَلَّقت الأبواب وأغلقتها» غيرُ صحيح؛ لأنّ الدلالة الصرفية للصيغتين هنا مختلفة، فالفعل «غَلَّقت» هنا يفيد التكثير، والفعل «أغَلَّقت» يفيد التعدية.

وفي شطر التعليل الثاني من الخطأ والتحريف في التفسير والاستدلال ما لا يصحّ الاطمئنان إليه البتّة. فمن الخطأ الغليظ أن يفهم من عبارة (اللسان): «لعب بالكعب ولعب الكعب» ما عبّر عنه المجمع بقوله: «تعدية المتعدّي مباشرة بالحرف مسموعة في العربية كما ورد في اللسان!!» فمتى كان الفعل «لعب» متعدّياً بنفسه، إلّا في عبارة المعاصرين؟ وإذا كان متعدّياً بنفسه فلم ذهب المجمع في بعض قراراته [القرار ٤١، م ٨٧، ج ٤] متأوّلاً إلى تضمين الفعل «لعب» في قول المعاصرين: «لعب الرجلُ دوراً هاماً» معنى الفعل «أدّى» لتصحيح تعديته بنفسه؟!

ثم إنّ الظاهر من عبارة (اللسان): «لعب بالكعب ولعب الكعب» أنّ الفعل «لعب» في الشطر الأوّل منها متعدّد بالباء، وفي الشطر الثاني من العبارة منصوبٌ بنزع الخافض، لا متعدّد؛ وإلّا ثبت به تعديته بنفسه، ولو على وجه أو لغة، وهو ما لا أثر له في عبارة اللغويين ونصوصهم.

وبذلك كان تعليل المجمع لما أجازاه من قول المعاصرين: «أطاح الثوّارُ بالمستعمر»، وتخريج عبارة الرياضيين: «أطاح المصارغُ بخصمه» بمعنى رمى به وأسقطه = ضعيفاً لا يؤيّد قراره ولا يسعفه. فكان عليه أن يبحث عن علة تسوّغ مذهبه في جواز ذلك وتخريجه؛ كأن ينصّ على كثرة

استعمال هذا الفعل «أطاح» في لغة المعاصرين متعدياً بالباء، وينبّه على أنّهم ربّما عدّوه بالباء لتوهّم أنّه لازم غير متعدّد.

١٠- لم يصدر المجمع فيما قال في قراره السادس عشر [م٨٧، ج٢] عن عبارة «اعتقلت الشرطة المجرم» عن استقراء مادّة المعاجم القديمة استقراءً دقيقاً. ولو كان لكلمته في تلك العبارة مثل ذلك لانتهى إلى أنّ الفعل «اعتقل» الذي يستخدمه المحدثون قديماً نصّت عليه بعض تلك المعاجم نصّاً. قال الفيومي (عقل): «اعتقلت الرجل: حبسته».

وقال الرازي (عقل): «اعتقل الرجل: حُسّ».

وقال الزبيدي، فيما استدركه (عقل): «واعقله: حبسه ومنعه».

ولو وقف المجمع على هذه النصوص الصريحة لردّ اعتلال مَنْ خطأً عبارة «اعتقلت الشرطة المجرم» بأنّ «اعتقل» لم يرد في المعاجم القديمة بالمعنى الذي أرادوه؛ ولما كان للمجمع في ذلك موافقة ورضا دلّ عليهما السكوت والتأويل.

وإذا كانت هذه النصوص قد انتهت في هذه الكلمة إلى المجمع فإنّ ممّا ينبغي له في تقديري أن يصحح عبارة «اعتقلت الشرطة المجرم» بالنصّ الوارد في تلك المعاجم، لا بالتأويل والتقدير الذي التجأ إليه؛ وأنّ يُضبط معنى تلك العبارة بما كان في تلك المعاجم: «حبسه ومنعه»، لا بما ورد في عبارته من قوله: «ألقت القبض عليه»؛ لأنّ إلقاء القبض بعض ما يقتضيه الاعتقال أو هو من مقدّماته، أو قطعة منه، لا كلّها؛ وأنّ يحكم في قراره بآخرة أنّ قولهم: «اعتقلت الشرطة المجرم» صحيحٌ فصيحٌ.

١١- افتقر كلام المجمع في قراره السابع عشر [م٨٧، ج٢] إلى الإحكام، إذ استدللّ لإجازة قول المحدثين: «أعدّم القاضي المجرم» في

سياق التعليل؛ إذ ترك من نصوص المعاجم ما هو ألصق بالمسألة وأصرح وأليق؛ واختار من (المعجم الوسيط) ما كان يحسن نقله من المعاجم القديمة كالقاموس والتاج وسواهما، لئلا يوحى ذلك بخلوّ تلك المعاجم من ذلك. ولو كان لي أن أعلّل لجواز ذلك لقلت: أ- في (المصباح المنير) (عدم): «عَدِمْتَهُ عَدَمًا مِنْ بَابِ تَعَبٍ، وَالاسْمُ الْعُدْمُ.... وَيَتَعَدَّى إِلَى ثَانٍ بِالْهَمْزَةِ يُقَالُ: لَا أَعْدَمَنِي اللَّهُ فَضْلَهُ».

ب- في (التاج) (عدم): «الْعُدْمُ بِالضَّمِّ، وَبِضْمَتَيْنِ، وَبِالتَّحْرِيكِ: الْفِقْدَانُ وَالذَّهَابُ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَى فَقْدَانِ الْمَالِ وَقَلَّتْهُ. عَدِمَهُ كَعَلِمَهُ عُدْمًا بِالضَّمِّ وَبِالتَّحْرِيكِ.... وَمِمَّا يُسْتَدْرَكُ عَلَيْهِ: يُقَالُ: لَا أَعْدَمَنِي اللَّهُ فَضْلَكَ، أَي: لَا أَذْهَبُهُ عَنِّي. وَيُقَالُ: عَدِمْتُ فَلَانًا، وَأَعْدَمَنِيهِ اللَّهُ».

ففي هذين النصين شيءٌ صريحٌ نصًّا أو إشارةً دالٌّ على أنّ «عَدِمَ» فعلٌ متعدّدٌ إلى مفعول، و«أَعْدَمَ» متعدّدٌ إلى مفعولين. ومنهما يتهدّى المرء إلى أنّ «أَعْدَمَ» في قول المحدثين: «أَعْدَمَ الْقَاضِي الْمَجْرَمَ» فعلٌ متعدّدٌ إلى مفعولين حُذِفَ ثانيهما للعلم به، وأنّ الكلام على تقدير: أَعْدَمَ الْقَاضِي الْمَجْرَمَ رَوْحَهُ أَوْ حَيَاتَهُ، أَي أَذْهَبَهَا عَنْهُ وَأَزَالَهَا.

ونصُّ القاموس والتاج على أنّ «الْعُدْمُ» و«الْعَدَمُ» بمعنى الفقدان والذهاب، مع غلبته استعمالاً على فقدان المال وقَلَّتْهُ يقتضي صحّة استعمال «أَعْدَمَ» في قول المحدثين «أَعْدَمَ الْمَجْرَمَ» وتصريفاته بمعنى الإذْهَاب؛ لأنّ المعنى الأوّلي (الذهاب) الذي تدلّ عليه نواة الكلمة الأولى «العدم» ثابت في هذا الفعل الثلاثي المزيد المتعدّي «أَعْدَمَ»؛ ويعني بآخرة أنّ فيه شيئاً من معاودة أصل الدلالة المهجور، وهو مطلق الفقدان والذهاب، وإفادته منه.

على أنّ هذا الاتّساع في الدلالة، عوداً إلى أصلها، ليس تعميماً للدلالة بعد تخصيص كما ورد في عبارة المجمع، بل هو تخصيص آخر وتنويع. وإذا صحّ هذا التخرّيج لهذا الاستعمال المولّد المحدث - وهذا الوصف ممّا تحسن زيادته في عبارة المجمع لما فيه من مزيد دقّة - لم يكن من حاجةٍ إلى الاعتلال بما اعتلّ به المجمع من شيوع الكلمة «أعدم» في القضاء والحقوق وصلب القوانين، بحيث لا يُستغنى عنها، ولا سيّما أنّ علّة الشيوع وكثرة الاستعمال قد أهملت في مواضع أخرى كان ذكرها فيها والنصّ عليها ثمة تسويغاً واستشفاعاً أو جبّ وأولى.

هذا، ويحسن بأخرة أن يتضمّن قرار المجمع النصّ على حذف المفعول الثاني للفعل «أعدم»، فيقال: قول المحدثين: «أعدم القاضي المجرم» جائز على تقدير حذف المفعول الثاني، والتقدير: أعدم القاضي المجرم روحه أو حياته.

١٢ - كان الواجب فيما انتهى إليه المجمع في قراره الثامن عشر [م ٨٧، ج ٣]، إذ تناول «أغنية وأغنية»، أن ينصّ على إثارة الفصح «أغنية» بالتشديد، فيقال: الفصح في كلام العرب «أغنية» بتشديد الياء، وتخفيف الياء «أغنية» جائز.

وكان ينبغي أن يُذكر في التعليل ما يدلّ على ذلك من جريان العرب على استعمال «أغنية» بالتشديد فيما انتهى إلينا من كلامهم؛ وأنّ ما انفرد به ابن سيده من تخفيف «أغنية»^(٤)، ونسبه إليه الزبيدي في (التاج)، عقب عليه ابن سيده نفسه تعقيب متحفّظ، فقال: «ولست بقوة».

وكان المناسب، بل الواجب، أن يُذكر هذا التعقيب، فيما ورد في

(٤) ابن سيده، المحكم، (غني).

التعليل من نصّ (التاج)؛ لأنّ حذفه يوهم بخلاف الواقع، ويوحي باستواء الوجهين «أغنيّة» و«أغنية»، قال الزبيدي: «وبينهم أغنيّة كأثقيّة، وعليه اقتصر الجوهرى في الصحاح؛ ويُخفّف عن ابن سيدة. قال: وليست بالقويّة؛ إذ ليس في الكلام أفعلّة إلاّ أسئمة فيمن روى بالضمّ».

١٣ - أجاز المجمع في قراره التاسع عشر [م ٨٧، ج ٣] قولهم: «أفسح له المجلس، وأفسح له في المجلس»، وإن كان الأولى أن يقال: فسح له، وتفسح. واستدلّ لذلك في التعليل بما كان في (تاج العروس) من قول «أعرابيٍّ لخرّازٍ كان يخرز له قربة: إذا خرزت فأفسح الخطأ، يقول: باعد بين الخرزتين». وفسّر «أفسح» فيه بقوله: «وأفسح هنا أمرٌ من الماضي أفسح على وزن أفعل».

واستدلّ أيضاً بما جاء في (المعجم الوسيط): «فسح بين الخرزتين: وسّع... وأفسح المكان: وسّعه»؛ واحتجّ بجواز مجيء «أفعل» في العربيّة بمعنى «فعل»، معتلاً بأنّ همزة «أفعل» لا يُشترط أن تُفيد دائماً التعدية. ونصّ على أنّ تينك العبارتين اللتين أجازهما بمعنى باعد له في المجلس كما في منطوق التاج أو بمعنى وسّع المكان كما في منطوق الوسيط. وفي ذلك عند التحقّق نظر من وجوه:

١ - تفسير «أفسح» فيما كان في قول الأعرابي في (التاج) بأنّه أمرٌ من الفعل «أفسح»، تفسيرٌ لا تحقيق فيه، قام على ظاهر الرسم الإملائيّ وحده لا غير، وهو غير كافٍ؛ وليس في النصّ ما يدلّ عليه دلالة قاطعة أو يؤكّده. ولو دلّ عليه سياقٌ أو قرينة أو ضبط نصّ صريح يرد فيه: «أفسح» بالألف، - وبمثله (أي بالألف) عبر الزبيدي وغيره في ضبط ما كان نحوه في مواضع - لاطمأنّ القارئ، ولالتقط العلماء ذلك، ومنهم الزبيديّ، وأعلنوه في موضعه من معاجمهم إعلاناً.

ويؤكد هذا عندي اختلافُ رسم هذه الكلمة في المعاجم التي ذكرت قول ذلك الأعرابي، إذ وردت في (تهذيب اللغة) للأزهري، و(التكملة) للصغاني على هيئة أمر الثلاثي «فأسح»، وعليه جرت بعض نسخ (التاج) نفسه^(٥)؛ كما يؤكدُه خلوُّ كلام من روى هذا النص: الأزهري في (التهذيب)، وهو مصدره الأول، ومن نقله وردده كالصغاني وابن منظور، من هذا الفعل «أسح» بمعنى وسَّع.

٢- ورودُ «أفسح المكانَ بمعنى وسَّعه» في (المعجم الوسيط) ليس فيه ما يقطع أنه دليل نقل، أو ما يرقى إلى الحكم عليه بأنه نصٌّ في ذلك لا يحتمل التردد أو التأويل. وهو في ضوء انفراد (المعجم الوسيط) به، وغياب مثله عن معاجم القدماء، يحتمل أن يكون ثمرة قياس، اجتهد واضعوه فيه اجتهاداً، فعدُّوا الفعل اللازم «فَسَحَ المكانُ إذا اتَّسع» بالهمزة، وبنَّوه على «أفعل»، فكان أفسح المكانَ بمعنى وسَّعه.

٣- قول المجمع عند اعتلاله لجواز مجيء «أفعل» في العربيَّة بمعنى «فعل»: «ولا يُشترط دائماً أن تُفيد همزة (أفعل) التعدية» من البديهيَّات التي لا يلزم النصُّ عليها؛ إذ لا خلاف في أنَّ الهمزة في بناء «أفعل» لا تكون للتعدية في كلِّ حال، وإذا كانت تأتي أكثر ما تأتي للتعدية فإنها تأتي أحياناً لصيرورة الفاعل ذا صفة من فعله، والحينونة، ووجود المفعول على صفة، وللسلب، وللدخول في مكان أو زمان^(٦).

٤- الإشارةُ إلى اختلاف معنى «أسح» بين منطوق (التاج) ومنطوق

(٥) انظر: تاج العروس، المطبعة الخيرية بجمالية مصر، ط ١٣٠٦هـ، ١٣٠٦/٢، ١٩٧.

(٦) انظر: سيبويه، الكتاب، ٤/٥٥ - ٦٣، وابن قتيبة، أدب الكاتب، ٤٦٢ - ٤٦٤،

والرضي، شرح الشافية، ١/٨٥ - ٩٢.

(المعجم الوسيط)، إذا سلّم المرء بصحة استدلال المجمع بما في هذين المعجمين، لا تثبت للنقد عند التأمل؛ لأنّ توسيع المكان والمباعدة في المجلس شيان يفضي أحدهما إلى الآخر، ويقتضي كلّ منهما الآخر. والدقة تقتضي الجمع بين المعنيين بالواو، لا التمييز بينهما بالعاطف «أو»؛ فيقال: جائزتان بمعنى باعد له في المجلس، ووسّع المكان.

هذا، والمستحسن في ضوء ما بدا في بعض هذه الوجوه أن ينبّه المجمع على أنّ قول الناس: أفسح له المجلس، وأفسح له في المجلس، مولّد محدث؛ وربّما كان من مولّدات المتأخرين، أكثر المحدثون من استعماله؛ وأنّ يعلّل مذهبه في قبول ذلك وإجازته قياساً بفشوّه وكثرة استعماله.

١٤ - أجاز المجمع في قراره الثاني والعشرين [م ٨٧، ج ٣] ما عليه أكثر الناس في زماننا من تخفيف ياء «أُمسِيّة»، قياساً على ما نصّر عليه بعض العلماء من تشديد ياء «أُغنيّة» وتخفيفها. وكان ممّا علّل به أيضاً أنّ «مادتهما اللغوية متقاربة، وهي (غنا ومسا).... ولا شيء يمنع من حمل (أُمسِيّة) عليها.»؛ وأنّ من سنن العرب تخفيف الياء المشدّدة في بعض المواضع، إذ ورد (الأُثنيّة والأُثنيّة) ولو بدلالة مغايرة قليلاً....

ولا شكّ في أنّ بعض ما كان في تعليل المجمع لا يصحّ، أو يُتحمّل منه:

١ - تقارب مادة الكلمتين الأولى «غنا» و«مسا» أو اتّحادهما في الوزن ليس قرينة مسوّغة لقياس إحداهما «أُمسِيّة» على الأخرى «أُغنيّة».

٢ - نفى المانع من حمل «أُمسِيّة» على «أُغنيّة» في التخفيف فيه مخالفة لبعض ما جرى عليه الجمهور في شروط المقيس عليه، والمقيس عليه هنا ليس بقويّ؛ إذ ذكر ابن سيده «أُغنيّة» بالتخفيف، وقال: «وليست بقوية»، ولا بكثير.

٣- لم ترد «الأثْفِيَّة»(*) بتخفيف الياء في أي معنى من المعاني؛ فما من أحد - أعلمه - في معجم أو غيره قديم أو حديث ذكر مثل ذلك عن العرب نصًّا أو إشارة، وليس للمجمع فيما قاله في ذلك مصدر أعلمه، والذي نصَّ عليه العلماء جواز التخفيف في جمعه «الأثافي».

وفي ضوء ذلك يحسن في رأيي التنبيه على أنّ مسوِّغ جواز قول المحدثين: «أُمْسِيَّة» بالتخفيف هو فشوّها وكثرة استعمالها، وأنّ حملها على ما روي من تخفيف ياء «أُعْنِيَّة» هو ضربٌ من الاستئناس لا القياس، وينبغي التنبيه في القرار على أنّ «أُمْسِيَّة» بالتشديد هي الفصحى المأثورة عن العرب، فيقال: جواز قول المحدثين «أُمْسِيَّة» بتخفيف الياء، والفصحى بالتشديد «أُمْسِيَّة».

١٥- بدلي كلام المجمع على «انعدم» و«انعدام» في قراره السادس والعشرين [م٨٧، ج٣] متقّصاً غير مستوفى، ورد فيه ما لا يصحّ ولا يُرتضى. وأوّل ما كان ذلك في تبيين المسألة وتاريخها، فقد كان من الواجب أن يُحاط بأطراف المسألة، فيقال: «انعدم» وتصريفاته من المولّد القديم الذي استخدمه القدماء، ولاسيّما المتكلّمون والمناطقة والفقهاء، وهو ممّا أكثر المحدثون استخدامه، واتّسعوا فيه حقيقةً ومجازاً. وقد اختلف العلماء والباحثون في الحكم عليه وبيان حاله، وكان رأي الجمهور فيه متحفّظاً منه تصريحاً أو إشارةً واقتضاءً؛ إمّا بمنعه وإمّا بتخطّئته، وإمّا بتضعيفه^(٧). ولم يفسّر المجمع، إذ سعى في تعليل جواز «انعدم»، تحفّظ العلماء

(*) بل وردت في لسان العرب ولكن بمعنى مغاير قليلاً كما ذكرنا في لسان العرب آنفاً. [المجلة].
(٧) انظر: الجرجاني، المفتاح في الصرف، ٥٠، وابن يعيش، شرح المفصل، ١٦٠/٧، وابن الحاجب، الإيضاح في شرح المفصل، ١٢٢/٢، والشافية في علم الصرف، ٢١، وركن الدين الأستراباذي، شرح الشافية، ص ٤٤، وأبو حيان، الارتشاف ١/١٧٦، وتاج العروس (عدم).

من هذه الكلمة وتصريفاتها. ولو سعى المجمعُ لذلك سعيه لعرف أنّ هذا الوزن الذي بُني عليه انعدم، أي (انفعل) «في الأغلب مطاوع «فَعَلَ» بشرط أن يكون فَعَلَ علاجاً: أي من الأفعال الظاهرة؛ لأنّ هذا الباب موضوع للمطاوعة، وهي قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب أولى وأوفق. فلا يقال: علمته فاعلم، ولا فهمته فانفهم. وأمّا «تَفَعَّل» فإنّه، وإن وضع لمطاوعة «فَعَلَ».... فإنّه إنّما جاز نحو: فهّمته فتفهم، وعلمته فتعلم؛ لأنّ التكرير الذي فيه كأنّه أظهره وأبرزه حتى صار كالمحسوس»^(٨)، والعدم ليس علاجاً، ولا يتصوّر ظهور الأثر فيه.

وقال ابن الحاجب: «خصّوا هذا البناء - أي انفعل - بالمعاني الواضحة للحسّ دون المعاني المجرّدة....، كأنهم لما خصّوه بالمطاوعة التزموا أن تكون جليّة واضحة، فلذلك لا يقال: علمته فاعلم، ولا عرفته فانعرف، وكذلك ما كان مثله. ولذلك كان قولهم: انعدم ليس بجيد. وقالوا: قلته فانقل؛ لأنّ المقول معالجٌ بتحريك اللسان والشفّتين وإخراج الصوت، وكلُّ ذلك من باب المحسوس للمخاطب والمخاطب، فإن أطلقت: قلته فانقل على إرادة المعنى المفهوم من القول.... كان في الامتناع نظير انعدم»^(٩).

وما ورد في كلام المجمع تعليلاً من أنّ «انعدم» مطاوع «عدم» اللازم مضاهاة لما كان بمعناه، أي «فقد» المتعدّي الذي لو صيغ مطاوعه لكان «انفقد»، وأنّ «عدم» يحتاج مثله إلى المطاوعة، ومن الاعتذار لذلك ببعض ما كان في المعاجم من أفعال لازمة ورد لها أفعال مطاوعة لا يُسلّم، ولا يُطمأن إليه.

(٨) رضي الدين الأسترابادي، شرح الشافية، ١/١٠٨.

(٩) ابن الحاجب، الإيضاح شرح المفصل، تح: د. إبراهيم عبد الله، ٢/١٢٢. وانظر: ركن

الدين الأسترابادي، شرح الشافية، ص ٤٤.

أما المطاوعة فلا تكون إلا من متعدّد، وما كان لازماً لا يُبنى منه؛ لأنّ أثره لا يظهر في ذلك المطاوع، والمطاوعة تقتضي حصول الأثر وظهوره. وتفسير «عدم» لو كان لازماً بالفعل المتعدّي «فقد» لا ينقل إليه عدوى المطاوعة؛ لأنّ ذلك تفسير معنى لا يمنحه خصائص الفعل المتعدّي الصرفيّة والنحويّة. والاستدلال لـ «انعدم» مطاوع «عدم» بـ «انفقد» مطاوع «فقد» استدلالٌ ضعيفٌ؛ لأنّه استدلالٌ بما لم يثبت، وكان معترضاً، فالعلان «انفقد» و«انعدم» عند العلماء سيّان في الحكم والعلّة. وبناء «انفقد» من «فقد» فيه ما في بناء «انعدم» من خرق القاعدة وانتهاكها؛ ولذلك لم تُسمع من فصيح.

وأما الحكم على الفعل «عدم» بأنّه فعل لازم غير متعدّد كما يوحي ظاهر الكلام ويقتضي سكوت الرضا؛ فشيءٌ غريب بإزاء ما كان في المعاجم من تصريح بتعديته نصّاً أو إشارة، وإزاء ما نصّ عليه المجمع نفسه قبل في قرار آخر من قراراته (القرار ١٧، م ٨٧، ج ٢).

وأغرب من ذلك عندي أن ترد في التعليل عبارةً غريبةً منبّهة من السياق لا تمتّ إليه بصلة، عبارة «لأنّ (افتقد) معناه (فقد) أيضاً» من قوله: «أ- (انعدم) هو مطاوع لفعل (عدم) الذي معناه (فقد)، ولو صيغ مطاوعٌ لـ (فقد) لكان (انفقد)؛ لأنّ (افتقد) معناه (فقد) أيضاً».

وأما الحكم على الفعلين «اندرس» و«انطمس» بأنّهما مطاوعا «درس» و«طمس» اللازمين، فقولٌ مردودٌ مصدره التحكّم وتحريفُ الاجتزاء؛ لأنّ هذين الفعلين «درس» و«طمس» وردا في العربيّة لازمين ومتعدّيين، وبذلك جاءت معاجم اللغة، ومنها معجم (تاج العروس) الذي اعتمد عليه المجمع في حكمه ذلك.

قال الزبيدي (درس): «درس الشيء والرسمُ يدرُسُ دُرُوساً بالضمّ: عفا. ودرسته الريحُ درساً: محته، إذا تكرّرت عليه فعقته، لازمٌ متعدّدٌ....». وقال أيضاً (طمس): «الطمس بالضمّ: الدروس والامحاء... وفي التهذيب: طمس الطريقُ والكتابُ: درس، وفي المحكم: طمس يطمس طموساً: درس وامحى أثره. وطمسته طمساً: محوته وأزلت أثره، يتعدّى ولا يتعدّى. وطمست الشيء طمساً: استأصلت أثره.....».

وبهذا يجب أن نعدّ الفعلين «اندرس» و«انطمس» مطاوعين للفعلين المتعدّيين «درس» و«طمس»، لا اللازمين؛ عملاً بأصل المطاوعة التي تكون من فعل متعدّد لا لازم.

وإذا تبيّن لنا من ذلك كلّهُ ضعفٌ تعليل المجمع لإجازة استعمال «انعدم» وتسويغه، وأنّ ما قام عليه لا ينهض، ولا يحميه علم ولا منهج؛ كان ينبغي أن يستشفع المجمع لقراره ورغبته في إجازة ذلك بكثرة استعمال المحذّين له كثرة ظاهرة.

وآخر ما كان ينبغي في كلام المجمع على هذه الكلمة «انعدم» ضبطُ القرار الذي انتهى إليه وإحكامه، والنصُّ على الفصيح والأولى في مثله، أعني استخدام الفعل المبني للمجهول (عُدِم) بدل (انعدم) ونحوه مثل زال أو فُقد، أو مصدر الثلاثي (العَدَم) وما كان بمعناه كالزوال والفقد وما إليهما.

قال الفيومي (عدم): «وأعدمته فُعدِم مثل أفقدته ففُقد ببناء الرباعي للفاعل والثلاثي للمفعول».

وبذلك يكون القرار بأخرة: جواز قولهم «انعدم الشيء» بتصريفاته، بمعنى زال وفُقد، وإضافة ذلك الفعل مع تصريفاته إلى ألفاظ مادة «عدم» في المعاجم؛ على أنّ الفصيح والأولى استعمالاً عُدم الشيء، أو فُقد أو زال.

١٦ - أجاز المجمع في قراره الثامن والعشرين [م٨٧، ج٣] قول

المعاصرين: «تراوح السَّعْرُ بين كذا وكذا» ونحوه، مقتدياً بما كان عليه مجمع اللغة العربيّة في القاهرة حكماً وتعليلاً. بيد أن عبارة المجمع التي افتتح بها تعليقه قبل أن يعوّل على ما صدر عن المجمع القاهريّ، افتقرت إلى الإحكام، فانقطعت فيها عُرا الارتباط السببيّ المنطقيّ بين النتيجة ومقدّماتها.

قال: «التراوْحُ يأتي بمعنى التعاقب، تقول: تراوَحَ الرجالُ إذا تعاقبوه متناولين إياه كلّ واحد مرّة، فيكون معنى قولهم: تراوح السعر: راوح السعر بين كذا وكذا، ومنه يأتي مطاوعه: تراوح، بمعنى تعاقب السعر أو تردّد السعر بين كذا وكذا.»

فأبيّ صلة سببيّة منطقيّة بين قوله الذي انتهى إليه استنتاجاً: «فيكون معنى قولهم: تراوح السعر: راوح السعر بين كذا وكذا»، وقوله: «التراوْحُ يأتي بمعنى التعاقب، تقول: تراوَحَ الرجالُ إذا تعاقبوه متناولين إياه كلّ واحد مرّة»؟ وأيُّ مسوّغ نقله إلى قوله: «ومنه يأتي مطاوعه: تراوح، بمعنى تعاقب السعر أو تردّد السعر بين كذا وكذا.»، والكلامُ يدور على (تراوح) لا (راوح) كما يدلّ السياق؟!

هذا، ولا يُبعد التأمُّلُ جوازَ هذا الأسلوب المعاصر من وجه آخر مبنيّ على المعنى. فتأمُّلُ هذا الأسلوب يدلّ على أن الفاعل من حيث المعنى متعدّد لا مفرد؛ ففي قولنا: «تراوح السَّعْرُ بين كذا وكذا» السَّعْرُ ليس واحداً بل اثنان أو أكثر، بدلالة العبارة الظرفيّة «بين كذا وكذا» التي يبيّن النظرُ فيها أن الفاعل من حيث المعنى إمّا أن يكون اثنين، وهما الحدّان المضافان إلى «بين»، وإمّا أن يكون جمعاً يستوعب كلّ ما امتدّ بين هذين الحدّين.

وإذا كان الفاعل متعدداً في المعنى، أي مفرداً بمعنى المثنى أو الجمع، جاز أن يُسند الفعل «تراوح» إليه؛ لأنه لا يُستعمل إلا حيث يُسند إلى مثنى أو جمع.

١٧ - أجاز المجمع في قراره الثلاثين [م٨٧، ج٣] تعدية الفعل «تفادى» بنفسه في نحو قولهم: «تفادى الرجلُ الخطر»، على أن الأولى أن يتعدى بحرف الجرّ «من»: «تفادى الرجلُ من الخطر»؛ واعتلّ في ذلك بحمل بناء «تفاعل» على معنى «فعل»، فكما عدّي «فدى» بنفسه في عبارة اللسان: «تفادوا: فدى بعضهم بعضاً» يُحمل عليه «تفادى»، ويُعدى بنفسه، فيصحّ أن يقال: «تفادى بعضهم بعضاً».

وفي هذا نظر؛ لأنّ «تفادى» فيما جاء عن العرب من قولهم: «تفادى فلانٌ من كذا إذا تحاماه وانزوى عنه»، ومنه انشقت الكلمة المختلفُ فيها: «تفادى الرجلُ الخطر»، خرج من دلالة «تفاعل» على المشاركة، وكان بمنزلة «افتدى» أو «فدى»، فهو بمعنى: افتدى من كذا، أو فدى نفسه من كذا. ولو كانت دلالة «تفاعل» في «تفادى» في هذه الأمثلة للمشاركة لأُسند الفعلُ إلى متعدّد، فقول: تفادى القومُ من الخطر، أو تفادى زيد وخالد من المكاره.

وخرج «تفادى» إلى معنى «فدى» لخروجه من دلالة «تفاعل» الصرقيّة إلى دلالة «فعل» لم ينسخ إرثه الأوّل في تعديته بحرف الجرّ «من»؛ وإنّ أبا له في تصوّر العقليّ أن يتعدى إلى معمولٍ آخر بنفسه؛ لأنّ الفعل «فدى» يتعدى إلى معمولين: إلى الأوّل بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرّ.

وتعدية هذا الفعل في أيّ صورة صرقيّة كان إلى معموله الثاني بحرف الجرّ «من» ثابتة لا تنفى، فإذا خرج بها المتكلّم أو الكاتب إلى مقام الإضمار كانت في حيز المقدّر. تقول: فدى فلان فلاناً من الخطر، وافتدى من الخطر، وتفادى من

الخطر. والعبارة التي في اللسان وغيره: «فدى بعضهم بعضاً» مبنية على تقدير المعمول الثاني المجرور بـ«من»، أي: فدى بعضهم بعضاً من المكاره. وإذا سقط بهذا اعتلال المجمع لرأيه بحمل «تفادى» على «فدى»، وإخراجه إلى دلالة «فعل»؛ كان من الواجب أن يعتمد لتسوية قول المعاصرين: «تفادى الرجلُ الخطرَ» بتعدية الفعل بنفسه، التعليل الذي نصَّ عليه بآخرة، من تضمين الفعل «تفادى» معنى «تحامى»، وقدَّر أنه أيسرُ تعليل. وله أن يثبت على توجيه آخر سائغ لا ضير فيه في ظني، وهو النصب بنزع الخافض.

١٨ - افتقر كلام المجمع في قراره الحادي والثلاثين [م ٨٧، ج ٣] الذي تناول فيه «تنزّه والمُتَنزّه» إلى شيء من الإحكام في الصياغة والاستدلال. والأساس الذي يدلُّ على ذلك معرفة الفكرة الرئيسيَّة التي قامت عليها هذه المسألة. ذلك أنَّ العرب استعملت استعمالاً لا خلاف فيه الفعل «تنزّه» وتصريفاته للتعبير عن الخروج للَنزْهَة في الأرض النَّزْهَة، وهي البعيدة العذبة النائية عن الأنداء والمياه والغمق، وذلك شقُّ البادية؛ واستعمل بعضهم ذلك الفعل وتصريفاته للتعبير عن الخروج إلى البساتين والرياض. وقد عدَّ بعض العلماء هذا الاستعمال الثاني خروجاً عن الأصل، فعده ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) مثلاً من تصرُّف العامة وغلطه^(١٠). وقد سعى المجمع في قراره إلى تصحيح هذا الاستعمال، وساق في تعليقه من البيِّنات ما يؤيد ذلك، بيد أن تعبيره عن ذلك في اقتراحه وقراره كان غير محكم؛ إذ كان عاملاً لم يصرِّح بما دار الخلاف حوله، وكان ينبغي التصريح به. قال: «صحَّة قولهم (تنزّه) بمعنى خرج إلى النزّهة، و(المتنزّه) بمعنى مكان النزّهة».

(١٠) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ٣١٤، وانظر الصحاح (نزّه).

وكان المناسب أن يقال في الاقتراح والقرار: تعبيرُ الناس منذ القديم في الخروج إلى البساتين والرياض للزَّهَة بالفعل «تَنَزَّهَ» وتصريفاته، صحيحٌ لا تبعد فصاحته، وقولهم: «المُنْتَزَه» لمكان الزهة - وهو مولد قديم - صحيحٌ.

وبعضُ استدلال المجمع في أثناء التعليل لمذهبه في هذا الاستعمال المختلف فيه ممَّا افتقر أيضاً إلى الأحكام، أو ضعفَ فيه ذلك ضعفاً ظاهراً. من ذلك أن المجمع استدلل بما ورد في (المعجم الوسيط) من قوله: «تَنَزَّهَ: خرج إلى الأرض للزَّهَة». على أنه أثبت الفعل (تَنَزَّهَ) بهذه الدلالة، أي الخروج إلى الزهة؛ وعقب عليه بقوله: «ويلحظ أن من منهج المعجم الوسيط أن يشير إلى الكلمة إذا كانت محدثة أو معجمية، ولكنه ذكرها مطلقة، ممَّا يدل على أنه استقاها من مصادر احتجاجية». ا. هـ.

وهذا عند التأمل لا يصحُّ الاطمئنان إليه؛ لأنَّ في عبارة (المعجم الوسيط) تحريفَ طباعة، والصحيح فيها: «خرج إلى الأرض النَّهَة»، وهو ما نصت عليه المعاجم في بيان معنى «تَنَزَّهَ»^(١١).

وممَّا يؤكد ذلك أن استعمال الفعل «تَنَزَّهَ» في هذا الباب إمَّا أن يكون للتعبير عن الخروج إلى الأرض النَّهَة، وإمَّا أن يكون للتعبير عن الخروج إلى البساتين، ولم يُعبَّر به قطُّ في ضوء ما كان في المعاجم عن الخروج إلى الأرض المطلقة. والتعبيرُ بالفعل «تَنَزَّهَ» عن الخروج إلى الأرض النَّهَة ممَّا لا خلاف فيه، فلا يصحُّ الاستدلال به لما دار الخلاف حوله وغلط، وهو استعمال «تَنَزَّهَ» للخروج إلى البساتين.

ومن ثمَّ لم يخرج (المعجم الوسيط) في ذلك عن تقليد القدماء ومتابعتهم، وخلا بذلك من تلك الدلالة المفيدة في تصحيح ما غلط واختلَف فيه.

(١١) انظر مثلاً لسان العرب (نزه).

وبمثل ذلك يقال فيما نقله المجمع دليل إثبات من معجم (متن اللغة) من قوله: «تنزّه: خرج إلى الأرض النَّزْهَة، وهي الأرض البعيدة من الريف....».

فهذا النصُّ يُستدلُّ به لاستعمال الفعل «تنزّه» فيما لا خلاف فيه، ويؤكد ذلك تلك العبارة التي فسّر بها المجمعُ كلمة «الأرض النَّزْهَة»، اجتلبها من موضع آخر من (متن اللغة)، وركّبها في هذا الموضع من النصّ الذي ذكره تركيباً. وما من دليل يُشتمُّ منه في تأييد الاستعمال المُختلف فيه ونصرته البتّة.

وممّا لا يخرج عن ذلك قولُ المجمع آخر التعليل: «فإذا صحّت كلمة (المتنزه) اسم المكان من (تنزّه) فالفعل بالأولى»؛ لأنّ الفعل «تنزّه» ممّا ثبت بالسمع بلا خلاف، فلا حاجة إلى الاجتهاد والقياس في إجازته، والخلافُ كما دلّت نصوص اللغويين وتبّه المجمعُ في بعض كلامه في تعلقُ التنزّه بالبساتين والرياض.

على أنّ المجمع بقوله هذا هنا ينفخ الغبارَ في وجه ما قاله قبلُ: «وإذا صحَّ فعل (تنزّه) بهذه الدلالة فاسم المكان منه (المتنزه) صحيح». أليس هذا من نقض الغزل بعد إبرام، أو يضاهيه؟!.

هذا، ولعلّ أليق البيّنات والأدلة بما نحا إليه المجمع في تصحيح استعمال تنزّه وأقدمها، قولُ ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الذي غفل عنه المجمع، وهو دليلٌ يمكن أن يرقى بهذا الاستعمال إلى حدّ الفصاحة. قال: «وكان بعضُ أصحاب اللغة يذهب في قول الناس «خرجنا نتنزه» - إذا خرجوا إلى البساتين - إلى الغلط، وليس هذا عندي غلطاً؛ لأنّ البساتين في كل مصر وفي كل بلد إنما تكون خارج المصر؛ فإذا أراد الرجلُ أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه، أي: يبعد عن المنازل والبيوت، ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت

النزهة القعود في الخضر والجنان»^(١٢).

ومن الواجب أخيراً التنبيه هنا على أنّ في النصّ الذي نقله المجمع من (التاج)، وهو «والمتنزه: كثير التنزه إلى الخلاء»، تحريفاً لا يخفى على أحد؛ لأنّ عبارة (التاج): «ورجلٌ نزهيّ، بضمّ ففتح: كثير التنزه إلى الخلاء»!!

١٩ - كان كلام المجمع في القرار الثاني والثلاثين [م ٨٧، ج ٣] من أغرب ما بدا لي في قراراته. فقد تكلم المجمع على استعمال «حوالي» في نحو قول المعاصرين: «حضر حواليّ ثلاثين طالباً»، و«في الصفّ حواليّ ثلاثين طالباً»؛ فاقترح جواز ذلك، وخرّج العبارة الأولى في أثناء التعليل على أنّ الفاعل ضمير مستتر يعود على ما يدلّ عليه الكلام، على تقدير: حضر عددٌ حواليّ ثلاثين طالباً، ويكون الظرف «حوالي» نعتاً للفاعل المقدّر؛ وخرّج العبارة الثانية على حذف المبتدأ.

كان ذلك كله خلوّاً ممّالاً له صلة بمعنى «حواليّ» نصّاً أو إشارة؛ حتى إذا وصلت إلى القرار فجاك المجمع بقوله: «جواز استعمال (حوالي) بمعنى (زهاء) أو (نحو) من باب الاتّساع في الظروف». فكان كلامه في وإد، وقراره في وإدٍ آخر. فأيّ شيء هذا؟! وكيف يلتقيان، والقطيعة المتمكّنة بينهما تحول دونهما؟!

هذا، وفي كلام المجمع إذ خرّج العبارة الأولى «حضر حواليّ ثلاثين طالباً» ما يدعو إلى التعقيب؛ لأنّ الظرف «حواليّ» في هذه العبارة على الصحيح حالٌ للفاعل المقدّر، لأنّه ضمير، فهو معرفة، وكلمة «عدد» المعلنّة في التقدير ليست الفاعل، بل تفسير له.

٢٠ - منع المجمع في قراره الثالث والثلاثين [م ٨٧، ج ٣] فتح همزة

(١٢) أدب الكاتب ٣٨ - ٣٩، وانظر: المصباح المنير (نزه).

«إِنَّ» بعد «حيث»، منعاً لا يناسب ما بدا في كلامه اقتراحاً وتعليلاً من سعيي إلى إجازته.

فقد اقترح المجمعُ الحكمَ بجواز فتح همزة «إِنَّ» بعد «حيث»، مع التنبيه على أنّ الأفتح كسرهما؛ ثمّ ذكر في التعليل من البيّنات والأدلة ما يؤيد اقتراحه ويزكيه، حتى إذا انتهى إلى القرار كان المنعُ على خلاف ما تقتضيه تلك المقدمات، وانقطع حبلُ الارتباط السببي المنطقي بين شقّي الكلام.

وإذا كان السياقُ يقتضي الموافقةَ على ذلك الاقتراح، والحكمَ بجواز فتح همزة «إِنَّ» بعد «حيث»، فإنّ عصيان ذلك والخروج عنه يقتضي من المجمع تفسيراً. أم أنّ القرارَ كان عرضةً للتصويت، فرجحت كفة المانعين؟ وإذا كان ذلك كذلك هنا، وفي مواضع أخرى، فقد كان من الواجب أن ينبّه المجمعُ على ذلك تنبيهاً صريحاً.

هذا، ومن الواجب التنبيهُ على أنّ بعض ما في تعليل المجمع من بيّنات لا يصحُّ الاستدلالُ به أو الاطمئنان إليه كلّ اطمئنان، لما يخالطه من شوائب تدعو إلى النظر والتوقّف والتعقيب.

فالاستدلالُ على فتح همزة «إِنَّ» بعد «حيث» بما ورد في قول ابن الأثير في مادّة (عذب) من (لسان العرب) لا يصحّ؛ لاحتمال الخطأ في فتح الهمزة نسخاً أو طباعة، بدليل كسر همزة «إِنَّ» في بعض طبعات اللسان: طبعة دار المعارف مثلاً، وفي مظنة قول ابن الأثير: كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) في جميع الطبعات التي أطلعتُ عليها.

والاستئناسُ بكثرة فتح همزة «إِنَّ» بعد «حيث» في كتب ما بعد عصر الاحتجاج، تلك الكثرة التي بلغت في التكرار (١٠٨١٤) مرّة مبنّي على ما لا ينبغي الوثوقُ به ثقةً تامّةً؛ لأنّ الإحصاء فيه مبنّي على بحث المكتبة

الشاملة التي تغصُّ بأخطاء التصحيف والتحريف، إلا أن يُراجَع كلُّ موضع في مظانِّه، ويُحقَّق على أصوله.

والتعبيرُ فيما عيَّن بالحرف (هـ) في ذلك التعليل عن الكتاب الذي استُدِّلَ بما كان فيه من فتح همزة «إنَّ» بعد «حيث» بـ(الأمالى الشجرية) ليس محكِّماً؛ لأنَّ مثل هذه العبارة يراد بها كتاب ابن الشجري يحيى بن الحسين (ت ٥٤٢هـ) المعروف (أمالى ابن الشجري)، وعبارة خلوُّ من ذلك. وفي هذه العبارة عند التحقيق متابعةٌ لا تحقيق فيها لما كان في المكتبة الشاملة وأخواتها من مكتبات إلكترونية، من التعبير عن كتاب (الأمالى المعروفة بالأمالى الخميسية)، ومصنِّفه هو يحيى بن الحسين الحسنى الشجرى.

يتبع

* * *

المحاضرات

العربيزي ظاهرة خطيرة على لغتنا العربية

أ. د. محمود السيد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتبين موقع اللغة في عصرنا الحالي، عصر المعلوماتية، وأن نقف على ظاهرة العربيزي مفهوماً وانتشاراً، وأن نوضح ميزاتها كما يرى مناصروها من الشباب، ومخاطرها على اللغة العربية الفصيحة كما يرى معارضوها، وأن نتعرف أخيراً بعض الحلول والمبادرات الرامية إلى الخلاص منها انطلاقاً من أن دراسة واقع اللغة العربية والمحافظة عليها أمرٌ يمس الهوية العربية والوجود العربي.

أولاً - اللغة العربية في عصر المعلومات

إن اللغة في عصر المعلومات هي الوجود ذاته، وأصبح هذا الوجود مرتبطاً بثقل الوجود اللغوي على الشبكة (الإنترنت) في عصر العلوم والتقانة والمعلوماتية، حيث صار سؤال الهوية من أنا؟ ومن نحن؟ مطروحاً بشدة على أوسع نطاق على الصعيد العالمي، حتى يتعرف الآخرون ثقافتني وكيف ينظرون إليها، وأتعرف أنا الثقافات الأخرى سماتٍ وخصائصٍ وكيف يمكن أن أفيد منها في إغناء ثقافتني.

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور محمود السيد هذه المحاضرة في ندوة

(اللغة العربية والإعلام) بتاريخ ٢٩/١١/٢٠١٥ م.

وإذا كانت اللغة في عصرنا الحالي هي الوجود ذاته، فإن هذا الوجود مرتبط بالأبعاد (الجيو - استراتيجية) والحضارية للغة من جهة وبمستوى الحضور والكثافة اللذين يميزانها على الشبكة كمًّا ونوعاً.

ولمّا كان للثورة التقنية فوائد جمة كان استخدام ثمرة التقانة في طرق التعبير يشير إلى تحولات اجتماعية صريحة تبرز من خلال علاقة الناس بعضهم ببعضهم الآخر، وما التطور والتغير في أساليب التعبير واستخدام المصطلحات التقنية إلا أمانة على ذلك، لأن اللغة ترتبط بغيرها من ظواهر التقدم والتطور العلمي، شأنها في ذلك شأن المنظومات الاجتماعية، بل إن التطور اللغوي هو المؤشر الصحيح إلى التطور الاجتماعي لأن اللغة مرآة المجتمع.

ولغتنا العربية هي من بين اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة، وهي تتبوأ المرتبة الرابعة بين اللغات العشر الأكثر استعمالاً في الشبكة إذ بلغ عدد مستعمليها ٦, ١٣٥ مليون نسمة أي ما نسبته ٨, ٤ ٪ من مجموع عدد المستعملين في العالم، وقد جاءت اللغة الصينية في المرتبة الثانية بعد الإنجليزية، والإسبانية في المرتبة الثالثة.

بيد أن العربية تشكو من أزمات حادة تنظيراً ومَعْجَمَةً وتعليماً وتوثيقاً وتوظيفاً، مع أن العربية هي بوتقة الانصهار العربي والوجداني والفكري لأمة عربية واحدة، إلا أن العرب لم يتوحدوا حتى في اللغة العربية التي تجمعنا، ومما زاد في الطين بلة أن اللغة العربية تواجه في ظلال العولمة وثورة التقانة تحديات كثيرة، ولا يخفى أن العولمة في جانبها المظلم مهددة للهوية العربية كما أن التقانة وضعت اللغة العربية في مواجهة معها، ونتج عن ذلك أثر مزدوج:

أولهما مدّ العربية بثروة لغوية بطريق إغراق المجتمع بكم هائل من

أسماء المخترعات والمستجدات مما أثار حفيظة العلماء والمتخصصين للتصدي لهذا الحدث بالترجمة والتعريب.

وثانيهما إغناء العربية بأجهزة تعود على المباحث اللغوية بخير إذا أحسن توظيفها لمصلحة اللغة.

ولمّا كانت طبيعة العصر الحاضر، عصر العلوم والتقانة (التكنولوجيا) تستلزم استعمال اللغة العربية كتابة وخطاباً في تقانة المعلومات والاتصالات (الحاسوب، الشبكة (الإنترنت)، الهاتف المحمول) في ميدان التواصل، كان لا بدّ لنا من الوقوف على نوعية اللغة المستخدمة في تلك التقانة، وطالما تبّه الباحثون على مشكلات اللغة العربية فيها، فأشاروا إلى مشكلة الثنائية اللغوية، ومشكلة الازدواجية اللغوية، ومشكلة الضعف اللغوي.

وإذا كانت مشكلة الازدواجية اللغوية موجودة عبر العصور التي مرت بها الأمة العربية، فإن مكن خطرها في حياتنا المعاصرة يتجلى في نقل اللهجات المحلية من المشافهة والحديث اليومي إلى لغة مكتوبة.

وإذا كانت مشكلة الثنائية اللغوية قد انتشرت في مجالات التواصل الاجتماعي على الشبكة والهواتف المحمولة فإن مكن خطرها في حياتنا المعاصرة يتمثل في أنها بدأت تحل محل العربية في عملية التواصل، وغدا الهجين اللغوي يكتب بالأبجدية اللاتينية في منأى عن الحروف العربية، إذ إن التقانة الحديثة جاءت بالحروف اللاتينية، وبات الدخول إلى عالم الحواسيب والشبكة يتطلب إبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وهذا هو أحد طرق التعريب للأمة العربية ولغتها. ثم إن الخطوط الطباعية في أجهزة التقانة الحديثة لا تستند في معظمها إلى قواعد الكتابة الخطية، وتحمل عيوباً وأغلاطاً تشوه

الكتابة الناتجة عنها، ومع ذلك تتداول وتنتشر ويروج لها دون أن تتعرض للتقويم أو الرفض، إن كانت معيبة، من جهات مختصة، مما يؤدي إلى مشكلات متعددة تضر بالقيم الوظيفية والجمالية لما تجري كتابته ونشره بها، ويهدد بقطيعة تمحو صلة أبناء الأمة بتاريخها وتراثها المدون وبقيمها الثقافية والحضارية، وذلك بعد أن بات معظم تواصل الشباب عبر مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الاتصالات الحديثة يجري بلغة هجينة يطلق عليها العريزي، وقد راجت وانتشرت في الهواتف المحمولة، وانتقلت إلى الدردشة في الشبكة، وإلى الكتابة بها في مواقع التواصل الاجتماعي، فما هذه الظاهرة الجديدة في ظل العولمة التي أطلق عليها العريزي؟

ثانياً - العريزية أو الأرابيش (Arabish) مفهوماً

هي كلمة منحوتة من كلمتي (English) و (Arabic)، وثمة من أطلق عليها اسم (الفرانكو آراب)، وهناك من وصفها باللغة الفسبوكية. وهي لغة غير رسمية ظهرت قبل عدة سنوات، يستخدمها الشباب والشابات في الكتابة والدردشة على مواقع الشبكة (الإنترنت) أو رسائل مواقع التواصل الاجتماعي، وتختلط فيها الأحرف اللاتينية بالأرقام، وهي لغة هجينة بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية، وغير محدودة القواعد.

ولقد أطلق عليها في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) مسمى (الفرانكو آرابيك)، وعرفت بأنها «أبجدية مستحدثة غير رسمية» ظهرت قبل بضع سنوات، وتستخدم هذه الأبجدية على نطاق واسع بين الشباب في الكتابة والدردشة على الشبكة في المنطقة العربية، وتنطق مثل العربية تماماً، إلا أن الحروف المستخدمة في الكتابة هي الحروف والأرقام اللاتينية بطريقة تشبه الشفرة، وتعدُّ

الأوسع انتشاراً في الكتابة على الشبكة أو في رسائل المحمول (SMS). وقد يكون النص عربياً مكتوباً بأبجدية إنجليزية وأشكال ورسوم وعلامات ترقيم. وقد يتضمن مزيجاً لغوياً من العامية والفصيحة والإنجليزية.

وتكتب العربية واللهجة العامية بحروف اللغة الإنجليزية وباستخدام بعض أرقامها حروفاً، إذ تُستبدل أرقام مكان بعض الأحرف في اللغة العربية التي لا يوجد لها مقابل في الأجنبية،

والرقم (7) مقابل حرف الحاء	فالرقم (2) مقابل الهمزة
والرقم (8) مقابل حرف القاف	والرقم (3) مقابل حرف العين
والرقم (9) مقابل حرف الصاد	والرقم (3') مقابل حرف الغين
والرقم (9') مقابل حرف الضاد	والرقم (4) مقابل حرف الذال
	والرقم (6) مقابل حرف الطاء

أما ما عدا ذلك فيكتب بتغيير الحرف العربي بمقابل من اللاتينية، وفيما

يلي الأبجدية العربية مقابل كل حرف:

ط = 6	a = ١
ظ = 6'	B = ب
ع = 3	T = ت
غ = 3'	th = ث
F = ف	j = ج
ق = 8	ح = 7
K = ك	خ = KH ويمكن أن تكتب 7' أو S
L = ل	d = د
M = م	d' = ذ
N = ن	R = ر

H = هـ	Z = ز
و = W أو O وذلك حسب قوة الواو	س = 5
في الكلمة	ش = 4
Y = ي وفي حال الياء الخفيفة يستخدم e	ص = 9
ء الهمزة = 2	ض = '9

فكلمة سؤال تكتب على هذا النحو So2al ، وكلمة سبأ تكتب على هذا النحو Saba2، وكلمة حزين تكتب على هذا النحو 7azeen، وكلمة سعيد تكتب على هذا النحو Sa3eed.

ويطلق بعضهم على هذه اللغة (الكرشنة) وهي كتابة جُمَل لغة ما بأحرف لأبجدية أخرى لتسهيل الكتابة على لوحة مفاتيح لاتينية، وأصل الكلمة هو من كلمة كرشوني وهي الكتابة العربية بأحرف سريانية والتي اشتهرت في القرن السابع الميلادي في كتابة بعض المخطوطات العربية حين كان الخط العربي غير منتشر على نطاق واسع، وقد كانت أولى بدايات كتابة العربية بأبجدية لغة أخرى.

والكرشنة اصطلاحاً هي لغة تواصل شبابية تعتمد على الدمج بين اللهجة العامية والحروف اللاتينية والأرقام للتعبير عن جمل عربية. وبدأت لغة الكرشنة الحديثة من خلال المحادثات الإلكترونية على الشبكة (الإنترنت) والهاتف المحمول، وانتقلت إلى الاستعمال التجاري والدعاية الإعلامية برسائل مع تعزيز الجملة ببعض الرسوم والاعتماد على الاختزال.

فمثلاً عبارة أنا حزين نجدها بلغة الكرشنة^(١).
ana Haziin

(١) سامية بادي والدكتورة سوهام بادي - تأثير لغة التواصل الإلكتروني على مستقبل الحرف العربي - المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - المجلد السادس - دبي

والعربيزي أو الكرشنة هي لغة جديدة ليس لها أي قواعد، وهي تشهد يومياً تعبيرات واختصارات جديدة، ولم يعد استخدامها مقتصرًا على مواقع التواصل الاجتماعي، بل شقت طريقها إلى النظام التعليمي حتى إن بعض التلاميذ استخدموا الحرف اللاتيني في موضوعاتهم الإنشائية في بعض المدارس اللبنانية^(٢).

وتُنطق هذه اللغة مثل العربية إلا أن الحروف المستخدمة في كتابتها هي الحروف والأرقام اللاتينية بطريقة تشبه الشفرة، وهي الأوسع انتشاراً في الكتابة على الشبكة أو في رسائل المحمول (SMS).

والأرقام المستخدمة في هذه اللغة غير موحدة، فبعضهم يقرأ الرقم (9) على أنه يقابل الحرف (ق)، وبعضهم يستخدمه مقابل الحرف (ص). وتكتب العربيزي عادة باللهجة الدارجة وليست بالعربية الفصيحة، ويضاف إليها الكثير من الاختصارات المتعارفة في اللاتيني الإنجليزي مثل:

SMS وتعني رسالة نصية قصيرة

Hi وتعني مرحباً

see you CU وتعني نراك لاحقاً

you Too U2 وأنت أيضاً

BRB برب وهي اختصار لجملة Be Right Back وتعني سأرجع، أو سأعود قريباً.

LoL لول: وهي اختصار لجملة Laughing out loud. ومعناها الحرفي: اضحك بصوت عال، وتستعمل عندما يكتب شخص ما شيئاً مضحكاً.

(٢) إبراهيم أحمد حربلي - ظاهرة العربيزي ومستقبل الحرف العربي - المجلد الحادي عشر من أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية - دبي ٢٠١٥ ص ٥٦٨.

g2g أو gTg وتعني أنا مضطر إلى الذهاب

i d k وتعني لا أعرف I don't Know

TyT وتعني خذ وقتك Take your time

وثمة اختصارات من مثل:

AA وهي اختصار لعبارة السلام عليكم Assalam Alykom

ISA وهي اختصار لعبارة إن شاء الله In sha2a Allah

MSA وهي اختصار لعبارة ما شاء الله Ma sha2a Allah

JAK وهي اختصار لعبارة جزاكم الله خيراً Jazakom Allaho Khyran

ويتضح من مفهوم العريزي أن ثمة قسمين ينضويان تحت هذا المفهوم أولهما اللغة العريزية المحكية، وتأتي حواراً كلامياً لكلمات عربية مع بعض الكلمات الإنجليزية في إشارة إلى أن الشخص المتكلم يعرف الإنجليزية. وثانيهما لغة الأرقام التي تستخدم الحروف الإنجليزية والمعنى العربي.

فالعريزي هي مزيج من الكلمات العربية والإنجليزية، وقد انتشرت كثيراً في رسائل الهواتف المحمولة القصيرة والمنتديات وغرف الدردشة، وكتبت كلماتها العربية بحروف إنجليزية أو فرنسية، ولكن وفق قواعد الكتابة العربية التي تخفف حروف اللين؛ فكلمة محمد التي تكتب في الإنجليزية Mohammed أصبحت في العريزي تكتب Mhmd، وكلمة كيفكم تكتب Kifkm، إضافة إلى استكمال الحروف التي لا توجد في اللاتينية بأرقام تشابه رسم الحروف العربية أو تقترب منها.

ومن الملاحظ أن ثمة رسوماً وصوراً وكتابة إيحائية إلى جانب النص اللغوي في مجالات التواصل على الشبكة والهاتف المحمول معبرة عن ملمح تعبيرى خاص يجسد حالة شعورية. ولعل من أبرز الحالات وأكثرها

ولقد لوحظ ميل الإناث إلى استخدام مفردات إنجليزية واستخدام الأبجدية الإنجليزية واللهجة العامية أكثر مما ظهر لدى الذكور^(٥)، كما تبين أن ٣١٪ من الرسائل النصية في الهواتف المحمولة قد كتبت بحروف العريزي^(٦).

ومن الملاحظ استخدام مفردات إنجليزية عادية لها أبدال في اللغة العربية الاعتيادية، ولا عذر لمستخدم اللغة في استخدامها مادام البديل العربي متوفراً، وكانت نسبتها في الرسائل النصية ٣١٪^(٧).

ويسأل بعضهم: هل العريزي ظاهرة أم دُرَجَة (موضة)؟ وثمة من يرى أن التفريق بين الظاهرة والموضة مهمٌ جداً، إذ إن الظاهرة تعبر عن سلوك اجتماعي تم الاتفاق عليه من أفراد كثيرين على أنه أمر طبيعي فغداً ظاهرة وهي في الأساس حدث خارج السياق أو المؤلف، في حين أن (الموضة) هي «تقليعة» تدخل إلى مجتمع دون زلزلة أصوله وثوابته، إلا أن العريزي هي مزيج من (الموضة) والظاهرة^(٨).

ولو ألقينا نظرة بسيطة على الشبكة لتتعرف اللغة الواردة فيها للاحتنا أخطاء إملائية فادحة تغير المعنى وتشوّه مكتوبة بأحرف اللغة نفسها، وفي هذه اللغة نرى أخطاء أكثر فداحة، فكلمة شكراً بالعربية السليمة استبدل حرف النون بتنوين الفتح فأصبحت Shukrn، وكلمة Message باللغة الإنجليزية وتعني بالعربية رسالة أصبحت الآن في العربية (مسج).

(٥) المرجع السابق ص ١٥٧.

(٦) المرجع السابق ص ١٩٠.

(٧) المرجع السابق ص ٢٠٨.

(٨) خالد سالم الجابري - موقع كوثر الشراكة للتطوير - تاريخ ٢٠١٥/٦/٩.

ثالثاً - أسباب ظهورها وانتشارها

ثمة من يرجع تاريخ بداية انتشار ظاهرة العربيّزي إلى القرن التاسع عشر عندما انطلقت صيحات تدعو إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية وبالعامية، وكان من حملة ألوية هذه الدعوة المستشرق الألماني (سبيتا) والإنجليزي (ويلمور) و(ويلكوكس) أيضاً، وقد زعموا أن الكتابة باللهجة العامية وبالحروف اللاتينية تنمّي عند المصريين الرقي وقوة الاختراع.

وسار تحت لواء هذه الدعوة من العرب كلُّ من أحمد لطفي السيد وسلامة موسى اللذين رأيا أن اختراع الخط اللاتيني وثبة نحو المستقبل، وعبد العزيز فهمي الذي رأى أن أسباب تخلفنا ترجع إلى اللغة العربية. كما سار تحت لواء هذه الدعوة كل من سعيد عقل وأنيس فريحة في لبنان.

ويرى بعضهم أن هذه الظاهرة جاءت نتيجة طبيعية لتمازج الحضارات وتداخلها، إذ إن اللغة هي أول ما يتأثر بالانفتاح على العالم الخارجي، كما أن ظاهرة إدخال مفردات أجنبية في الحديث ظاهرة ليست بجديدة، وإنما هي شأن يطفو على السطح عندما تعاني الأمة من الضعف، فتراها تتطلع إلى الأمم التي تؤدي دوراً قوياً في الحضارة الإنسانية، بحيث تقلد الشعوب المغلوبة على أمرها الشعوب الغالبة في مظاهر حياتها المختلفة لغة ولباساً وطعاماً وشراباً وثقافة... إلخ.

فعندما كانت البلدان العربية خاضعة للسيطرة العثمانية استخدمت كلمات تركية في الحديث اليومي مثل البازار بمعنى السوق، وأجزاخانة بمعنى الصيدلية، والتمرجي بمعنى الممرض.. إلخ.

وعندما جاء الاستعمار الفرنسي شاع استخدام (بون جور) الفرنسية

مكان صباح الخير العربية، و(بونسوار) مكان مساء الخير، و(أورفوار) مكان إلى اللقاء^(٩). وهكذا يجيء في مقدمة أسباب هذه الظاهرة امتداد آثار الاستعمار الثقافي في بعض دولنا العربية حتى يومنا هذا، إذ تأثرت به مرافق المجتمع كلها تربويًا وإعلاميًا وعلميًا... إلخ.

ويرجع آخرون السبب في انتشار هذه الظاهرة إلى التقليد الأعمى بين الشباب، وتبادل الرسائل بينهم، معتبراً أن استخدام الشباب للعريزي هو نوعٌ من أنواع التباهي بمعرفة اللغة الإنجليزية لأنها تحتل المرتبة الأولى في الاتصال العالمي، وأصبحت لغة التطور والحدثة في نظر هؤلاء الشباب، وتعييرٌ عن الشعور بالنقص والدونية والتخلف عن الآخر، واعتبار الغرب مثلاً يحتذى.

إلا أن ثمة من يرى أن السبب الرئيس لظهور هذا النوع من الأبجدية مقترن بظهور خدمة الهاتف المحمول في المنطقة العربية، وذلك لأن خدمة الرسائل القصيرة (SMS) أتاحت للأبجدية الإنجليزية حروفاً أكثر في الرسالة الواحدة على عكس نظيرتها العربية، وما دامت الحاجة أم الاختراع قام بعضهم ممن لا يتقنون الإنجليزية بابتكار هذا النوع من الكتابة، إذ عربّوا المعنى باستخدام الحرف الأجنبي، وسرعان ما انتشرت بين الشباب لتوفير أكبر كم من الحروف، كما فضلها الذين اعتادوا استخدام الأبجدية الإنجليزية لأنها أسهمت فيما بعد بحل مشكلة عدم دعم بعض الأجهزة الخلوية للأبجدية العربية.

وكان من أسباب انتشار هذه الظاهرة في مرحلة معينة أن بعض لوحات المفاتيح لا توجد فيها الحروف العربية في بعض الدول العربية، وكذلك في الدول الأجنبية التي يتواصل فيها المغتربون مع ذويهم في بلاد العرب. فضلاً

(٩) آمال سعد الدين - ظاهرة «العريزي» نتيجة طبيعية لتمازج الحضارات - جريدة الرياض -

على أن الهواتف المحمولة يكون الانتقال فيها من الإنجليزية إلى العربية عسيراً أو بطيئاً بعض الشيء في عصر أصبحت ضغطة واحدة تمثل السرعة، ومع ثورة تقنية (الآي فون) و(الآي باد) الأخيرة كان ثمة حل لمشكلة البطء.

ويُرجع بعضهم الآخر نشأتها إلى ظهور برامج الدردشة في تسعينيات القرن الماضي في أنظمة (اليونكس) التي لم تتح سوى الحروف اللاتينية للكتابة، مما أجبر الكثيرين من أبناء العربية على استخدام الحروف اللاتينية. وكانت برامج الدردشة قد ظهرت قبل ظهور الهواتف المحمول والرسائل القصيرة، ولم تكن الحروف العربية وقتها متاحة في الأجهزة الموصولة إلى الشبكة.

ولقد ساعدت الوسائل التقنية (التكنولوجية) الحديثة على سرعة انتشار لغة العريبيزي من حواسيب وهواتفٍ محمولةٍ وقنواتٍ فضائيةٍ ومواقعٍ تواصل اجتماعي وشابكة.. إلخ.

ولم يقتصر تأثير الشابكة والتقانة الحديثة في اللغة العربية على طريقة الكتابة اللاتينية فقط، بل أخذت بعض ملامح الإنجليزية تسري في اللغة العربية المستخدمة في الشابكة، فانتشرت أسماء مثل (إنترنت، أون لاين، كمبيوتر، كيورد، ماوس، آيفون، آيبود، فيسبوك، تويتر)، وترددت أفعال من مثل (سيف، فكس، فسبك، مسج... إلخ)^(١٠).

وأضحت العريبيزي في واقعنا الحالي منتشرة على أقلام جيل جديد لا يُحسن أي لغة رسمية لا العربية ولا الأجنبية، لكنه يبدع في استخدام هذه اللغة العريبيزية ويكتبها تلقائياً، ويقرأها بسرعة كأنه قد تعلمها سنين طوالاً في المدارس، وآلت الأمور في استعمالها عناوين لمقالات في بعض

(١٠) الدكتور محمد رياض العشري - العريبيزي: لماذا تحاربه غوغل وتهتم بالعربية

الصحف والمجلات العربية وفي بعض الإعلانات، حتى إن بعض المطاعم أعدت لوائح الطعام بناءً عليها^(١١).

وهكذا يتبدى أن ظاهرة العريزي فرضتها أبعاد ثورة التقانة وتضاعفت مفاعيلها مع أزمة الهوية في المجتمع العربي. ومن الأسباب المساعدة على انتشارها أسباب أسرية ترجع إلى عدم انتباه الأهل إلى اللغة التي يتواصل بها أبناؤهم وجهلهم بهذه اللغة أيضاً، إضافة إلى تخلف طرائق التدريس في النظام التربوي، وتراجع معايير المهنية في الحرص على اللغة العربية، وضعف الالتزام في وسائل الإعلام ولاسيما المرئي منها، وقلة الأفلام السينمائية الناطقة بالعربية الفصيحة، وكذلك مسلسلات الدراما.

رابعاً - العريزي بين مناصريها ومعارضها

رؤية المناصرين:

يرى مناصرو العريزي أنها لغة تُماشي طبيعة العصر، وأن استخدامها يمكن المرء من أن يتواصل مع مختلف شرائح المجتمع المثقفين وغير المثقفين، فالعريزي بات يستعملها أشخاص من مختلف الأعمار والخلفيات العلمية والثقافية، كما أن استعمالها باللهاجات العامية يختصر وقتاً كبيراً ويوفّر الحاجة إلى التفكير في موقع كل كلمة معينة من الإعراب. وهذه من الأسباب البارزة التي تضعف استعمال الحرف العربي.

ومن هنا يرى مستخدموها أنها أسهل مادامت لا تلتزم بقواعد اللغة التي تتطلبها العربية أو الإنجليزية، فمستخدمها في منأى عن الجهد المبذول مادامت هذه اللغة متحررة من القواعد، ولا تتطلب التفكير فيها في أثناء الكتابة.

(١١) جمانة الشامي - العريزية تشخيصٌ مُوجع للعربية!!! المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية - المجلد التاسع - ص ٤٧١ دبي ٢٠١٥.

وهي لغة سريعة تنسجم وروح العصر المتسم بالسرعة، إذ إنها سريعة في الرسائل الإلكترونية والحديث عن طريق الشبكة، وفي الكتابة على الهواتف المحمولة، وهي لغة التمدن والرقى كما يرى مناصروها من الشباب، إذ إنهم يعدّون من يكتب بالعربية متخلفاً، وسرى هذا الأمر إلى بعض الراشدين أيضاً^(١٢).
ويعدّد مناصروها مميزاتاً فيرون أنها تتجلّى فيما يلي:

- ١- السرعة: لم يعد ثمة متسع من الوقت للتحجير، حيث يرسل المستخدم ما يتبادر إلى ذهنه دون اللجوء إلى التمحيص والتدقيق في العبارات، إذ إنه يعتمد على الحاضر من العبارات.
- ٢- الإيجاز والاختزال: إنها لغة تلجأ نتيجة السرعة إلى اختزال الكلمات ربحاً للوقت، فقد تعبّر عن جملة طويلة بكلمة واحدة، أو حتى صورة، وثمة شفرات خاصة متفق عليها مثل (ش ع ت) ويقصدون بها (شو عم تساوي).
- ٣- المزج بين عدة عناصر (العامية، الأرقام، الرموز) في كلمة واحدة أو جملة واحدة.
- ٤- السهولة التقنية في الاستخدام: فهي سهلة في استخدام الحواسيب والهواتف المحمولة.
- ٥- المرونة: فهي لا تخضع لقانون معين أو ضوابط معينة، وإنما تعتمد على تحقيق الهدف الذي وجدت من أجله، وهو التفاهم والتفاعل دون الالتزام بالحركات والتشكيل وأي ضوابط أخرى.
- ٦- لغة شبابية: حيث يستخدمها الشباب استخداماً واسعاً.

(١٢) المرجع السابق ص ٤٧١.

٧- اختلاف توظيفها من منطقة إلى أخرى: فالبلدان الفرانكفونية تستخدم اللغة الفرنسية في عملية التهجين خلافاً للبلدان الأنكلوفونية التي تستخدم الكلمات الإنجليزية.

٨- السريّة: إذ إنها توفر مساحة كبيرة من الحرية والخصوصية والسرية، فهي تبدو لغة مشفرة لا يفهمها إلا من يتقنها^(١٣).

ويشير مؤيدو العريزي إلى أن اللغة العربية الفصيحة لا يمكن التعبير عن طريقها بواسطة بما يجول في خاطر المتحدث عبر وسائل التواصل الاجتماعي لأنها تحتاج إلى مهارات كبيرة في الكتابة والتقيد بقواعد اللغة العربية، في حين أن العريزي توحى لمستخدمها بأنه شخص راق ذو ثقافة، وهي سهلة التداول، ولا تحتاج من حيث استخدامها إلى مهارات كبيرة، وتعد أسلوباً مفهوماً في أوساط الشباب، ثمّ إنها تخلق نوعاً من التباهي لمستخدمها الذي يفتخر بأنه ينتمي إلى طبقة راقية وواعية بكل ما هو جديد ومواكبة لروح العصر، فضلاً عن سهولة تداولها واختصارها للوقت والجهد، وهي مفهومة في أوساط الشباب، وهذا يكفي!. ولا استخدام الفتيات لها مينة واضحة، إذ عادة ما تكون رسائلهن النصية باللغة العربية طويلة جداً، لكنها تصبح أقصر وأقل تكلفة عند استخدام الحروف الإنجليزية.

ويمكن تلخيص الدوافع التي تدفع بالشباب والشابات إلى استخدام العريزي في البنود الآتية:

١- محاكاة الغرب: لما كان أكثر الشباب والشابات لا يتقنون اللغة الإنجليزية عملوا على استعارة الحروف منها للتعبير عن جمل

(١٣) سامية بادي ود. سوهام بادي - تأثير لغة التواصل الإلكتروني على مستقبل الحرف العربي - مرجع سابق ص ٨٦.

- عربية بقصد التباهي والظهور بمظهر المتحضر.
- ٢- اكتشاف الذات: ويتمثل ذلك في البحث عن رد فعل الآخرين وخاصة الإناث في عيون الناس.
- ٣- إثبات الذات: ومن البدهي أن سن الشباب هو سن إثبات الذات والبحث عن الاستقلال والتفرد ببعض الخصائص المختلفة عن باقي الفئات العمرية.
- ٤- أسلوب تعبير لدى الشباب عن عدم الرضا عن الواقع، وتمرد سلميٍّ لديهم، والتعبير بطريقة لا تمس قيم المجتمع وتقاليد مسًا صريحاً، ولا وجود لمُنْتَقَس الشباب وهمومهم وأسرارهم سوى مواقع التواصل الاجتماعي، فابتكروا هذه اللغة على أنها شفرة لا يفهمها سواهم.
- ٥- سيرورة ثقافة الاستهلاك التي جاءت بها وسائل التواصل الحديثة مما أدى إلى نمو هذه اللغة وتطورها بما تحمله من سمات الاختصار والسرعة والسهولة، فلم يعد هنالك وقت لكتابة جمل طويلة ومعقدة للرد عليها بجمل أطول.
- ٦- خصوصية مرحلة الشباب فهي مرحلة الإقدام والمغامرة وحب كل ما هو جديد.
- ٧- التخفيف من الشعور بالاغتراب: فالشباب يشعرون بالغربة في أوطانهم من خلال حالة التهميش والبطالة.
- ٨- الفوضى الفكرية لدى الشباب؛ فاللغة الجديدة تعكس فوضى كبيرة في الفكر، فهي محاولة لإيجاد بديل عن شيء مفقود^(١٤).

ومن هنا فإن الشباب يُرجعون تفضيلهم للغة العربيزي إلى سهولتها في الفهم والاستيعاب، والبعد عن التراكيب اللغوية، وعدم التقييد بالقواعد النحوية والإملائية، والابتعاد عن إظهار ضعفهم في اللغة العربية الفصيحة. رؤية المعارضين:

يأسى أنصار اللغة العربية الفصيحة لما آل إليه حال العربية ولاسيما وضعها في وسائل الإعلام والإعلان، وفي مواقع التواصل الاجتماعي وعلى الشبكة (الإنترنت) والهواتف المحمولة، ويعدّدون الثغرات الموجودة متمثلة في^(١٥):

١ - شيوع الأخطاء النحوية في العربية الفصيحة المستخدمة وركاكة أساليبها.

٢ - شيوع الكتابة باللهجة المحلية في المقالات أحياناً، وفي الإعلانات، وفي تقديم البرامج الإذاعية والتلفزية.

٣ - كثرة استخدام المفردات الأعجمية في ثنايا الخطاب الموجه إلى المستقبل العربي، وتنشر الصحف العربية أحياناً إعلانات كاملة باللغة الأجنبية، وثمة مجلات عربية وبرامج إذاعية وتلفزية تحمل أسماء وعناوين أعجمية مكتوبة بالأحرف العربية مثل (قناة MBC، قنوات ART، وقنوات Orbit).

٤ - تفشي الأخطاء الفادحة في المفردات والجمل والتراكيب والحوار والمناقشات وفي مخارج الحروف ونطق الكلمات العربية بلكنة عامية أو أجنبية.

(١٥) الدكتورة هبة الله السمري والدكتورة منى الخاجة - رؤية الشباب لواقع ومستقبل استخدام اللغة العربية في الإعلام الجديد - دراسة تطبيقية - المجلد الثالث من أعمال المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - دبي ٢٠١٥ ص ٣٠١.

٥- شيوع ظاهرة العربيّزي، وتعدّ هذه الظاهرة معول هدم في صرح العربيّة، إذ إنّها تهدف إلى إنكار الموروث الحضاريّ القيمّ للأمة العربيّة المصوغ بالعربيّة الفصيحة، وأنها تزيد من اتساع الهوة الاجتماعيّة بين طبقة اجتماعيّة صغيرة تفتخر بالثقافة الغربيّة، وشريحة واسعة تحافظ على إرثها اللغويّ العربيّ العريق.

ويؤكد هؤلاء المعارضون أن لغتنا العربيّة مرتبطة بكيان الأمة العربيّة وحضارتها ووجودها على المسرح العالميّ. ومن هنا غدا الحفاظ عليها حفاظاً على كياننا وهويتنا وثقافتنا.

ويبيّنون أن للعربيّة الفصيحة نوعين من الأعداء أولهما يعاديهما لجهله بها وعدم معرفته الكافية بجمالها وهم أهلها، وثانيهما يعاديهما لمعرفة أهلها جيّداً، ومعرفة مدى قوتهم في حال اتحادهم، وهم في الغالب من غير العرب، وهكذا جمعت العربيّة بين نوعين من الأعداء في وقت واحد.

وممن عادى العربيّة من أهلها طه حسين في مراحلها الأولى ولويس شيخو وسعيد عقل ولويس عوض وأنيس فريحة والجندي خليفة ومارون غصن، وعبد العزيز فهمي ويوسف السباعي وتوفيق الحكيم وعيسى المعلوف.

وممن عادها من غير العرب كمال أتاتورك الذي جعل اللغة التركيّة هي اللغة الرسميّة الوحيدة، ولم يقبل أي لغة أخرى للتخاطب داخل الدولة حتى اللغة العربيّة في العلوم الشرعيّة، وألغى كتابة اللغة التركيّة بالحروف العربيّة، وأجبر الناس على الكتابة بالحروف اللاتينيّة، وألغى الأذان باللغة العربيّة، وأجبر المؤذنين على استعمال التركيّة في أذانهم، كما أجبر العائلات العربيّة القاطنة داخل تركيا على تغيير أسمائهم من العربيّة إلى

الأسماء التركية، وحوّل مسجد أيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وألغى وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدينة^(١٦).

وينظر إلى العريزية في ضوء هذا السرد التاريخي على أنها جزء من المؤامرة التاريخية على الحضارة العربية التي سعت من قبل إلى إحلال الحرف اللاتيني مكان الحرف العربي، وإلى الكتابة بالعامية وبالحروف اللاتينية^(١٧).

وإذا كان ابن خلدون قد أشار في مقدمته إلى أن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب فإن أنصار اللغة العربية يرون أن ظاهرة الاستغراب في الأمة ليست وجهاً حضارياً، وهي غير مقبولة على الرغم من انتشارها لدى شريحة كبيرة من الشباب، إلا أنها كما يرون هي عامل تدمير لثقافتنا وحضارتنا، في حين أن المحافظة على عذرية لغتنا هي محافظة على تاريخنا وما تبقى لنا من حضارتنا التي تندثر بفعل انحدار الجو الثقافي في وقتنا الحالي الذي نشهد فيه علوّ صوت البارود والقتل على صوت القلم وصوت العقل، ويصبح أنصار العربية قائلين: لا تقتلوا لغتكم بعريزيتكم!!^(١٨).

وأكد مناصرو العربية والمدافعون عنها أن أشد ما في ظاهرة العريزية هو سرعة انتشارها، إذ بعد أن تشوهت اللغة الملفوظة استجدت ظروف تمسخها مكتوبة، واستكمل تهجينها بالرقمنة وإدخال التصاوير عودة إلى عصور الكهوف وانتهاء باللغة الهيروغليفية.

وتوسّع الشباب في استعمال هذه اللغة المحدثثة في رسائل الهواتف

(١٦) خالد سالم الجابري - موقع كوثر الشراكة للتطوير - ٢٠١٥/٦/٩.

(١٧) جمانة الشامي - العريزية تشخيص موجع للعربية!!! المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية - المجلد التاسع - ص ٤٧١ دبي ٢٠١٥.

(١٨) خالد سالم الجابري - مرجع سابق.

المحمولة والبريد الإلكتروني والقصائد الفكاهية، وتنامى الخطر ليشق طريقه إلى الإعلام والإعلانات، ووجد العربيّيون في القنوات الفضائية بيئة خصبة لا تُراقب ولا تُراعى لأنّ جلّ اهتمامها موجه إلى الكسب المادي.

واليوم يتفاقم الخطر لعجز المجتمع عن تلبية الحاجات اللغوية لمواكبة سيطرة اللغة الحاسوبية، وانصياع المغلوب للغة الغالب وسيطرة اللغة الإنجليزيّة ليحلّ الخط اللاتيني بهيمنة ممتدة، وآخر الكوارث ابتداء برنامج بترجمة اللغة الفصحى إلى مقابلها من اللغة المحدثّة (العربيّزي)، وبلغ الأمر أن نُشرت معاجم للمفردات العربيّة ومقابلاتها العربيّزية.

ومع ظهور التقنيات الحديثة وانتشارها على نطاق واسع خرجت اللغة من أيدي علماء اللغة إلى علماء التقنية، وأصبحت المشاركة فيها من باب المواكبة وردة الفعل إن لم يكن اللهاث وراء التغيرات المتسارعة واللحاق بها.

وبعد تبيان امتدادات العربيّزي على أنها «تقليعة» وتقليد أعمى وفوضى ثقافية وتخلف حضاري في نظر أنصار العربيّة، يؤكد هؤلاء الأنصار أن اللغة العربيّة لا يمكن وصفها بأنها مجرد لسان تتحدث به مجموعة من الناس، بل هي مسألة وجود وقضيّة هويّة، وأن ثمة دولاً حافظت على لغتها كاليابان وكوريا وألمانيا... إلخ، وتبوّأت مواقع عليا في سلم التقدم الحضاري، وأن اللغة العربيّة هي لغة الفصاحة والبيان، وأداة التواصل والتعبير، وفي الحفاظ عليها حفاظ على الهوية وحفاظ على الأمن القومي العربيّ.

ويرون أيضاً أن العربيّزي خطر داهم على اللغة العربيّة يروم تشويهها والابتعاد عن الهوية والثقافة العربيّة، ذلك لأنّ اللغة العربيّة هي الوجه الناصع لهوية هذه الأمة، وهي العامل الأساسي في وحدتها، وهي لغة القرآن الكريم، وهي لغة الإبداع في مختلف ميادين المعرفة، والأسهل بين اللغات إذا توفرت

في تعليمها المنهجية السليمة والطرائق الحديثة في العملية التعليمية التعليمية، في حين أن ظاهرة العريزي تؤدي إلى اندثار الحروف العربية، إذ لم يتوقف الشباب عند كلمات عربية تحوي أحرفاً لا مقابل لها في الأجنبية، وإنما ابتكروا حلاً في استخدام الأرقام محل الأحرف فكلمة (عال) تكتب على هذا النحو 3al، كما عمدوا إلى اختصار الحروف الأجنبية فجملة I see you تختصر بـ 3al و To be تختصر بـ 2B، فضلاً على تحويل الكلمات الأجنبية إلى ألفاظ عربية (تويتر، الفيس بوك، فاكس) واستخدمت الأفعال فيها مثل (فكس، وفسبك).. والكتابة باللاتينية، فضلاً على استبعادها للأحرف العربية، فإنها تطمس المعاني أيضاً، فالثناء على أحدهم بقولنا «أكثر الله من أمثالك» تتحول إلى «كسر الله من أمثالك» في حال كتابتها باللاتينية.

خامساً - مبادرات الحد من استئراء العريزي

ثمة من يرى أنه لا خطر على اللغة العربية من ظاهرة العريزي مادام القرآن حامياً استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، إلا أن رب العالمين يدفعنا إلى العمل ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ [التوبة: ١٠٥]، إذ لا بد من العمل على الحفاظ على اللغة العربية، والسعي إلى سيرورتها وانتشارها على الألسنة والأقلام في منأى عن اللحن والركاكة والهجين اللغوي.

ومن هنا ظهرت مبادرات قامت بها مؤسسات وشركات واتحادات ومبادرات قام بها أفراد، وهدفت كلها إلى الحد من استئراء العريزي والحفاظ على العربية الفصيحة.

ومن هذه المبادرات ما قامت به شركة غوغل Google بالاشتراك مع بعض الشركات الأخرى مثل «تغريدات» و«ومضة» و«يملي» إلى زيادة المحتوى الرقمي على الشبكة مستفيدة من الميزات التي عرف بها محرّك

«غوغل» من سرعة فائقة في عرض النتائج، وسعت إلى تشجيع أبناء العربية على استخدام الشبكة (الإنترنت) بلغتهم العربية دون الحاجة إلى الإلمام بلغة أجنبية، وذلك بطريق البحث الصوتي بالعربية الفصيحة وإطلاق الكتابة بالعربية، وتعريب واجهات (يوتيوب)، وتعريب خرائط (غوغل)، وموقع التواصل الاجتماعي، وتعريب متصفح (كروم)، وبريد (جيميل).

وعملت الشركة أيضاً على محاربة (العربيزي) عند استخدام وسائل التقانة الحديثة كالهواتف الذكية والأجهزة اللوحية والحاسوب، وفي الأحاديث العربية التي تكاد تغيب عنها الهوية العربية شيئاً فشيئاً.

وبذلك تكون شركة (غوغل) قد قدّمت ميزة في مسيرة التعريب، إذ يمكن تحويل استخدام لغة المفاتيح باللغة الإنجليزية إلى العربية فتحول «kaifa Haluka» إلى المقابل العربي الفصيح «كيف حالك؟».

وتشير دراسات الاتحاد الدولي للاتصالات إلى أن سوق المحتوى الرقمي العالمي قد انتقل من ٣٠٠٠ مليار دولار سنة ٢٠١١ ليصل إلى ٣٨٠٠ مليار دولار سنة ٢٠١٥. أما نصيب المنطقة العربية من هذه السوق فقد انتقل من ١٨ مليار دولار سنة ٢٠١١ ليصل إلى ٢٨ مليار دولار سنة ٢٠١٥.

وثمة غياب للشركات العربية عن صناعة المحتوى في الوقت الذي تسيطر فيه شركة (غوغل) و(مايكروسوفت) و(الفايس بوك) و(تويتر) وغيرها على صناعة المحتوى باللغة العربية منذ أن وعت أهمية المردود الاقتصادي لهذه السوق. وفي ذلك ضياع للسوق العربية على المستثمر العربي، وهو ضياع للمال وفرص القوى العاملة والمجتمع العربي في اكتساب خبرات جديدة وهامة، وللشباب في الحصول على فرص عمل جديدة.

وبادرت مؤسسة الفكر العربي إلى إحداث المرصد الإحصائي للمحتوى الرقمي العربي، ويهدف إلى جمع هذا المحتوى على الشبكة وتصنيفه وتحليله، سواء المنجز منه في الدول العربية أو المنجز في الدول الأجنبية، واستندت إلى جمع عينة خاصة بمواد المحتوى من بدايات ظهوره عام ١٩٩٥ وإلى نهاية ٢٠١١. وتتضمن وحدات التحليل ملفات ملحقة أو مرتبطة بها، وقد بلغت ١٢٦ مليوناً و ١٢ ألفاً و ٢٨١ ملفاً بين نص (Text)، وصورة image، وفيديو Video، وبي دي إف PDF، وصنفت المحتويات إلى مواقع ومدونات ومنتديات وشبكات اجتماعية وشبكات فيديو، وشبكات صور، وتغريدات، وقوائم بريدية.

وجاءت المواقع في المرتبة الأولى من بين قنوات نشر المحتويات العربية بما يفوق ٣٠٪ مقابل ٩١٪ في أوروبا، وجاءت نسبة ٢٥٪ للشبكات الاجتماعية مقابل ٨٤٪ في أوروبا، وجاءت المنتديات بنسبة ١٦٪ مقابل ٦٧٪ في أوروبا.

وتبوأ المحتوى الثقافي المكانة الأولى بما يزيد على ٤١٪ من مجموع المحتويات باللغة العربية، إلا أنه يفتقر إلى الشمولية، إذ جُلّ ما يركز عليه متعلق بالنصوص الدينية والتراثية، ويجيء في المرتبة الثانية المحتوى الاجتماعي بنسبة ١٩٪ بموضوعات تتعلق ببنية المجتمع وتركيبته وبمستويات التعليم والفقر والصحة وحركة المجتمع المدني، وبلغت نسبة المحتوى القانوني والسياسي ١٤٪ في موضوعات تتعلق بالنظم والمذاهب السياسية والأحزاب السياسية والعلاقات الدولية والمعاهدات والاتفاقات والنظم القانونية وتاريخ القانون وحقوق الإنسان، ثم تجيء باقي المحتويات التي لا يصل أي منها إلى ١٠٪، ووصلت نسبة المحتوى التعليمي إلى ٤٢، ٣٪ من المجموع الكلي، وهي نسبة متدنية جداً، وجاء المحتوى العسكري والأمني في المرتبة الأخيرة إذ بلغت نسبته ٧٨، ٢٪.

وفي المملكة العربية السعودية، احتفاءً باليوم العالمي للغة العربية في ١٨ كانون الأول من كل عام، عقد مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية حلقة ناقش فيها ظاهرة «العربيّزي» ضمن برنامج المتكامل «لغة الشباب العربي في وسائل التواصل الحديثة: اللغة الهجين، العربيّزي، الفرانكو» شارك فيها ما يزيد على مئة طالب وطالبة من طلاب الجامعات الحكومية والأهلية بمدينة الرياض، وعدد من المهتمين من أساتذة الجامعة والتربويين والإعلاميين، والمتخصصين في اللغة وعلم النفس والاجتماع والحاسوب.

وتضمنت الحلقة عدة جلسات نقاشية نوعية. وقد ناقشت الحلقة موضوعات متعددة منها: اللغة العربية والهوية، اللغة العربية واستخدام الشباب لها، مفهوم العربيّزي، أسباب نشوء ظاهرة العربيّزي، مظاهر العربيّزي، تقييم الشباب لظاهرة العربيّزي، الهوية واللغة ودور العربية في تشكيلها، وسائل حفظ العربية، دور الإعلام وأثر اللهجات العامية في اللغة العربية الفصيحة.

وأجرى المركز استطلاعاً عن مدى استخدام الشباب العربي للعربيّزي وغيرها من اللغات في وسائل التواصل الحديثة، وقد أشار ١٦٪ من المستطلعين إلى أنهم يستخدمون كثيراً من الكلمات والجمل غير العربية في أثناء حديثهم اليومي، وأن ١٦٪ يستخدمونها بصورة متوسطة، كما أشار ١٢٪ إلى أنهم يستخدمون بعض الأرقام بدلاً من الحروف في كتابة بعض الكلمات العربية و١٣٪ يستخدمونها بصورة متوسطة، وكان المستطلعون من حملة الشهادة الثانوية بنسبة ١٤٪ ومن حملة الشهادة الجامعية بنسبة ٦٦٪ والدراسات العليا بنسبة ٢٠٪.

وذكر ٤٪ من المستطلعين أنهم يكتبون الكلمات العربية بحروف غير عربية، و٥٪ يكتبونها بصورة متوسطة و١٢٪ بصورة قليلة، وأشار ٦٪

منهم إلى أنهم يستخدمون بعض الكلمات والجمل الأجنبية في كلامهم العربي لعدم معرفتهم ببديلها في العربية و٦٪ بصورة متوسطة و٢٦٪ بصورة قليلة.

وأبان ٢٪ منهم أنهم يلجؤون إلى استخدام بعض الكلمات والجمل الأجنبية في كلامهم العربي ليظهروا للناس مدى معرفتهم باللغات، و٥٪ يستخدمونها بصورة متوسطة و٢٦٪ بصورة قليلة.

وذكر ٥٤٪ من المستجوبين أنهم يرون ازدياداً مطرداً في استخدام الشباب للعريزي خلال السنوات الأخيرة.

وفي الأردن المشروع الوطني للدفاع عن اللغة العربية، ويهدف هذا المشروع إلى نشر الوعي اللغوي والتنبيه على الممارسات الخاطئة بحق اللغة العربية، والتشجيع على استخدام العربية السليمة في الحديث واستخدامها في الرسائل الهاتفية وعلى صفحات التواصل الاجتماعي والبريد الإلكتروني. كما يهدف إلى رفع مستوى تعليم اللغة العربية في جميع مراحل التعلم، والتصدي لعملية تهميش اللغة العربية واستخداماتها اليومية وخاصة لدى الشباب، والعمل على وقف التراجع المتزايد لمكانة اللغة العربية في الحياة اليومية، والعمل على مواجهة المخاطر التي تنجم عن استخدام لغة غير العربية.

ومن مسوغات المشروع التذكير بأن اللغة هي فكر الأمة ووسيلة التعبير عن هذا الفكر، والتذكير بارتباط مكانة الأمة بين الأمم بمكانة لغتها، وبناء الوعي بأهمية اللغة العربية من خلال رأي عام مؤمن باستخدام اللغة استخداماً سليماً في الحياة اليومية وإعادة الاعتبار والاحترام للغة العربية.

وفي سورية ثمة لجنة التمكين للغة العربية التي جرى تشكيلها بقرار

جمهوري عام ٢٠٠٧، ومن مهامها وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها، ووضعت اللجنة هذه الخطة وتابعت تنفيذها مع الجهات المعنية وما تزال تتابع، وشُكلت لجان للتمكين في بعض الوزارات المعنية (التربية- التعليم العالي- الثقافة- الإعلام- الأوقاف- الإدارة المحلية) وفي كل محافظة من المحافظات السورية، وأنجزت هذه اللجان مجموعة من الإجراءات الآيلة إلى الارتقاء بالواقع اللغوي على المستوى العام، وثمة إنجازات خاصة في كل من الوزارات المعنية، ومن الإنجازات على المستوى العام إصدار عدة تعاميم من رئاسة مجلس الوزراء، ومنها:

- تعميم على الوزارات والمؤسسات والإدارات وعلى الشركات في القطاع الخاص والعام وغرف الصناعة والتجارة، يتضمن تكليف مدققين لغويين لتصحيح المراسلات الصادرة عنها.
- تعميم يتضمن رفع قوائم بالمصطلحات الأجنبية في مجالات عمل الوزارات والشركات والمؤسسات إلى مجمع اللغة العربية لوضع التسميات العربية المقابلة لها.
- تعميم يتضمن أن يكون النجاح في اللغة العربية شرطاً في الإعلان عن المسابقات بغية التعيين والتوظيف في دوائر الدولة وغيرها إلى جانب النجاح في اللغة الأجنبية والمعلوماتية.
- تعميم يتضمن تشكيل لجان في المدن لمسح الشوارع، والوقوف على التسميات الأجنبية لوضع البديل العربي المقابل لها بالتنسيق مع مجمع اللغة العربية.

- تعميم التجارب الناجحة على المحافظات، وتوجيه كتب شكر لأصحابها.
- تكريم المُجَلِّين في مجال التمكين للغة العربية من رجالات الفكر.
- عقد دورات تدريبية للعاملين في بعض الدوائر لتدريبهم على أصول التراسل والكتابة السليمة بالعربية وتلافي الأخطاء الشائعة.
- إجراء مسابقات في مجالات الفنون الأدبية للصغار والكتاب وتكريم الفائزين فيها.
- إلقاء محاضرات في مجال التوعية اللغوية في المراكز الثقافية وفي النوادي والاتحادات والنقابات والمنظمات...إلخ.
- نشر مقالات في الصحف والمجلات تتناول القضايا اللغوية.
- تعميم على جميع المعنيين في الوزارات والمؤسسات والدوائر يتضمن وجوب استخدام اللغة العربية في الاجتماعات التي تعقدها والمناقشات في ضوءها.
- طباعة كتب تتناول خصائص اللغة العربية وميزاتها.
- وثمة إجراءات عملية في كل وزارة من الوزارات المعنية تتعلق بمعالجة القضايا اللغوية ذات الطبيعة الخاصة في مجالات عملها، وكان ثمة تركيز على وزارات التربية والإعلام والأوقاف لدورها في الارتقاء بالواقع اللغوي.
- ولقد أسهمت الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية في تعزيز المحتوى الرقمي العربي على الشبكة، وكان لموقع (إي سورية) للمحتوى الرقمي في مشروع «مدونة وطن» دور بارز في استخدام اللغة العربية السليمة في منأى عن اللهجات العامية والهجين اللغوي، وثمة غنى في الموضوعات التي تدون الحدث واللقاءات والظاهرة والمكان والشخصيات..إلخ، وهذه الموضوعات جاهزة

للتصفح مراراً وتكراراً لعشرات السنوات، ويمكن عدّها مرجعاً عن سورية يتسم بجودة المستوى أسلوباً ومحتوى، وإن استخدام اللغة العربية في الموقع يعتمد على المبادرة والدقة والسهولة، وقد تم تداول ملايين الصفحات عبره.

ومن الفعاليات التي قامت بها الجمعية في هذا المجال:

- ١- مسابقة «مدونة وطن» بطريق الهواتف المحمولة.
- ٢- خدمة إخبارية يومية عنوانها «خبر وحكاية» تقدم إلى مشتركى شبكة الاتصالات الخلوية.
- ٣- فقرة تلفزيونية يومية عنوانها «مع الناس» تذاع يوميًا على القناة الفضائية السورية.
- ٤- استثمار المحتوى الرقمي من خلال إعادة إنتاج المقالات المنشورة وبثها بطرائق ابتكارية تنسجم مع مختلف قنوات التواصل الإعلامي في إطار عمل متكامل.
- ٥- تشكيل فرق عمل إعلامية باسم «الفريق الاستكشافي لمدونة وطن»، تقوم بجولات إعلامية على قرى ومناطق لم يصلها الإعلام من قبل بهدف الوصول إلى المعلومات ذات الخصوصية المحلية في تلك المناطق، وتدوين مقالات عنها ونشرها.

وفي لبنان قامت جمعية (فعل أمر) بحملة عنوانها «بحاكيك من الشرق بتردّ من الغرب» إشارة إلى الذين يستخدمون العبارات والكلمات الأجنبية ردّاً على من يتكلم باللغة العربية كأن يقول المتكلم: صباح الخير فيرد عليه الآخر بون جور. ومن أهداف الجمعية الحرص على التمسك باللغة العربية الفصيحة والعمل على سيرورتها وانتشارها في منأى عن العريبيزي والهجين اللغوي.

ومن المبادرات الشخصية ما قامت به المخرجة الأردنية (داليا الكوري)، إذ إنها أخرجت فيلماً عن ظاهرة العريزي انطلافاً من إيمانها بأن هنالك أزمة هوية شعرت بها كما شعر بها كثير من الناس، فحاولت من خلال فلمها أن تلفت أنظار الكثيرين إلى هذه الظاهرة الخطرة التي تنتشر بين الشباب العربي، وتوخت من خلال ذلك التوعية بأهمية اللغة العربية وضرورة حمايتها.

سادساً - توصيات ومقترحات

لما كانت ظاهرة العريزي خطراً يهدد اللغة العربية كان لا بد من اتخاذ إجراءات عملية للحدّ من استشرأ هذه الظاهرة والحوّل دون تفاقمها على الصعيد العربي، ومن التوصيات والمقترحات التي من شأنها تعزيز اللغة العربية الفصيحة:

- ١ - وضع سياسة لغوية في كل قطر عربي تحدد السبل الكفيلة بالارتقاء بالواقع اللغوي استثناساً بالسياسة اللغوية على الصعيد القومي التي أنجزتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو).
- ٢ - إصدار تشريعات وقوانين لحماية اللغة العربية والحوّل دون استخدام اللهجات العامية والهجين اللغوي في البرامج الثقافية والإعلامية^(١٩).
- ٣ - سنّ قوانين تلزم مخاطبة المستهلك باللغة العربية، سواء تعلق الأمر بالمعلومات الإرشادية، أو بطريق الإعلان والدعاية على اختلاف أنواعها وغاياتها ومواقعها ومراكز إطلاقها (اللوحات واللافتات والمراكز والمحال التجارية والنوادي والمقاهي والمطاعم... إلخ).

(١٩) الدكتورة نزهة بنت الخياط - المحتوى الرقمي العربي على الشبكة (الإنترنت) بين الأبعاد الجيو استراتيجية ومفارقات الجاهزية المعلوماتية - المجلد التاسع الصادر عن المجلس الدولي للغة العربية - دبي ٢٠١٥ ص ٦٠٤.

- ٤- تكثيف البرامج الرامية إلى التوعية اللغوية بالدور القومي للغة وذلك في مختلف وسائل التواصل التربوية والدينية والإعلامية والثقافية.. إلخ. وعبر الكلمة المسموعة والمطبوعة والمرئية.
- ٥- تعزيز الترجمة الآلية لحرق المراحل الضرورية للانتقال بالعربية إلى العصر الرقمي، وتعميق اللسانيات الحاسوبية بما يمكنها من النهوض بالترجمة الآلية.
- ٦- تعزيز المحتوى الرقمي العربي على الشبكة أي المحتوى النصي والسمعي والبصري، وتقوية المرجعية الرقمية والعلمية للغة العربية^(٢٠).
- ٧- تحديث المنظومة التربوية بتطوير المناهج لتواكب عصر الحداثة، وتطوير إعداد المعلمين وتأهيلهم إلكترونياً، وإتقان ثقافة الحاسوب ببرامجه العربية.
- ٨- التركيز على دور وسائل الإعلام في الالتزام بالعربية الفصيحة السهلة والميسرة، وفي تخصيص برامج موجهة إلى الأسرة والأطفال، والتركيز على دور الأسرة في هذا المجال.
- ٩- تكوين قاعدة بيانات بالمواقع الحاسوبية الملتزمة باللغة العربية، وتخصيص جوائز لأفضلها على الشبكة.
- ١٠- التركيز على أهمية استحداث تصاميم لخطوط طباعية عربية رقمية تخلو من العيوب الوظيفية والجمالية، بغية توفير قدر أكبر من التنوع الوظيفي والجمالي، على أن تكون التصاميم الجديدة ذات صلة وثيقة بأشكال الكتابة القديمة التي ألفها الناس، مما

(٢٠) إبراهيم أحمد حربلي - ظاهرة العربيّزي ومستقبل الحرف العربي - المجلد الحادي

عشر الصادر عن المجلس الدولي للغة العربية- دبي ٢٠١٥ ص ٥٧٠.

يكسب الكتابة العربية تميّزها على شاشات العرض الحاسوبي ووسائل الإعلام الرقمي ذات القدرة والقوة الهائلة في الوصول إلى الآخرين، الذين لا يعرف بعضهم التسامح تجاه ما يقصر عن تلبية حاجاتهم والوفاء بمتطلباتهم المتزايدة والمتسارعة.

١١- التوسع في نشر ثقافة وجمالية الخط العربي ولاسيما في المجتمعات التي تكتب لغاتها بالحرف العربي من خلال إقامة الدورات والورشات والمعارض والمسابقات والنشاطات التعريفية والتربوية، وتوظيف تقنيات الاتصال الحديثة في توثيق المخطوطات واللوحات الخطية وعرضها والتعريف بها كفيل بنقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة لتحسن حفظه وتوظيفه لمصلحتها^(٢١).

١٢- العمل على استحداث تقنيات آلية لتصحيح اللغة على الشبكية.

١٣- العمل على الإكثار من المواقع التفاعلية بالعربية الفصيحة.

١٤- تحفيز الناشئة إلى القراءة باللغة العربية، والدخول إلى المواقع الإلكترونية الحديثة التي تساعد على تعلم اللغة الأم بطريقة متطورة ومناسبة لمختلف الأعمار.

١٥- نشر ثقافة التكلم بالفصيحة في العملية التربوية وفي جميع المراحل، وتخصيص جوائز ومكافآت للمجّلين في استخدامها.

١٦- تنمية الثقة بالنفس وتعزيز الانتماء، لأن من يفقد الثقة بجذوره يفقد الصلة والثقة بمجتمعه ووطنه وأمته.

١٧- تفعيل عمل التدقيق اللغوي في المؤسسات الإعلامية والقنوات

(٢١) الدكتور سعد الدين عبد الحميد محمد- عيوب الكتابة العربية المنضدة تهدد سلامة اللغة-

المجلد السادس من أعمال مؤتمر المجلس الدولي للغة العربية- دبي ٢٠١٥ ص ١١٩.

الفضائية قبل منحها ترخيص البث لضمان سلامة العربية في الإعلانات المكتوبة وشريط الأخبار.

١٨- دعم مشروعات البحث العلمي في ميدان تعريب التقنيات والترجمة الآلية، ودعم اللسانيات الحاسوبية وتفعيل التكامل والتنسيق بين اللغويين والحاسوبيين في إنجاز بحوث تعالج مشكلات معالجة اللغة العربية وحوسبتها.

١٩- السعي إلى إيجاد برامج للتنقية اللغوية تنقي النصوص من المصطلحات الأجنبية والعامية ووضع مصطلحات وألفاظ عربية فصيحة مكانها.

٢٠- وضع برامج موجهة للأطفال مصوغة بالعربية الفصيحة السهلة والميسرة، وألعاب لغوية وقصص مصورة وتفاعلية على الشبكة والهواتف المحمولة.

٢١- تخصيص جوائز لأصحاب المبادرات الرامية إلى تقديم حلول أصيلة مبتكرة في مجال مشكلات اللغة الحاسوبية.

* * *

المصادر والمراجع

- تأثير لغة التواصل الإلكتروني على مستقبل الحرف العربي - سامية بادي وسوهام بادي- المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية- المجلد السادس - دبي ٢٠١٥.
- رصد واقع اللغة العربية في ميدان التواصل على شبكة الإنترنت والهاتف المحمول- الدكتور محمد زكي خضر وآخرون- اللجنة

- الوطنية الأردنية للنهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة - مجمع اللغة العربية الأردني - عمان ٢٠١٤.
- رؤية الشباب لواقع ومستقبل استخدام اللغة العربية في الإعلام الجديد - الدكتورة هبة الله السمري والدكتورة منى الخاجة - دراسة تطبيقية - المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - المجلد الثالث - دبي ٢٠١٥.
- ظاهرة العريزي نتيجة طبيعية لتمازج الحضارات - آمال سعد الدين - مجلة الرياض العدد ١٥٣٥١ تاريخ ٥/٧/٢٠١٠.
- ظاهرة العريزي ومستقبل الحرف العربي - إبراهيم أحمد حربلي - المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - المجلد الحادي عشر - دبي ٢٠١٥.
- العريزي تشخيص موجه للعربية !!! جمانة الشامي - المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية - المجلد التاسع - دبي ٢٠١٥.
- العريزي: لماذا تحاربه جوجل وتهتم بالعربية الخالصة؟ الدكتور محمد رياض العشيرى - BBC ٢٠١٢.
- عيوب الكتابة العربية المنضدة تهدد سلامة اللغة - الدكتور سعد الدين عبد الحميد محمد - المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - المجلد السادس دبي ٢٠١٥.
- المحتوى الرقمي العربي على الشبكة (الإنترنت) بين الأبعاد الجيو استراتيجية ومفارقات الجاهزية المعلوماتية - الدكتورة نزهة الخياط - المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - دبي ٢٠١٥.
- موقع كوثر الشراكة للتطوير - خالد سالم الجابري - تاريخ ٩/٦/٢٠١٥.

الماء في ثقافة الشعوب

أ.د. لبانة مشوح (*)

ارتبط الماء بالثقافة عبر التاريخ في علاقة جدلية؛ فكما أن الثقافة ماء الحياة، ونبع الإبداع، ونهر الحضارات الدافق، ينساب الماء إلى جذور الثقافة، يُخصبُ تربتها لغةً وصوراً ورموزاً وطقوساً وعادات... ينفذ إلى عمق نسيج ثقافات الشعوب لتطرحه ندى على أوراق سفرها، فيعبّر بشفافيته عن كل مكوّن من مكوناتها، ويزيد ببريقه وهج ألوانها، ويسبغ عليها من عذب مذاقه، ثم يتجمّع من كلّ فروعها ليصبّ سيلاً مدراراً في بحر الثقافة الإنسانية.

وتتجلى جدلية العلاقة بين الثقافة والماء في أوضح صورها في أساطير الشعوب وآدابها، وما انعكس منها على طقوسها وعاداتها وتقاليدها، وفنونها بمختلف أشكالها ومدارسها.

وقد وجدنا لزماً علينا في هذا السياق العودة بعيداً في تاريخ الفكر الإنساني حيث الماء عنصر أساسي في الثقافات القديمة، يشكّل إحدى ركائزها الغارقة في الرمزية فيما يعرف في علم تصنيف الأساطير بـ«الأسطورة العليا»، كقصة الخلق الأول وقصة الطوفان. فهو فيها العنصر الذي يُبدأ به

(*) أُلقت عضو مجمع اللغة العربية بدمشق أ.د. لبانة مشوح هذه المحاضرة بتاريخ

٢٥/١١/٢٠١٥م.

الخلق، ويصل الأرض بالسماء والإنسان بخالقه. في الأساطير الكنعانية توحدت الأرض بالمطر في إله واحد هو الإله «بعل» (أي السيد)، فكان بعْلُ إله المطر وسيد الحياة في آن معاً، لأن في الماء حياة الأرض وما عليها.

وكما أن الماء مصدر الحياة فهو كذلك منبع الجمال. (أفروديت) الإغريقية آلهة الحب والجمال ولدت من احتكاك أجزاء من جسد (أورانوس) إله السماء والحياة، بالماء عند سقوطه في البحر. وفي هذا رمزية مكثفة للعلاقة بين الماء عموماً (ماء السماء وماء البحار) والخصب والحياة والجمال.

تنبأ كتب تاريخ الفكر أن الفيلسوف اليوناني (طالس) (القرن السادس ق.م) هو أول فيلسوف في التاريخ عدّ الماء جوهر كل مادة في الكون وأساسها الأول، ليضيف إليه أقرانه من بعده النار والتراب والهواء. لكن الحقيقة أن الفارسي (زرادشت)، الذي ترجّح آخر الدراسات أنه عاش بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م، أي قبل خمسة قرون على الأقل من (طالس)، قد سبقَ هذا الأخير إلى ذلك، كما سبقت شعوب الهند وفارس الإغريق إلى تقديس الماء.

فالفرس القدماء قدّسوا الماء والنار والتراب والهواء، وهو ما أخذه عنهم لاحقاً علماء الطبيعة الإغريق. واعتقد الفرس أن الله بدأ الخليقة بالماء، ثم أتبعها بالنار والنبات والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان في اليوم الأخير. وقد بلغ حد تقديسهم للماء أن بنوا له المعابد، وقدموا القرابين للينابيع.

لكنّ البابليين كانوا الأسبق إلى إمعان النظر في أصل الوجود وربطه بالماء. فبداية الكون في معتقدهم كانت بحراً حلوّاً، ثم ما لبثت الآلهة أن مزجت الماء الحلو بالماء المرّ فخلقت منه (إنشار) سيد العالم العلوي،

و(كنشار) سيد العالم السفلي. ومن لقاء (إنشار) و(كنشار) ولد (إيا) القوي المسلح بكل المعارف.

وفي الأساطير المصرية، الماء أصل كل شيء. إذ إن (رع) إله الشمس انبثق من أعماق البحار العميقة المحيطة بالعالم، والبشر خلقوا من دموع عينيه.

* * *

أدرك الإنسان القديم إذن أهمية الماء في وجوده، بل جعله أصل الكون والحياة والأشياء؛ لكن حدود معارفه الضيقة دفعته لأن يربط ظواهر الكون، التي تحييه حيناً وتدمره أحياناً، بقدرة خارقة. فكان للماء في العقائد القديمة عددٌ من الآلهة، اختص بعضها بالأنهار، وبعضها الآخر بالصواعق، والبحار، والغيوم، والمطر....

والأرجح أن (بعل) هو أقدم آلهة المطر في الحضارات السامية القديمة وأهمها بالمطلق. وهو الإله المحارب عند الكنعانيين. لُقّب بـ«راكب الغيوم وسائقها»، إذا غضب أطلق عواصفه وصواعقه فدمّر وأحرق، وإذا رضي أرسل غيثاً رخيماً يسقي، فيحيي، ويغلّ الغلال. وبما أن (بعل) إله المطر، فإنه يُخصب الأرض «البعل» بمائه؛ و«البعل» هي في الأصل الأرض المرتفعة التي لا يُصيّبها مطرٌ إلا مرّةً واحدةً في السنة؛ والزرع الذي يسقى بماء السماء «زرعٌ بعل»، وعكسه «السقي» و«المسقوي»؛ و«البعلة» هي الزوجة والعلاقة واضحة بين الماء والخصب.

و(حُدّد) اسمٌ آخر لـ(بعل) إله المطر والبرق والرعد. تُروي الأسطورة أنه خرج إلى البراري، فهاجمته الوحوش وجرتّه إلى مستنقع وأغرقته - أي إن الماء في الأسطورة الكنعانية هو بداية الحياة ونهايتها - وظلّ (بعل) غريقاً سبع

سنوات احتبس الغيثُ خلالها، وبيست الكائنات وماتت الحياة. ولم ينقذها إلا انتشاله من المستنقع؛ فاخضرت الأرض وانتشت الحياة عليها.

وفي رواية أخرى، أن الإله (موت) انتصر على الإله (بعل)، فنزل بعل إلى عالم الأموات، وأخذ معه غيومه ورياحه الحاملة للغيث؛ فحلّ القحل والمحل، وشحّب وجه الأرض، وهزلت الكائنات وباتت عُرضة للمجاعة. ويرجّح الباحثون في علم الأساطير أن أسطورة موت بعل تشير إلى حدوث تبدلات كبيرة قاسية في الأحوال الجوية في ذلك الزمان، طبعت الذاكرة الجمعية، وتُرجمت على ما ترجمت عليه في الأساطير والطقوس المتوارثة. كما يرون في هذه الأسطورة رابطاً جلياً بين المعتقدات والعادات السائدة في الحضارات القديمة والعادات والطقوس الشعبية التي ما زالت سائدة في مناطق عدة من هذا العالم خاصة في الشرق وإفريقية. إذ تروي الأسطورة الكنعانية أن الإله (إيل) كبير الآلهة بكى (بعل) بكاء مرّاً، بل بالغ في اللطم والنحيب، وأنه، بحسب ما ورد في «مغامرة العقل الأولى»: «خرّ واقعاً على الأرض، وأخذ يحشو التراب على رأسه ويمرغ نفسه في الأديم». ولا عجب في ذلك، فاختفاء بعل يعني اختفاء الحياة. لذا هرع (إيل) إلى البراري للبحث عن (بعل) إلى جانب (عناة) أخت (بعل). لكنه لم يجد له أثراً؛ وما أثره إلا الخُصرة والكلاً وبهجة الحياة. تذكرنا مسيرة (إيل) و(عناة) بمسيرات الحينة^(١)، أو الحينة التي تجوب القرى في بلاد الشام فلا تجد إلا الجفاف والقحط.

كذلك تتولى (عناة) محاربة (موت) بعد أن رفض أن يعيد أحاها، «فتذروه بمذراة، وتحرّقه بالنار وتطحنه بين حجري رحي، وتبذر بقاياها في

(١) الحين: الهلاك والمحنة، والحائنة هي المصيبة.، أما «الحينة» فهي الوقت والحين.

الحقول ليلتهمها الطير». والصلة واضحة بين هذه الأسطورة وعادة النساء البدويات قديماً في تكويم التراب وغربلته وطحنه بالرحى وعجنه، ثم إشعال النار فيه، كما يبين الباحث ممدوح مفلح البكر في كتابه «الروح الأخضر - احتفالات الخصب في العادات والمعتقد»^(٢).

* * *

ومن الكنعانيين، يُبحر بنا زورق الثقافة إلى شواطئ حضارات ما بين النهرين، فالبابليون سنوا قوانين تنظم استعمال المياه وضمنوها شريعة حمورابي الخالدة. وكان لهم كما للأشوريين أناشيء وترانيم في تمجيد مياه دجلة والفرات. وتجلت عظمة مكانة الماء في الأساطير البابلية في أن كبير آلهة بابل هو سيد الماء، أي السيد على السماء والأرض معاً.

وفي الألف الثالث قبل الميلاد، قدس السومريون الماء، ومن قبلهم الأكاديون. والإله السومري (إيا) يقابل (بعل) عند الكنعانيين، وهو إله المياه العميقة، القادر على أن يهب الحياة والخضرة للبذور الميئة.

والماء بالنسبة للمندائيين الصابئة إحدى الوسائط التي تصلهم بالإله الواحد، وهو يمثل عندهم شكلاً من أشكال طهارة الروح والجسد؛ فهو أداة التعميد الأولى، وهو «الصورة المتخيّلة للتغير والحركة، وهو كامن بعدة أشكال وأماكن، ويمكنه إلغاء النجاسات وأخطاء المرء، كما أنه يغسل كل عالق لا يمت للروح بصلة. وهو مسيرة تحوّل إلى الجديد، ويمسح عن جبين الميت قلق الموت، ويحيي شجر الآس، ويعيد تجدد الأعياد ويجعل خيال المندائي مطلقاً، كما أنه سيد الطقوس»^(٣).

(٢) انظر ممدوح مفلح البكر ص ٩٦.

(٣) انظر نعيم عبد المهلهل ص ١٨-٢٠.

عدّ الصابئة الماء العنصر الأكثر أزلية في دورة الحياة، نظروا إليه بكثير من الوقار الذي يصل حدّ التقديس، وجعلوه أداة من أدوات إكمال مراسيم التقرب إلى الله، والاحتماء من كلّ خطيئة بصفاء الذهن ونقاء الروح وطهارة الجسد. ذكرت الدراسات الإنسانية بعض طقوس الماء عند الصابئة، كأن يشربوا الماء الصرف الصافي المقدّس ويستعملوه للرش والتطهير، ويعمّدوا المرأة في النهر بعد الأسبوع الرابع من ولادتها في طقس يرمز إلى ارتباط المرأة رمز الخصوبة بالماء رمز الحياة.

ومن طبيعة الأمور وبديهياتها أن يقترن الماء بالخصوبة، كما سبق وأشرنا، وأن يتماهى في ثقافات الشعوب وأساطيرها بالمرأة، رمز الخصوبة ومنبت الحياة فيها هي (ماريا)، ربّة النهر في الأساطير المكسيكية، تفيض على الرّوض حياة (...). وتزهى بروحها البساتين؛ فتنحني لها الأزهار عرفاناً بجميلها، وتوسلاً إليها أن تضمن لشعبها العزة والرخاء^(٤).

أمّا السومريون فقد جعلوا للماء ربّةً هي «الإلهة الينبوع» تبوّأت في حياتهم منزلة مرموقة، وأبدع لها الفنان السومري تمثلاً اكتُشف في مدينة ماري وحُفظ تحفة فنية في متاحف سورية الحضارة، أمانة في أعناق السوريين للأجيال القادمة، لا بل للبشرية جمعاء. جسّدوها امرأة ترتدي ثوباً طويلاً تزيّنه ثنيات متموجة كتموج الماء، وتمسك بيديها إناءً تتفجّر منه المياه، يرمز للحياة والخضب. قدّس السومريون إلهة الينبوع وطبعوا صورتها على أختامهم الأسطوانية.

* * *

(٤) أساطير المكسيك، ص ١٠٠.

وكما أن الماء أصل الحياة، كذلك بالماء تُبعث الحياة بعد الموت؛ فهذا هي (إنانا)، ربة المحبة والخصب في مدينة أوروك السومرية إحدى أوائل المراكز الحضارية في العالم وأكبر مدينة في العالم في الألف الرابع ق.م، هاهي تنزل إلى العالم السفلي لإنقاذ أخيها، ولا تعود للحياة إلا عندما يرشها أحد رسولي إله الحكمة بماء الحياة^(٥).

وبالماء يعمّ الرخاء؛ فقد قام إنكي، إله الينبوع، بجلب الماء إلى بلاد ديلمون، وجعل مياه الآبار المرّة عذبة حلوة المذاق، ورؤى الأرض المفلوحة بغزير مياهه، فنعمت البلاد بالسلام والرخاء.

أما المصريون القدماء فمجدوا نهر النيل كواحد من آلهتهم، معتقدين أنه نشأ من فيض دمع (إيزيس) و(أزوريس). أسموه الإله (حابي) وتمثله في صورة رجل امتلأت يده بالخيرات تحفّ به الأسماك والطيور والحيوانات والنباتات.

كما أنّ دموع (جلجامش) الباحث عن الخلود كانت قرباناً لـ(أوتو) إله الشمس في أوروك ليحبس شياطين الأنواء في كهوف الجبال حتى يعبر موكب الملك (جلجامش) إلى بلاد الأحياء الخالدين.

وأما اليونان، فقد جعلوا للبحر المتوسط والبحار عامةً إلهاً أسموه (بوسيدون) Poseidon، يقيم في قصر ذهبي في أعماق البحر، ويتجول على عربة تجرّها الجياد، يمسك بحربة مثلثة الرؤوس يتحكّم بضربة منها في العواصف والأمواج، ويثير الزلازل والبراكين، ويشقّ الصخور فيفجّر

(٥) انظر حكايا وأساطير من عالم الشرق القديم، ص ٢٧.

الينابيع ويُنبثُ الزرع. وقد شُيِّدت له المعابد على قمم المرتفعات الساحلية، وقدّمت له القرابين اتقاءً لشرّه واستدراراً لخيره^(٦).

لكن تقدّس الهندوس لنهر (الكنك) أو (الغانج) استمر منذ القدم وما زال حتى يومنا هذا. فجميع روافده مقدّسة، ونقطة التقائه بالنهر الكبير (جمنا) جُعِلَ محجّاً يقصده مئات آلاف المتعبّدين، يغتسلون بمياهه ليطهّروا بها أنفسهم ويغسلوا بها ذنوبهم. ولفرطِ تقدّسهم لمياه هذا النهر، حسبهم (الشهرستاني) «عباداً للماء» فقال في كتابه «المِللُ والنحل» واصفاً طقوس التطهّر عندهم: «وعبّاد الماء طائفة من الهند يسمون الجهلكية، يزعمون أن الماء ملكٌ ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة (...). فإذا أراد الرجل منهم عبادته، تجرّد وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم ساعتين أو أكثر ويأخذ من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقي في الماء بعضها بعد بعض وهو يسبح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقّط على رأسه ووجهه وسائر جسده، ثم يسجد وينصرف».

وكما لدى الهندوس، نجد لدى الإغريق أيضاً طقوس عبادة تُستهلُّ بالاستحمام في مياه البحر تطهّراً. ويوحنا المعمدان عمّد في مياه الأردن، والمسيحيون يعمّدون بالتغطيس في الماء أو بالسكب أو الرش، ويتطهّرون بالماء المقدّس قبل دخولهم بهو الكنيسة. والمسلم يتطهّر بسكب الماء، ويتوضّأ به تهيؤاً للصلاة.

* * *

(٦) انظر سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، «معجم الأساطير اليونانية»، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٢، ص. ١٨٤.

صلة الماء بالقداسة مغرقة إذن في القدم وتنتج جذورها من حضارات سادت ثم بادت، لكنّها ماثلة بمعتقداتها ومفاهيمها وعاداتها في الذاكرة الجمعية. الجانب اللغوي لهذا التجذّر شرحه الأستاذ الدكتور (محمد محقّل) في كتابه « دمشق الأسطورة والتاريخ » في معرض حديثه عن الصلة بين جذر (ق د س) وجذر (ق د ش) في العربية والكنعانية القديمة والوسطى، وفي الآرامية بلهجاتها المختلفة مع تبديل السين شيئاً وبالعكس. ففي الكنعانية والآرامية، بحسب الدكتور (محقّل)، « قُدَسَ » معناها « طَهَّرَ » و« تبارك »، ومنها القدس والقديس والقداسة والقُدوس (على وزن فعول) أو القُدوس (بضم الفاء) أي المبالغ في الطهر.

وكثيرة هي أسماء الأشياء والأماكن المشتقة من هذا الجذر والمرتبطة بمفهوم القداسة المتّصل غالباً بالماء. ومنها: القُدُس والقُدس أي القُدح الصغير؛ والقُدس أي السفينة الكبيرة؛ والقُدس وهو الحجر الذي يرمى في البئر ليُعلم هل ماؤها كثيرٌ أم قليل؛ والقادوس وهو إناء يُخرَجُ به الماء من السواقي والآبار، والقُداس حجر يُطرح في حوض الإبل يُقدّر عليه الماء الذي يقتسمونه بينهم.

كما نجد الجذر نفسه في كثير من أسماء الأماكن الواقعة كلّها عند مصدرٍ مائي أو على مجرى مائي، ما يسبغ عليها صفة القداسة:

فمدينة قُدسيّا، وتل قَادِش، ووادي قاديش أو الوادي المقدّس ونهر قاديشا، والقادسية، وفي إسبانية، كاديش Cadiz مدينة على المحيط الأطلسي أسسها الكنعانيون نحو ١١٠٠ ق.م... كلُّ هذا على سبيل المثال لا الحصر.

تحمل صورة الماء في ثقافة الشعوب تضاداً ظاهرياً يدفع بمدلولاتها إلى طرفي نقيض. ففي حين يظهر الماء رمزاً للحياة والطهر والتجدد، يتبدى أحياناً أخرى رمزاً للضياع والفناء، مجسداً مفهوميين متناقضين في آن معاً: الخير، والشر؛ والثواب والعقاب.

ففي حين يُثاب المستقيمون بماء غدق في الحياة الدنيا، وتجري الأنهار العذبة في جنات الخلد تُنبث فيها طيب الثمرات، يُعاقب الضالون على اعوجاجهم وغيهم بانحباس الغيث والقحط، ويؤخذون بطوفان جارف وموت محقق يأتي عليهم ويذهب بزرعهم وضرعهم.

هذا التضاد في الأدوار اختزلته الأسطورة البابلية إذ امتزج الماء الحلو بالماء المر فكان العالم السفلي. وفي الديانات السماوية علاقة التضاد واضحة في مفهوم الماء: فبالطوفان عقاب على الآثام، وبالماء الطاهر المقدس تطهر من الدنس. والمزاوجة في الماء بين الخير والشرّ شديدة الوضوح مفهوماً ولغة في حديث الإمام (علي) رضي الله عنه: «خيرُ بئرٍ في الأرض زمزم، وشرُّ بئرٍ في الأرض بَرّهوت»^(٧).

* * *

وتحفّل آداب الشعوب وذاكرتها بالأساطير والقصص والحكايات التي تتمحور حول الماء مصدر الإعجاب والرغبة في آن معاً، أساطير وقصص تراكت وهاجرت وتزاوجت لتنتج ثمرة يانعة لفكر إنساني متكامل، يغني كلُّ جزء فيه اللوحة الكبيرة ويكملها ويزيد في نضجها وروعها، ويتيح تفسير الكثير من الأفكار والمعتقدات والطقوس والعادات، بردها إلى

(٧) الشكر لأخي الدكتور ممدوح خسارة الذي أفادني بهذا القول.

أصولها ومنبتها. ففي الأساطير الكنعانية، كان (بعل) ذا رهبة وسطوة، فإذا غضب، ضرب الأرض بالطوفان، أو أنزل القحط فكان الهلاك. وأسوار مدينة أرواد تشهد على محاولة الكنعانيين درء خطر الطبيعة عنهم، لاسيما درء خطر «يم»، إله البحر، وأمواجه العاتية.

أما (جلجامش) السومري، فقد عبر الأنهار وقطع البحار المترامية إلى حيث تشرق الشمس، ليعمر ما خرّبه الطوفان.

ومن أساطير الشرق حول المياه ما يورده (التويري) في كتابه «نهاية الإرب في فنون الأدب» إذ يقول فيما يقول: «إن بأرض الهند مكاناً يعرف بعقبة عورك، فيه عين ماء لا تقبل نجساً ولا قدراً. فإن ألقى فيها شيء من ذلك، هبت الريح وكثر الرعد والمطر. فلا تزال كذلك إلى أن يخرج منها ما طرح فيها».



وكما ابتهل إنسان الحضارات القديمة لآلهته أن تغيثه بخيراتها، توّسل إليها أن تدرأ عنه غضبها، فهي مصدر الخير والجود حيناً، والغضب والبطش أحياناً، تضرب بالصواعق وتغرق بالطوفان. من هنا، كانت الصلة اللغوية وثيقة بين الماء والدموع، والمطر والبكاء، وهو أمر لا يقتصر على لغتنا العربية وحدها، ففي اللغات الأخرى أيضاً الكثير من الأسماء والصفات والأفعال التي تصلح للمطر والدمع على حدّ سواء. وفي الأساطير المكسيكية بحسب د. (أنور حاتم) في كتابه «أساطير المكسيك»، جعل (الاستيك) للمطر إلهاً أسموه (تالوك)، وكانوا كلما حجب المطر عنهم استدروا عطفه بتقديم أطفالهم قرابين له؛ فيتأثر الإله ويكي، فتتكاثف السحب ويتجمّع الغمام، وتجدد السماء بماء «يشفي العليل ويروي التربة العطشى».

ولعلّ في هذا أصلَ طقوس الاستسقاء التي نجدها عند شعوب الأرض كافة. فإذا انقطع المطر وأضرَم القحطُ النار في جوف الأرض فضربها الجذب، توجّه الإنسان إلى مُنزل المطر يستسقيه لِيُطفئ حرّ القلوب من معين السماء، ويغدق على الأرض من نَمير الرحمة.

ولصلاة الاستسقاء جذور في المناطق التي لا يتوفر فيها الماء بكثرة كبلاد الشام والجزيرة العربية وشمال إفريقيا، وقد وجدت نقوش في أوغاريت لإلهة ترفع يديها إلى السماء تطلب الماء، في حين لا يوجد مثل ذلك في العراق ومصر بسبب توفر المياه ووجود الأنهار.

ولم يَشِدَّ عربُ الجزيرة قبل الإسلام عن سواهم من شعوب الأرض في ممارسة طقس الاستمطار، فقد كان من عاداتهم أن يربطوا القش في أذنان البقر، ويضرموا النار فيه، ويطلقوها في الجبال. ويقول (البكر) في كتابه^(٨): «وكانت النار تلسعها (أي تلسع البقر) فتلوح بذبولها، فتصبح أشبه بالبرق الذي يلوح بين الغيوم، علّها تحرّض إله المطر كي يُرسل غيومه، ويضربها بسوطه الناري، فتُنزل مطراً».

وارتباط الماء بمعجزات الاستسقاء والاستشفاء يجد له صدى في الديانات السماوية، فهذا هو (موسى) عليه السلام يستسقي لقومه بني إسرائيل إذ تدمروا من قلة الماء، (فكلم بأمر الله الصخرة أخرجت لهم ماء ليشربوا). ويروى أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في دعاء الاستسقاء لغيثٍ مخصبٍ نافعٍ غير ضار، سُقيا رحمة لا سقيا عذاب.

* * *

(٨) انظر المرجع نفسه، ص ١٠١.

وكما في الحضارات القديمة، تبوأ الماء في الديانات السماوية الثلاث المكانة الرفيعة التي يستحق، فعدّ أحد أسرار الحياة، وهبة الله ونعمته، ووسيلة الإنسان للتطهر والاستشفاء والاحتماء، ورمز التجدد.

وتتجلى العلاقة التلازمية بين الماء والحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. الماء إذن أصل الحياة. وهذا ما أثبتته الدراسات الأحيائية. وقد لفت الزميل الدكتور (هاني رزق) نظري إلى أن الهواء، على أهميته، ليس بأهمية الماء. والدليل على ذلك وجود حياة بلا هواء ولا أكسجين حرّ، كما هو حال كائنات حية لا هوائية كالجراثيم، على حين أنه لا حياة بلا ماء.

تبوأ الماء في التنزيل الحكيم مكانة رفيعة، إذ وردت لفظة الماء وحدها تسعاً وخمسين مرة، كما وردت ومشتقاتها ما مجموعه ثلاثاً وستين مرة في أربع وأربعين سورة قرآنية. أمّا كلمة المطر ومشتقاتها فوردت خمس عشرة مرة.

واللغة العربية واحدة من أكثر اللغات التي رسّخت بفصاحة باللغة ذاك الرابط الوثيق بين الماء والحياة، بين السبب والنتيجة. فنجد الماء والخشب والحياة مختزلة في كلمة واحدة هي «الحيا» (بالألف الممدودة)؛ وفي الحديث الشريف: «جاءكم الحيا» (لسان العرب) ولفظة «الحيا» تشترك في جذرها مع «الحياة»، وفي لسان العرب، هي تعني: «ماء الغيم» و«الخصب» و«العشب النامي بعيد هذا الهطول»، أي إنّ سبب الحياة ونتيجتها اجتمع في لفظة واحدة. وكذلك الأمر في كلمة الغيث وهو اسم للمطر كلّ، ثم أصبح يدل على المطر والكلاً. ومن أسماء المطر ذات الدلالة المركبة أيضاً الرزق: لأن فيه الرزق وإحياء الأرض، والسماء وتعني المطر والسحاب

والعُشب في آن معاً. أمّا كلمة «الرحمة» التي هي من أسماء المطر، فتجمع في لفظ واحد بين الشيء وسببه، لأن المطر يُنزَل من السماء برحمة الله.

* * *

في لغات العرب مئات الألفاظ الدالة على الماء بحسب كميته وموقعه وصفاته: فالسَّحْل والسَّمِيل هو الماء القليل أو ما تبقى منه. والطَّعْم والغمر هو الماء الكثير، السَّيْع والسَّيْح والغَيْل: هو الماء الجاري على وجه الأرض، فإذا كان جارياً غزيراً عذباً كان مَعِيناً، وأمّا إذا كان قليلاً فهو الوجه والشول. والضَّحْل هو الماء القليل على الأرض لا عمق له. فإن كان قليلاً ليس له مدد فهو الثَّمْد. والقَشُّ ما جمَد من الماء على كلِّ شيء. فإذا نزل جامداً من السماء فهو بَرْد. والثَّعْب مسيل الماء في الوادي. والثَّغْب والثَّعْب: الماء المستنقع في حفرة، فإذا سال بين البئر والحوض فهو الغَرْب، وإذا اجتمع في الجبل فهو الوَجْد. وإذا تغلغل بين الأشجار فهو الغَلَل. والجَوَاز هو الماء الذي يُسْقاه الزرع. فإذا توضع تحت الرمل فهو الكَرّ والحِسي. والماء المالح هو المَاج، والصافي هو الرّوق.

كما حِفلت لغات العرب بالألفاظ الدالة على المطر بحسب مواسمه وأوقات هطوله، وشدّته وحجومه وسرعته وتواتره وتتابعه ومكان نزوله ومدة هطوله وأثره في الأرض.

فمن أسماء المطر عموماً:

الحيا والرّزق والغيث والقَطْرُ والقَسْم والودق، والصَّوْبُ والمَصْد والندى والسَّبَل والذَّهَابُ والرَّبَابُ والمُزَنَة (ومطرها أقوى من الرباب) - والسَّمَاءُ وفي القرآن الكريم: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١].

ومن أسماء المطر الشديد بأنواعه: الصَّيْبُ والصَّوْبُ والهَكُّ والوَدُقُ والغَفَّ والعَبَابُ والعَدْرُ والدَّجْنُ والغَدَقُ والجَوْدُ أي المطر الغزير الكثير العام في كل زمان وهو فوق مطر الدَّيْمَةِ وهو الذي يروي كل شيء. ومن أسماء المطر الكثير أيضاً الحِلْبَابُ، والهَفْنُ: وهو المطر الشديد، والشقيقة هي المطر الوابلُ المُتَسَعُ. أمَّا الفَتْحُ فهو المطر الواسع الغزير، فإذا كانت شدته مصحوبة بالصوت سُمِّيَ البُعَاقُ. والبَغْرُ هو الدفعة الشديدة من المطر، فإذا دام أياماً كان أثجماً، وإذا أقلع كان أنجم، وإذا دام وعظم فهو الهَضْبَةُ أو الأَهْضُوبَةُ، وإذا استرسل فهو المُرْتَعِنُ، وإذا تكرر فهو الرَّجْعُ. والمطر العام هو الجَدَا، والمتتابع هو الهَطْلُ والهَتْنُ (وعين هتون الدمع: أي عين تصب الدمع). والحديث المتدارك هو السَّبْطُ والسَّحُّ والحَتْفَلُ. والسريع انهلاله هو الهَفْتُ. فإذا كان لرعده صوت فهو الهزيم، وإذا كان غزيراً إذا صوت عال فهو الهَطِيفُ، وإذا كان شديد الانصباب جدًّا فهو مَثْجٌ وثَجَاجٌ وثَجِيجٌ. وإذا حصل منه السَّيْلُ فهو الأَتِيُّ. وإذا جاء بعد احتباسٍ فهو حَقَبٌ. والمَمَانِحُ هو المطر الذي لا ينقطع، فإذا دام مع سكون لا رعد فيه ولا برق أقلها ثلث النهار وثلث الليل فهو الدَّيْمَةُ. والمطر المتتابع هو الدُّرَّةُ أو الدَّرُّ والمِدْرَارُ. فإذا كان متتابعاً يفصل بين سكون أقله ساعة وأكثره يوم وليلة فهو الرِّثَانُ.

وللمطر الخفيف الضعيف عند العرب أسماء يصعب إحصاؤها، منها: الخَطْرَةُ والدَّسَّةُ، والمَعْرَةُ والفَرَّاشُ والهَمِيمَةُ والشجدة والشوَّبُوبُ والسبل البغش والبُعْشَةُ، والوَلَكُ والثَّرْدُ والرَّمْلُ والنَّحُّ والنَّضُّ والنَّضِيضَةُ والوَدُقُ والضَّرْبُ والخَشُّ والغَفَقُ والطَّشُّ والرَّشُّ والدَّثُّ والطلُّ والدثة والهدنة والرِّكُّ والرِّذَاذُ والقَطِيطُ وهو أصغر المطر.

وقد حاولت إيراد من الضعيف القليل إلى الأضعف الأصغر.
وأما الدهن فهو المطر الذي قَدُرَ ما يُبَلُّ الأرض، فإذا كان واسعاً في الأرض فهو الخِبْطَةُ، وإذا كان ضعيفاً دائماً لا رعد فيه فهو الرَّهْمُ والرَّهْمَةُ والرَّهْوُ.
كما أن العرب صنّفت المطر بحسب أزمته ومواسمه، فالأحداث أول أمطار السنة، والثَّرْوِي أول أمطار الموسم، والفتح أول المطر، والبدرِي: ما كان قبل الشتاء، فإذا نزل في أول الشتاء سُمِّي الرَّصْدُ والرَّصْدُ والرَّصْدَةُ، والبَسْر هو المطر أول ما ينزل من السحاب.
ومن أمطار الأزمنة الخريفُ والرَّبِيعُ والدَّفِئِي والصَّيْفُ. ومن أمطار الصيف إذا اشتدَّ الحرُّ الحَمِيمُ والرَّمْضُ.
إن هذا الاستعراض السريع لبعض أسماء وصفات الماء والمطر في العربية دليل إضافي على غنى هذه اللغة العظيمة ودقة ألفاظها، وتأكيد لأهمية العودة إلى هذا المكنز الهائل لإحياء ما يمكن أن يرفد المعجم العربي المعاصر من ألفاظ تراثية تستسيغها الذائقة، وصولاً إلى دقة العبارة وجمال البيان.

* * *

وبعد، فقد كان لا بد عند الحديث عن الماء وصلته اللصيقة بالثقافة أن نمتح من عمق جذور التاريخ الإنساني، المتشعبة الفروع، المتنوعة الألوان، وهدفنا أن نبرز وحدة الفكر الإنساني، وتشارك البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم عبر التاريخ في أفنان الأحاسيس والحاجات، فقد تغلغل الماء في الذاكرة الجمعية لشعوب الأرض، فقرب بينها في المفاهيم والمعتقدات والطقوس والعادات التي توارثتها، وتناقلتها، تثبتاً للتواصل الإنساني

والتكامل المعرفي، وقرينة على وحدة الفكر الإنساني وتكامله، فلا يحول دون هذا التكامل وتلك الوحدة أيّ انتماء عرقي أو ديني أو مذهبي، وأي تباعد زمني أو مكاني.

وإذا كان للماء تلك المكانة الرفيعة في حياة البشر وثقافة الشعوب، فالأولى أن نعدّه الثروة العظمى في حياتنا، فنحسن استثمار مصادره ونحافظ عليه من الهدر والتلوّث محافظتنا على وجودنا وأوطاننا، عملاً بالقول المأثور: «لا تسرف في الماء ولو كنت على نهرٍ جارٍ».

* * *

المصادر والمراجع

- أساطير مكسيكية، أنور حاتم، سلسلة الأدب الغربي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة أطلس، دمشق ١٩٦٢.
- حكايا وأساطير من عالم الشرق القديم، هايتز كرايسيك، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣.
- دمشق الأسطورة والتاريخ، محمد محفل، مطبوعات دمشق عاصمة الثقافة، دمشق ٢٠٠٩.
- الروح الأخضر، محمود مفلح البكر، دار الحضارة الجديدة، بيروت ١٩٩٢.
- الماء وما ورد في شربه من الآداب، محمد شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، جمادى الآخرة ١٤٠٥ للهجرة، الموافق آذار ١٩٨٥.

- معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب، ممدوح خسارة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٧.
 - مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٨٠.
 - المندائية، العراق بردانه البيض، نعيم عبد مهلهل، منشورات بغداد عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، ٢٠١٣.
- فهرس المصادر: المواقع الإلكترونية:
صلاح مهدي جابر، «معجم ألفاظ المطر».

[http://www.ahlulbaitonline.com/karbala/New/html/research/research.](http://www.ahlulbaitonline.com/karbala/New/html/research/research.php?ID=105#sthash.APtz5IZP.dpuf)

[php?ID=105#sthash.APtz5IZP.dpuf](http://www.ahlulbaitonline.com/karbala/New/html/research/research.php?ID=105#sthash.APtz5IZP.dpuf)

حوار لغوي حول التسمية العربية النباتية المتداولة والتسمية العلمية النباتية العالمية

أ. د. أنور الخطيب(*)

نورد فيما يلي كلمة حول حوار لغوي دار بين الأب (أنستاس ماري الكرملي) والأمير مصطفى الشهابي في مقالة وردت في المجلد الحادي والعشرين، الجزأين الخامس والسادس ص ٢٧٩ - ٢٨٣ لعام ١٩٤٦ من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، تحت عنوان: الفريونة.

١- بدء القصة:

بدأت قصة الفريونة بتوطئة ذكر الكرملي فيها غرابة الصيغة واستنجد بكتابتها بأحرف أجنبية Frewinneh... وبرع في تهجئة التسمية بالعربية بقوله بضم الفاء والعامّة تسكنها... و... إلى آخر التهجئة، وذكر أن أحداً لم يستطع ربط هذه التسمية بالتسميات العلمية المعاصرة.

٢- البحث عن أصل التسمية:

بحث الكرملي، في القسم الثاني من مقالته عن أصل تسمية فريونة سائلاً الفضلاء والبصراء باللغات السامية والحامية فلم يهتد أحد إلى تعيين مصدر التسمية إلا الدكتور الجلبي، الموصلي الولادة والنشأة، الذي زوده

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٤٥ بكتاب بيّن فيه أن تسمية فريونة منسوبة إلى ألياف ناعمة حريرية كأنها شعر فروة^(١) فصارت فُريوة. ثم كُسعت الفريونة بألف ونون للنسب، وألحقت بها تاء التأنيث فصارت فريوانة. ثم حُرّفت ولفظت فريونة بتشديد النون فكان حذف الألف حسب المخطط التالي:

فروة ← فُريوة ← فريوانة ← فريونة.

ثم بين الدكتور الجلبي أن التسمية العلمية للفريونة هي (مُسكاري الأشعر *Muscari comosum*) من فصيلة الزنبق (ليلياسيه *Liliaceae*). قال الأب أنستاس ماري الكرمللي: إن رأي الدكتور الجلبي أن الفريونة هي (المُسكاري كوموزوم *Muscari comosum*) هو الصواب، وأما ما ورد في معجم أحمد عيسى، حول (المُسكاري كوموزوم) فيشمل عدة مترادفات هي: «بصل الزيز» [أي بزايين] - حلحل ج: حلحل - بصل القيء - بصل المسك - بصيل - الزيز [بزايين] (عربية) - زوزا (سريانية) - مدّاد أقرع - ثومة الرعيان - بصل فرق - بصيلة (سورية). انتهى ما نقل عن أحمد عيسى.

وفي هذا كله من الخلط والخط، ما لا يحتاج إلى بيان، لظهوره لكل ذي عينين. أما أن (مُسكاري كوموزوم *Muscari comosum*) هي الفريونة نفسها فلا ينكر البتة؛ لأن الكلمة العلمية اللاتينية تعني الحلحل^(٢) الأشعر أو الشَّعِر (ككتف)، لا الحلحل الأزب^(٣) (بتشديد الباء) كما قال الأمير مصطفى الشهابي، لأن الأزب معناه الكثير شعر الوجه أما *comosum* فمعناه

(١) لا تحوي البصلة أليافاً دقيقة حريرية.

(٢) حلحل تسمية وردت في مفردات ابن البيطار.

(٣) وهنا أدخلنا الكرمللي في نقاش لغوي في التفريق بين مفهوم الأشعر والأزب، وهو نقاش لن يسكت عنه الأمير مصطفى الشهابي.

الشَّعْر أو الأشعر، أي الكثير الشعر، ومعناه أيضاً المَجَمَّ أي ذو الجمة وهي مجتمع شعر الرأس. وقد ذكر الدكتور الجليبي أن (الفيونية) معناها ذات الفروة، والمراد بالفروة هنا^(٤) جلدة الرأس بشعرها، لأن على رأس زهرتها (والصواب رأس نورتها) ما يشبه الشعر أو الفروة المذكورة.

«الفيونية وبلغة العلم Muscari comosum وبالفرنسية Muscari chevelu وهو أيضاً الحلحل الأشعر أو الشعر (ككتف)، ثم الحلحل الممسك^(٥) M.racemosum معروفان في فرنسة ويرغب الناس في أن يكونا في جنائهم للزينة، ولا سيما أن بعض ضروبهما تجهض فيها الأسدية في جميع أزهار النبات الواحد، فتجيء عناقيدها شعرة جميلة جداً».

٣- الخلاصة التي قدمها الكرملبي:

حلّ لنا الدكتور داود الجليبي أعظم مشكل من مشاكل نبات العراق. فقد حاول كثيرون وضع المقابل عند الإفرنج لكلمة (الفيونية) المشهورة على لسان كل صبي موصلبي، فلم يهتدوا إليها. وأما الدكتور الجليبي فقد أفادنا بأنها المسماة بلسان العلماء Muscari comosum فنشكره على ما عاناه من النَّصَب، إذ قضى ثلاثة أيام بلياليها - على ما كتبه إلينا حضرته - وهذا ما يعترف بفضل كل أديب، عربيًّا كان أو غربيًّا.

٤- تعقيب الشهابي:

ما إن اطلع الشهابي على ملاحظة الكرملبي حتى تقدم على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي بالتعقيب التالي:

(٤) تغير مكان الشعر من البصلة إلى رأس النورة!..

(٥) الصواب العنقودي.

«أطلقت في معجم الألفاظ الزراعية على جنس النبات المسمى Muscari كلمتي حلحل وبصل الزيز^(٦). وذكرت في الشرح أن هاتين الكلمتين وردتا في مفردات ابن البيطار، وأني لم أجدهما في الأمهات من كتب اللغة. ووضعت أمام النوع المسمى بالفرنسية M. chevelu وبلسان العلم M.comosum كلمة حلحل، أي إنني ترجمت chevelu بالأزب، فإذا بالأب انستاس ماري الكرمليني ينكر علي هذه الترجمة في مقال له في هذا العدد من المجلة عنوانه (الفيونية) مدعياً أن الأزب معناه الكثير شعر الوجه، وأن الترجمة الصحيحة هي الأشعر والشعر. قلت لقد وهَمَ الأب المحترم في حصره معنى الأزب بالكثير شعر الوجه. ولو راجع المعاجم لوجد في التاج مثلاً أن الزَّب في الناس كثرة الشعر وطوله، وفي الإبل كثرة شعر الوجه والعيون، وأن الزبب مصدر الأزب وهو كثرة شعر الذراعين والحاجبين والعينين، وأنه يقال امرأة زَبَاء أي كثيرة شعر الحاجبين والذراعين واليدين، وأذن زباء كثيرة الشعر، ومن المجاز داهية زباء كما قالوا شعراء... إلخ ولو راجع الأساس لوجد أن الزبب تطلق على كثرة الشعر في الجسد، وأنه من المجاز قولهم «عام أزب أي خصيب» قلت ومن بدائه الأمور أن هذا الاستعمال مرده إلى وفرة الكلال في العام الخصيب.

(٦) رحم الله الشهابي ونحن نقدر إخلاصه للعربية والعروبة. وهو القائل: أم اللغات قضيت العمر أخدمها، فهي الشفيعية في غفران زلاتي. إنها زلة من زلات التسمية وقع فيها بطل من أبطال اللغة العربية. فهل حلحل وبصل الزيز أكثر فصاحة من كلمة مسكاري المستمدة من العربية مسك الريم. وهل التسميات التي أوردها ابن البيطار وغيره من عَشَائِي العرب أكثر فصاحة من عينات نباتية مجموعة من أماكن محددة ومحفوظة في متاحف عالمية مُعَرَّفة: اسم واضح التسمية، وشارح صفة المسمى!. هل كل هذه الوثائق الدامغة تُطوى لتحل محلها تسمية خالية من العلم والفصاحة مثل حلحل وبصل الزيز إكراماً لعروبتها المهزوزة. لقد وُضع للتسميات العلمية النباتية ضوابط وقوانين تمنع اللبس والخلط بين تسمية وأخرى.

ويتضح من ذلك أن الأزب تُطلق على الكثير الشعر أياً كان، وأنها تستعمل مجازاً، وأن استعمالها ترجمة لكلمة Chevelu أمر لا غبار عليه، وأنه لا يجوز قصر معاني الألفاظ على الأمثلة التي ترد في المعاجم، وذكر هذه الأمثلة فيها لا يفيد الحصر، وهو شيء معروف، ولهذا استعملت في معجمي الأزب والأشعر والشعر والوبر للإنسان والحيوان والنبات على السواء.

٥- خلاصة المقال والتعقيب عليه:

- ١- أقدم الكرمل بالثناء على الطيب النطاسي - وأحد علمائنا الأعلام الدكتور داود الجلي الموصلي الولادة والنشأة.
- ٢- أكد دعمه لرأي الدكتور الجلي.
- ٣- رفض كلمة تسمية بصل القيء المأخوذ من معجم أحمد عيسى، مع أن بصل هذا النبات سامٌ قد يُحدث التقيؤ.
- ٤- عاب على أحمد عيسى إعطاءه عدة مرادفات للتسمية العلمية مُسكاري كوموزوم الممثلة بالأسماء التالية: ١- حلحل جمع حلاحل. ٢- بصل القيء. ٣- بصل بري. ٤- بصل المسك. ٥- بصل الزيز [بزايين] (عربية). ٦- زوزا (سريانية). ٧- مداد أقرع. ٨- ثومة الرعيان. ٩- بصل قرق. ١٠- بصلة.
- ٥- كشف الخلط والخبط في معجم أحمد عيسى الذي لا يحتاج إلى بيان.
- ٦- انتقد على الأمير مصطفى الشهابي استعماله تسمية الحلحل الأزب (بتشديد الباء).

٧- وصف الكرمل نبات بصلة الفريونة بأنها ذات طاقات (والصواب امصوخت)، خارجها قشر أحمر يليه ألياف دقيقة، ناعمة، حريرية

كأنها شعر فروة، ومن هنا اسمها عند أهل الموصل... وغاص على بحث لغوي لا فائدة من الحوار فيه.

٨- فسر معنى الفريونة بذات الفروة والمراد بالفروة هنا جلدة الرأس بشعرها لأن على رأس زهرتها^(٧) ما يشبه الشعر أو الفروة. ولكنه في مطلع مقاله نسب الفريونة إلى صفة شعر في البصلة وهذا غير صحيح.

٩- تُرجم النوع مُسْكَاري M.racemoum بالحلحل الممسك، والصواب المُسْكَاري العنقودي أحد أشكال النورات غير المَحْدودة النمو، حيث تُحمل الأزهار على أعناق متساوية الطول تخرج على محور مشترك يدعى عنقود grappe.

١٠- عَقَّب الأمير الشهابي مدافعاً عن سلامة استعماله كلمة حلحل أزب.

١١- طعن الشهابي برأي الكرمللي في استعمال كلمة أزب وبيقى هذا الحوار محفوظاً في الفكر العربي دون معرفة ما هو الاسم الصح لنوع محسوس اسمه مُسْكَاري كوموزوم.

السؤال الذي يطرح نفسه على العلوم النباتية وعلى المجمع اللغوية هو: هل علماء اللغة العربية واتحاد مجامعها هم أصحاب الحق في إثبات تسمية علمية أو إلغائها معتمدين على حوارات كلامية بعيدة عن شرح الموضوع المدروس!؟.

من الذي يُفسر طلع القرآن الكريم بنبات الأكاسيا أو الموز Musa؟ من الذي يفسر الفوم بالقمح أو الثوم؟ من الذي يفرق بين الثمرة والبذرة والحبّة؟ وهل الخردلة حبة كما جاء في القرآن الكريم أم ثمرة كما جاء في معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي؟...

(٧) الصواب: نورتها عنقودية.

إن مثال الفريونية يتطلب منا إعادة النظر في التسميات النباتية التراثية المتناقلة وربطها بالمناهج العلمية الحديثة. كما يطلب منا ترسيخ قواعد التسميات العلمية الثنائية في اللغة العربية. وفيما يلي نعرض وجهة نظرنا في التسمية العلمية للفريونية، معالجين الفقرات التالية:

٦- التسمية العلمية لجنس نبات المُسْكَاري Muscari:

المُسْكَاري Muscari تسمية عربية تركية أدخلها عام ١٥٨٣ إلى هولندا عالم النبات الهولندي (شارل دو ليكلود) Charles de L'Ecluse (1526-1609) المسمى باللاتينية (كارلوس كلوزيوس) Carolus Clusius طبيب نباتي هولندي شغل في نهاية حياته منصب أستاذ في جامعة ليد Leyde. وهو الذي نسبت إلى اسمه الأنواع التالية (ستيرنبرجيه كلوزيه Sternbergia clusiana) من فصيلة النرجس (أماريليداسيه) ونفل كلوزي (تريفوليوم كلوزي Trifolium clusi) من فصيلة الفول (فاباسيه Fabaceae) تقديراً وتكريماً.

٧- تَحْوُلُ التسمية العربية إلى تسمية لاتينية^(٨):

كانت هولندا تستورد أبصال هذا النبات من إستانبول تحت اسم (مسكاريمي) Muscurimi أو Muschorimi إشارة إلى الاعتقاد بأنه مسك الروم. وبعد دراسة تاريخ الكلمة وجد أن التسمية التركية مستمدة من العربية والعربية مستمدة من اليونانية واللاتينية والفارسية والسنسكريتية التي تعني خُصِي الرِيم Moschos moschier إشارة إلى شكل أبصال هذا النبات.

(٨) مصطفى نعمة: المعجم الاشتقاقي لنباتات لبنان-مكتبة لبنان ناشرون ٢٠٠٠ ص

٨- الوصف التصنيفي للجنس مُسْكَارِي (ل.) ميلر (L.) Muscari (٩):

جميع الأوراق قاعدية، قليلة العدد، سنانية أو سهمية خطية. الساق منتصب، صلبة، بسيطة، منتهية بعنقود أزهار متفاوتة الانحناء. الكُْمُ قربي الشكل (له شكل قربة urcéole) أو أنبوبي أو شبه كروي، منقبض الحنجرة. البتلات أو الفصوص شديدة القصر. الأزهار العلوية في غالبيتها عقيمة. الأُسدية (٦) مرتكزة على الأنبوب في مستوى أو مستويين، ضُمِّيَّة، قصيرة الخيوط عادة، المآبر بيضية، المبيض ثلاثي المساكن، القلم قصير ثلاثي المياسم. التوزيع الجغرافي: أوربي وحول متوسطي: عدد الأنواع قرابة (٥٠) نوعاً عدد الأنواع السورية (٩) أنواع.

٩- وصف النوع مسك الريم الأشعر (مُسْكَارِي كوهوزم)

Hyacinthus comosus L. *M.comosum* (L.) Mill.

نبات معمر البصلة من (٢-٤) سم، القميص أسمر. الأوراق سنانية، يصل عرضها أحياناً إلى (٢٢) مم، مسننة الهامش المهذب. الساق من (٣٠-٧٠) سم. النورة عنقود مهلهل طوله (١٠-٣٠) سم. الأزهار العقيمة كثيرة، متقاربة، طويلة المعاليق بالنسبة إلى الأزهار الخصبة، لونها أزرق باهت. الأزهار الخصبة متفاوتة طول المعالق الذي يكون في بعض الحالات شديد القصر لا يتجاوز (١) سم. الثمرة علبة (كبسولة) مقلوبة الطول، طولها يساوي عرضها مستديرة وغير مُقَوَّرة القمة. الإزهار: من آذار إلى حزيران. البيئة: الحقول - والأجَمَات والمراعي. التوزيع الجغرافي: أوربة - حول المتوسط - سورية والعراق.

(٩) مترجم عن بول موتيرد: أفلورة جديدة لبنانية سورية - المجلد الأول ص ٢٥٢-٢٥٤ باللغة الفرنسية.

١٠- نخلص من الحوار اللغوي الذي دار على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي بين الكرملبي والشهابي إلى كشف المعضلات الفكرية والعلمية التالية:

أ- معضلة عدم الفصل بين التسميات المتناقلة اللغوية والتسميات العلمية العالمية.

ب- معضلة الخلط والخبط في التسمية العربية التي قدمها معجم أحمد عيسى الذي لا يحتاج إلى بيان.

ت- معضلة ترجمة أسماء الأعلام النباتية أم تعريبها؛ أي نطق أسمائها الأعجمية وفق قواعد اللغة العربية. إن التسمية المعربة مُسْكَاري كوموزم هي اسم علم فكيف تترجم بالحللح الأشر تارة، وبالحلل الأزب تارة أخرى.

ث- معضلة عدم وضوح استعمال الكاسعات العلمية الخاصة: بالفصيلة والرتبة والصف والشعبة فالتسمية العربية مختومة بالياء والهاء في حالة الوحدات الصغرى وألف وياء في حالة الوحدات الكبرى وهكذا نقول الفصيلة الوردية Rosaceae ورتبة الورديات Rosales.

ج- معضلة التمييز بين مفهوم النوع لغويًا وعلميًا.

ح- معضلة وجود هُوة كبيرة بين التسميات اللغوية المتناقلة التي تعتمد على معاجم اللغة العربية والتسميات التي تطرحها الطرائق العلمية الحديثة.

والتي سنشرحها فيما يلي:

أ- شرح معضلة عدم الفصل بين التسميات المتناقلة والتسميات العلمية العالمية.

فالتسمية اللغوية المتناقلة في جميع لغات العالم تتميز بالصفات التالية:

(١) تختلف باختلاف اللغات، كما تختلف في ذات اللغة من موقع لآخر؛ ففي بعض المناطق يسمى البطيخ الأخضر: بطيخ أحمر - رقى - جس...

(٢) غير مرتبطة بالمراتب التصنيفية فهي لا تميز بين الجنس والنوع والعرق والضرب...

(٣) وجود عدد من التسميات للوحدة التصنيفية ذاتها، مثل قولنا لفصيلة الكرفس والبقدونس: الفصيلة الختمية - الفصيلة المظلية - الفصيلة الصوانية....

(٤) عدم تحديد مرتبة الأسماء اللغوية الدارجة فالأبنوس يطلق على أنواع نباتية مختلفة.

أما التسمية العلمية للأصناف النباتية والحيوانية فتتميز بالصفات التالية:

- (١) موحدة في جميع أنحاء العالم.
- (٢) موحدة اللغة الممثلة باللغة اللاتينية الحديثة.
- (٣) تعتمد التسمية الثنائية اسم الجنس الأول واسم النوع الثاني.
- (٤) تُلحق التسمية النباتية باسم واضح التسمية.
- (٥) كما تلحق التسمية الثنائية باسم مُعدّل التسمية أو الواضع بدلاً عنها^(١٠).

(١٠) لينوس هو أول من سمى مسكاري كوموزوم باسم هليانتوس كوموزوس Hyacinthus =

٦) تخضع قوانين التسمية العلمية لمراجعات دورية معتمدة مبدأً الأسبقية.

٧) ترفق التسمية العلمية بعينة معشبية تمثل الأنماط التالية:

أ- النمط الكامل (هولوتيب Holotype) يمثل العينة الأصلية التي اعتمدها الباحث في نشر تسميته.

ب- النمط المماثل (إيزوتيب Isotype) يمثل عينة مكررة عن الطراز الكامل (هولوتيب).

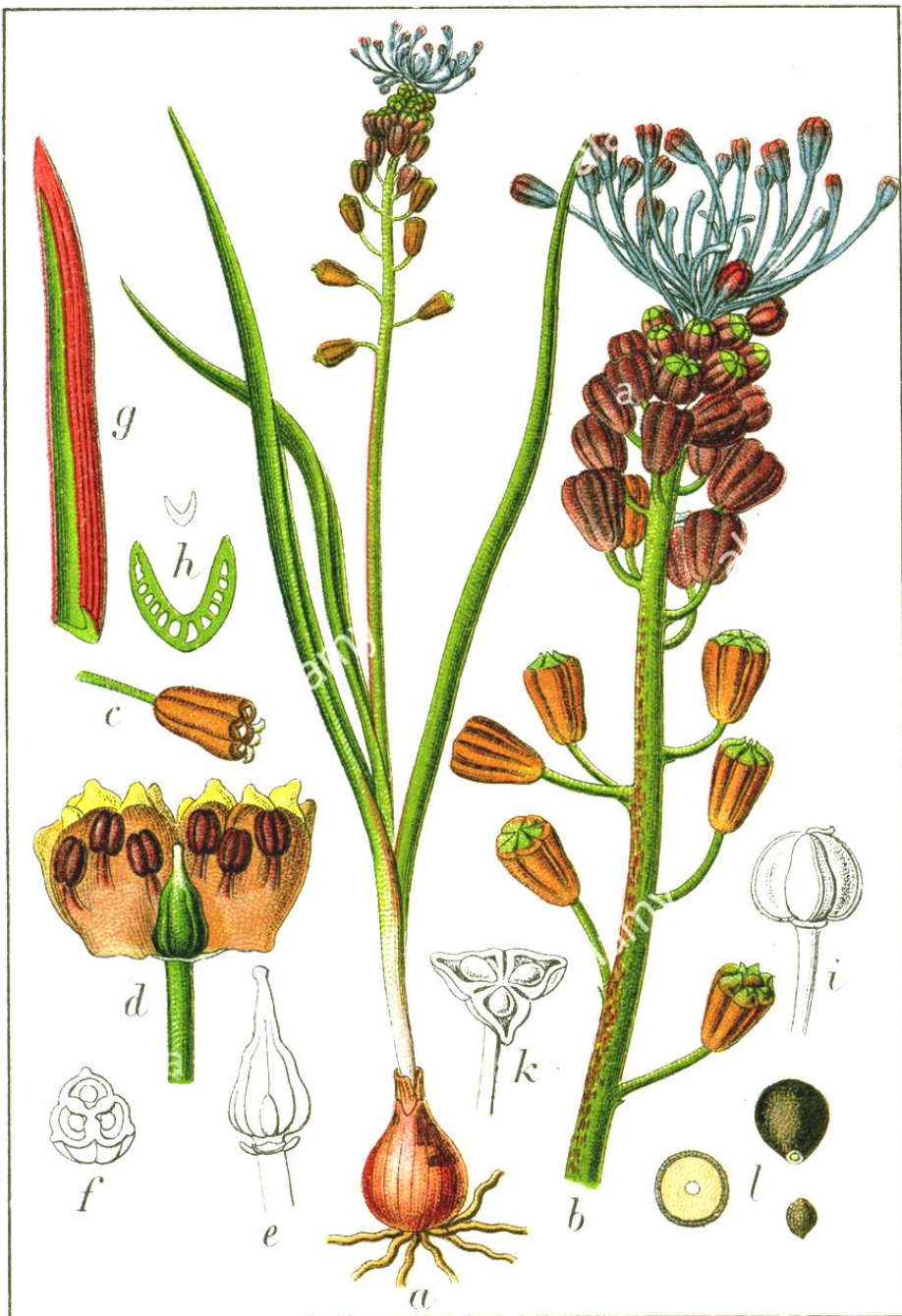
ت- النمط البياني (ليكتوتيب Lectotype) عينة اختارها باحث كفاء .

ث- النمط الجديد (نيوتيب Neotype) عينة جديدة توضع محل عينة فسدت أو تخربت مع الزمن.

■ أما معالجة بقية المعضلات فتركها لمقالات أخرى.

* * *

= L. comosus. وعدّل التسمية ميلر وجعل النبات في جنس مسكاري وسماه مُسكاري كوموزوم (L.) Mill Muscari comosum. وقد عدّل بارل هذه التسمية حديثاً فأصبحت: ليوبولديا كوموزا (L.) Parl Leopoldia comosa.



أبناءُ جمعيةٍ وثقافيةٍ

من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب^(*)

(٧٨)

أحاطه

«أحاطه علماً بالمسألة»

١- المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة: «أحطته علماً بالمسألة»، لأن معنى «أحاط بالشيء علماً هو أدركه من جميع نواحيه، أو أدرك أقصاه»، والصواب عندهم أن يقال: «أخبرته أو أعلمته بالمسألة».

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «أحطته علماً بالمسألة» بمعنى أعلمته بها أو أخبرته.

٣- التعليل: أ- جاء في المعاجم:

- اللسان: «أحاط بالشيء: بلغ علمه أقصاه... أحاط بالأمر إذا أحدق به من جميع جهاته».
- الوسيط: «أحاط القوم بالبلد: أحدقوا به، وأحاطه: حفظه وتعهده، وأحاط بالأمر: أدركه من جميع نواحيه».

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

وواضح من هذا أن الفعل (أحاط به) جاء بمعنى أحدق به من جميع جهاته وبمعنى (أحدق) فقط كما في الوسيط.

ب- في كتب التراث:

جاء في شعر صريع الغواني كما في الأمالي للقالبي ص ٣٥٥:

وإن كان ذنبي قد أحاط بحرمتي فأحط بذنبي عفوك المأمولا
أي لا يشترط في (الإحاطة) الإدراك من جميع النواحي، بل قد تكون
بمعنى (الإحداق بالشيء)، والمحيط يعني أيضاً (المُحدِّق بالشيء) دون تضمُّن
معنى الإدراك التام. فقولهم: «أحطته علماً بالمسألة» يخرج على معنى (جعلت
العلم بهذه المسألة في محيط علمه وإطاره) وهو المراد على ما نظن.

ج- في الاستئناس:

أقرأها مجمع القاهرة بعبارة: «أحطته علماً بقصتي» الألفاظ والأساليب ٨٧/١.

العضود. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «أحطته علماً بالمسألة» بمعنى أعلمته بها أو أخبرته،
والأولى أن يقال: أعلمتُك وأخبرتُك.

* * *

(٧٩)

أحالَ على، وأحالَ إلى

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال قولهم: «أحالَ إلى» ويخطئه بعضهم ويرى أن
الصواب: أحالَ على.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «أحال على وأحال إلى».

٣- التعليل:

جاء في المعاجم (تاج العروس والمصباح المنير): أحال الشيء: أتى عليه حولٌ كامل، وأحال فلانٌ بالمكان: أقام حولاً. وأحال على الشيء: أقبل. وأحال الذئبُ على فلان: حمل عليه فقتله وأكله. وأحال فلان بالدين على فلان: أتبعه به على غريم ليأخذه.

وفي المعجم الكبير: «أحال العمل إلى فلان: ناطه به، وأحال القاضي القضية إلى محكمة أخرى أي نقلها إليها، وأحلت الأمر على زيد أي جعلته مقصوراً عليه مطلوباً به.

ومن هنا نجد صلة وثيقة من حيث المعنى العام، وهو نقل التبعه من جهة إلى أخرى في أحال عليه، وأحال إليه.

العضو د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «أحال على وأحال إلى».

* * *

(٨٠)

الإخراج والمُخرج

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال قولهم: «أخرج المسرحية، فهو مُخرج». علماً أنها لم ترد في المعاجم القديمة بهذا المعنى.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «أخرج المسرحية أو التمثيلية أو الرواية أو المسلسل، فهو مُخْرَجٌ».

٣- التعليل:

جاء في المعجم الوسيط: «أخرج الشيء: أبرزه. والرواية أو المسرحية: أظهرها بالوسائل الفنية على المسرح، أو الشاشة، فهو مُخْرَجٌ». ومن المسموع: مساعد مخرج، ومخرج مساعد، ومخرج منقذ، ومخرج إذاعي، ومخرج تلفزيوني (تلفازي)، ومخرج مسرحي، ومخرج سينمائي.

وفي المصطلحات العلمية والفنية (١/ ١٩٤): «الإخراج: النقل للخارج، ومنه: الإخراج من المُلْك العام».

وجاء في المعجم الأدبي (ص ٢٤٨، عام ١٩٧٩): «والمتفق عليه أن النص هو الأساس في كل عمل مسرحي، وأن المخرج الموهوب قادر على أن ينفخ فيه الحياة، ويغنيه بالإحياءات المرافقة». العضو د. عبد الإله نبهان

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «أخرج المسرحية أو التمثيلية أو الرواية أو المسلسل، فهو مُخْرَجٌ».

* * *

(٨١)

أَخْصَائِي وَإِخْصَائِي مُخْتَصِّصٌ وَمُتَخَصِّصٌ وَإِخْتِصَاصِي

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر قولهم: «الأخصائي» و«الإخصائي»، ويخطئها بعضهم، لأن لهما في المعاجم دلالة مغايرة.

٢- الاقتراح:

عدم جواز قولهم: «الأخصائي» و«الإخصائي»، والصواب (مختص) و(اختصاصي).

٣- التعليل:

مما شاعت كتابته على لوحات الأطباء على نحو خاص كلمتا: (أخصائي) و(إخصائي)، مع أنه لم يرد الفعل (أخصى) بهذا المعنى في المعجمات، باستثناء ما ذكره الصغاني في (التكملة) «أن (أخصى) معناها تعلّم علماً واحداً». وعن الصغاني نقل صاحب (متن اللغة)، وذكر أن المعنى مجازي، وما ندري ما وجه المجاز؟ والحقيقة، كما قال الأستاذ سعيد الأفغاني في مقالة بعنوان «حياة كلمة»/مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ٧٤ عام ١٩٩٣، «أنه أراد- أي الصغاني- الاستدراك على الجوهرى ما فاته في كتابه العظيم (تاج اللغة وصحاح العربية) المشهور اختصاراً ب(الصحاح)، فألف الصغاني في ذلك كتابه (التكملة والذيل والصلة)، وفي هذا الكتاب أثبت الكلمات الست كما نقلها من (القاموس المحيط): «أخصى الرجل إذا تعلّم علماً واحداً»، فعلمنا أنه أول من أخطأ فوضع هذه الكلمات في غير موضعها الطبيعي، وأن موضعها الطبيعي (خصّ) لا (أخصى)».

والذي نراه أن نجح إلى الاختصاص والتخصص فنقول: «هو مختصّ»، و«هو متخصصّ»، و«اختصّ بعلم الفيزياء وفيه»، و«تخصّص له وبه» إذا انفرد، فإذا أردنا النسبة نسبناه إلى المصدر فقلنا: «اختصاصي».

هذا وقد أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة استعمال (الأخصائي) و(الإخصائي)، معتمداً ما انفرد به الصغاني ونقله عنه (القاموس المحيط) في (الإخصائي)، وناسباً كلمة (الأخصائي) إلى الأخصاء جمع خصيص بمعنى مخصوص.

العضود. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

عدم جواز استعمال (الأخصائي) و(الإخصائي) والصواب (مختص) و(اختصاصي) و(متخصّص).

* * *

(٨٢)

اختصم
«اختصم فلان فلاناً»

١- المسألة:

يشيع في الأوساط القضائية في بعض البلاد العربية عبارة: «اختصم فلان فلاناً»، بمعنى خصمه أو اتخذه خصماً. ويخطئ بعضهم هذا الاستعمال لأن (اختصم) فعل لازم.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «اختصم فلان فلاناً»، وإن كان الأولى أن يقال: «خاصم فلان فلاناً».

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «اختصم القوم وتخاصموا».

- الوسيط: «اختصم القوم: خاصم بعضهم بعضاً، وتخاصموا: اختصموا».

- المعجم الكبير: «واختصم فلان فلاناً: اتخذه خصماً».

ب- في الصرف:

يمكن التماس تسويغ لهذه الصيغة بأن بناء افتعل من معانيه الاتخاذ نحو: اخدم: اتخذ خادماً، وامتطاه: اتخذه مطيةً، واشتوى القوم اللحم:

اتخذوه شِواء. وعليه قول سيبويه في الكتاب ٢/ ٢٤٢: «وأما اصطَبَّ الماء فبمنزلة اشتوى».

ج- في الاستئناس:

أقر هذه الكلمة مجمع القاهرة- الألفاظ والأساليب ٣/ ٢٨٣. ولذا أخذ بها المعجم الكبير. العضو د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «اختصم فلان فلاناً» بمعنى اتخذَه خصماً، والأولى أن يقال: «خاصم فلان فلاناً».

* * *

(٨٣)

أَخْطَرَ وَإِخْطَار

١- المسألة:

يخطئ بعضهم استعمال كلمة (أَخْطَرَه) بمعنى أَعْلَمَه، وكلمة (الإِخْطَار) بمعنى الإعلام والتبليغ، لأن ليس لهما هذه الدلالة في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (إِخْطَار) بمعنى إعلام أو تبليغ، و(أَخْطَرَه) بمعنى أَعْلَمَه أو أَبْلَغَه.

٣- التعليل: جاء في المعاجم:

- اللسان: «خطر بباله يخطر ويخطر خُطوراً، إذا ذكره بعد نسيان.

والخطير: الوعيد.. وأخطر الله بباله أمر كذا».

- الوسيط: «خطر بباله وفيه وعليه خَطراً وخطوراً: وقع

فيه.. وأخطره بباله وعليه وفيه: جعله يخطر.. الخاطر: ما يخطر

بالقلب من أمر أو رأي أو معنى».

ويفهم مما سبق أن أخطرَ تعني ذكّر أو أذكّر، وتعني جعل الأمر يقع في القلب، فالإخطار يعني التذكير وإيقاع الأمر في البال، ويكون ذلك بالإعلام والتبليغ وجعل الإنسان يذكره.

العضو د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «إخطار» بمعنى إعلام وتبليغ لا بمعنى إنذار.

* * *

(٨٤)

اختلى به

١- المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة: «اختلى به»، والصواب عندهم: «خلا به»، لأن المعاجم لم تورد الفعل (اختلى) لهذه الدلالة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «اختلى به» بمعنى انفراد به.

٣- التعليل:

- ذكر صاحب اللسان ومقاييس اللغة وسواهما أن الأصل اللغوي لمادة (خلا) يدل على الانفراد، يقال: «خلا بنفسه» و«خلا به» بمعنى انفراد.

في المعجم الوسيط: «دخل بالعروس: اختلى بها».

استعملت العرب بعض صيغ الزيادة من هذا الأصل بالمعنى نفسه،

يقال: أخلى به أي انفراد، واستخلى به كذلك.

كثيراً ما يأتي افتعل بمعنى فعل نحو: «ارتقى السلم ورقياً»، واشتدَّ

وشدَّ، واقتدرَ وقدرَ.

ومما يُستأنس به ما ورد في كتاب الأغاني (٩ / ٥) حديثُ المرأة التي
«اختلى بها عمر».

العضود. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز قولهم: «اختلى به» بمعنى انفرد به.

* * *

(٨٥)

أدناه، أعلاه

١ - المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة: «أنا الموقع أدناه» ويرون أن الصواب: في أدناه.

٢ - الاقتراح:

جواز قولهم: «أنا الموقع أدناه، وأنا المذكور أعلاه».

٣ - التعليل:

يشيع في الاستعمال المعاصر إيقاع كلماتٍ مواقعٍ الظرفية، وقد مرّ في
قراراتنا السابقة مثل ذلك في استعمال كلمة: «عبر». وقد جعل النحاة
الظرف المبهم يشمل أنواعاً منها الجهات الست، وألحقوا ألفاظاً أخرى
منها: عند ولدى ووسط وبين وإزاء وحذاء، وما في معنى هذا، مثل: جهة
ووجه وكنف. في مثل: «قابلته داخل المدينة أو خارجها أو ظاهرها» أو
أعلاها وهكذا.. فكثير من النحاة يمنع نصب هذه الكلمات على الظرفية
المكانية لعدم إبهامها، ويوجب جرّها بالحرف، وفريق منهم يجيز ذلك
ويرى أن هذا هو الأوجه لما فيه من تيسير، لأن تلك الكلمات الدالة على

المكان لا تخلو من إبهام فهي شبيهة بالمبهم وملحقة به» ويرى المرحوم عباس حسن أن الرأي المجيز أولى بالاتباع، وإن كانت المبالغة في الدقة والحرص على سلامة الأسلوب وسموه تقتضي البعد عن الخلاف باستعمال الحرف (في) لاتفاق الفريقين على صحة مجيئه، فيجري التعبير اللغوي على سنن واحد». هذا وذكروا أمثلة عن العرب جاءت فيها الظروف المكانية وقد حذفت منها (في)، كقولهم: «هو مني مزجر الكلب، ومناط الثريا، ومقعد القابلة..».

ولما كان مجمع القاهرة قد أجاز «تظريف كلمات في محدث الاستعمال، وذكر منها الكلمات الآتية: طي، ضمن، باطن، أدناه، وسط.. وذلك بناءً على أن النحاة قد أجازوا من قبل كلمات منها: جهة، ووجه، وناحية، وداخل، وخارج، على أساس أنها شبيهة بالجهات في الشروع وانها لا تخلو من الإبهام وعدم الاختصاص، على الاتساع، سواء أكانت الأسماء مصادر أم كانت غير مصادر.. فإننا تقترح إجازة الأسلوب المذكور أعلاه.

العضو د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز قولهم: «أنا الموقع أدناه» و«المذكور أعلاه».

* * *

(٨٦)

أدانَ ودانَ

١ - المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة: «أدانت المحكمة فلاناً» بمعنى أثبتت عليه التهمة وجازته. لأن الفعل المسموع لهذه الدلالة هو (دان) ببناء (فعل) الثلاثي.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «أدانت المحكمة فلاناً» بمعنى جازته بما صنع، أو أثبتت التهمة عليه، وكذا مشتقاتها.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «دان الناس: قهرهم على الطاعة..الديان القهار وقيل الحاكم والقاضي..أدانه: استقرضه، وأدان فلاناً: صار له عليه دين، وأدان: استدان..دنته بفعله جزيته..كما تدين ثدان: أي تجزي بما تفعل..دان نفسه: أذلها واستعبدها، وقيل: حاسبها..دنت الرجل: حملته على ما يكره».
- المعجم الكبير: «دانه: حاسبه: جازاه بما صنع..أدان فلاناً: حكم بإدائته وعقوبته..أدانت المحكمة فلاناً: قضت بأنه مذنب».
- ويفهم من هذا أن (دان وأدان) جاءتا بمعنى واحد.

ب- في الصرف:

الفعل (دان) ثلاثي على بناء (فعل)، و(أدان) مزيد على الثلاثي على بناء (أفعل). وقد جاء (أفعل وفعل) بمعنى واحد في العربية نحو: شغلته وأشغلته، وبكر وأبكر، وصددته وأصددته، وحزنه وأحزنه.

ومما قاله سيبويه في الكتاب (٢/٢٣٦) وتناقله الصرفيون والنحاة من بعده: «وقد يجيء فعَلْتُ وأفعلْتُ فيهما المعنى واحد» ويعلم من هذا أن الصرف لا يمنع هذا الاشتقاق وهذه الدلالة.

ج- في الاستئناس:

- أجاز مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ١٠٥/٢ (أدان)

بمعنى (دان) أي جازى. كما أجاز قولهم: «حكمت المحكمة بالإدانة»، والإدانة هنا مصدر الفعل (أدان).
 ويلحظ أن مجمع القاهرة لم يُجِز (دان) بمعنى (أدان) كما يتَّوهم بعضهم، بل على العكس، أي أجاز (أدان) بمعنى (دان) لأن دلالة الثلاثي على المجازاة والعقوبة ثابتة.

العضو د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز قولهم: «أدانت المحكمة فلاناً»، بمعنى جازته بما صنع، أو أثبت التهمة عليه، وكذا مشتقاتها.

* * *

الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة مجمع اللغة العربية في الربيع الثاني من العام ٢٠١٦

أ. أنور درويش (*)

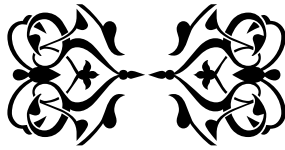
- ١- إتقان العربية في التعليم: أعمال الندوة الوطنية: محمد زغيدي، محمد طواهر، يوسف حاشي.... وآخرون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠٠.
- ٢- أيام الشام : خمسون عاماً مع القضايا والأحداث العربية أو الدولية: عدنان الملوحي، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، ١٩٩٤.
- ٣- بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة: فاضل بيات، لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان، ٢٠٠٥.
- ٤- بناء الدولة العربية الحديثة: تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق، هند غسان أبو شعر، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٩، (منشورات جامعة آل البيت؛ ٦٢).
- ٥- التصريف الملوكي: عثمان بن عبد الله بن جني، عني به: محمد سعيد النعسان، شركة التمدين الصناعية، القاهرة.

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

- ٦- دليل الأخطاء الشائعة في الكتابة والنطق: مروان البواب، إسماعيل مروة، دار الرضا، دمشق، ٢٠٠٠، (الرضا للمعلومات).
- ٧- دليل جموع التكسير: مروان البواب، محمد حسن الطيان، ممدوح عثمان، دار الرضا، دمشق، ٢٠٠٣، (سلسلة الرضا اللغوية والأدبية).
- ٨- ركن الدين الظاهر بيبرس: يرميك تورسونوف، ترجمة: سليمان زيدية، تقديم ومراجعة: محمد محفل، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٨.
- ٩- الشام في صدر الإسلام: نجدة خماش، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧، الطبعة الثانية، جزآن في مجلدين.
- ١٠- شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري: أحمد شهاب الدين الخفاجي، نسخة مصورة عن طبعة نظارة المعارف الجليلة، قسطنطينة، ١٢٩٩هـ.
- ١١- فرنسا والموارنه ولبنان: ياسين سويد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢.
- ١٢- في التاريخ الشامي: شاكر مصطفى، تقديم: حسين بطيخة، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٨، ج ٢ في ٢ مج.
- ١٣- في ظلال الأندلس: محاضرات: سلمى الكزبري، اختيار وتقديم: عبد الله أبو هيف، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، (الكتاب الشهري ٥).
- ١٤- العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب، دوروتيا كرافوليسكي، دار المنتخب، بيروت، ١٩٩٣، (دراسات تاريخية).
- ١٥- العربية وطرائق اكتسابها: محمد حسان الطيان، تحرير: أحمد عبد الرحيم، منتدى النهضة والتواصل، الخرطوم، ٢٠١٠.
- ١٦- كتاب الحروف: أبو نصر الفارابي، عني به: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩.

- ١٧- كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية: إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الطرابلسي، مصورة عن طبعة المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٣هـ.
- ١٨- كنز المترادفات: دياب عبد الكريم أبو سارة، تقديم: محمد حسان الطيان، دار غراس، الكويت، ٢٠٠٤، (كنوز العربية؛ ١).
- ١٩- اللسانيات العربية والإعلامية: محمد مرياتي، يحيى مير علم .. وآخرون، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨٩، (اللسانيات؛ ٧).
- ٢٠- المحكم والمحيط الأعظم: ابن سيده، عني به: عبد الفتاح السيد سليم، فيصل الحفيان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٣، طبعة جديدة منقحة ومفهرسة.
- ٢١- مسالك التراث في النحو والصرف: ياسين طربوش، قدم له: وهبه الزحيلي؛ عني به: أيمن الشوا، دار الشلاح، دمشق، ٢٠٠٤.
- ٢٢- نكتة الإعراب: ابن هشام الأنصاري، عني به: غازي مختار طليمات، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٦.

* * *



تنضيد وإخراج: عمار البخاري